موسى سليمان



الأدبُ القصصي
عِندَ العَرَب

دار الكتاب
بيروت - لبنان

حزيران ١٩٥٠



موسى سليمان

ماجستير في الآداب

الأدب القصصي
عند العرب

أعدّ هذا البحث في الاصل وقُدّم عام ١٩٤٥ الى كلية الآداب في جامعة بيروت الاميركية لنيل رتبة ماجستير في الآداب

للمؤلف :

١ – الحب العذري – دار العلم للملايين ١٩٤٧
٢ – يحكى عن العرب – دار العلم للملايين ١٩٤٨
٣ – الأدب القصصي عند العرب – دار الكتاب ١٩٥٠

تحت الطبع :

١ – أميّة المثقفين – من أدب المقالة
٢ – زنابق الليل – من الادب المهموس

مقدمة البحث

« كان ما كان » صوتٌ عميق ، قديم من اصوات المعابدِ العتيقة ، يحملُ بين طياته الف لونٍ ولون من الوان الحياة النابضة ، الزاخرة بالالغاز والأسرار ! !

« كان ما كان » صوتٌ رهيب حبيب الى النفوس المتعطّشة لجمال الحياة ، بل هو صوتُ الأغوار العميقة والازمنة السحيقة ، بما فيها من آفاق فسيحة تعجّ بالخير والبركة ، والدين والمعرفة والعلم والفلسفة ! !

هو صوتُ الآلهة ، يومَ كانتِ الآلهة ، أبناء السماء ترشّ على الدنيا حكاياتها أساطير أساطير ! ! يوم « كانت الآلهة تفتش عن كتاب السحر العجيب في قاع بركةٍ في مدينة قَفْط (Captos) داخل صندوقٍ من الحديد ، وآخر من النحاس الاحمر ، ضمن آخر من شجر الجمّيز ، في صندوقٍ من العاج والابنوس ، في صندوقٍ من الفضة، ضمن آخر من الذهب » ! ! تحيط بهذه الصناديق العجيبة الغريبة « حيةٌ » ملتفّة لا بداية ولا نهاية لها... وتسكن المياه حول الصندوق كثير من الثعابين والحيات، والافاعي والعقارب وكثير من الزَّواحف[1] » .

هو صوتُ الانسان ، يوم كان الانسان إلهاً بثلثيه وانساناً بثلثه الثالث ، وكان يصارعُ الناس كثورٍ وحشي فتعشقه عشتروت الهة الحب وتعرض عليه حبها قائلة :

« كنْ حبيبي يا جلكامك[2] ، كن زوجي ، او لأكن زوجتك ! أدْخلْ مسكني بين جذوع الارز ، فحين تدخل مسكني ، الذين يجلسون على العروش يلثمون رجليك ! .. » فيرفض جلكامك طلبها بعزةٍ واباء ويعيّرها قائلاً :

« روحي فلأفضحنّكِ أمام تموز ، حبيب صبوتك ! !

« إنك أحببتِ العصفور الصغير في الجنينة ثم ضربتِهِ وحطمتِ جناحيه ! !

« أحببتِ الاسد، وهو من قوّته في العنفوان ثم حفرتِ له سبعاً فسبعاً من الحفر !!

(١) محمد صابر — ادب الفراعنة ص : ١٤٢

(٢) نعرفها بالشين بدل الكاف اي جلكامش

« أحببتِ الحصان المتعجرف في الوغى ، ثم خصصتِ به المهاز والسوط ! !

« أحببتِ الراعي ، وكان كلّ يوم يذبحُ لك جداءه ، ثم ضربتِه وحولته الى هرٍّ وحشيٍّ . .

« وانا ستحبينني ... وكما تغيرت على هؤلاء تتغيرين علي[1] ... »

هو صوتُ الملوك ، يوم كان الملوك يملكون الف سنة ويفتتحون الف مدينة ، وينكحون الف عاتق ، ثم يصيرون الى الارض ، فراشهم التراب ووسادهم الحجر ، وجيرانهم الدود[2]

يوم كان يأمر ُشمَّر يرعشْ بن مالك ناشر النعم فيقول :

« إئتوني ببقايا سحرة سليمان بن داود وبلقيس فيأمرهم ببناء قبة ابيه ، مالك ناشر النعم بالكلس الازرق ، فيجيدون الصنعة فيه بالدهن والصقل حتى يصير جبلاً منيعاً كالمرآة السجنجل، ثم يطوف به فيرى نفسه وفرسه وجميع من معه من خارجه، في جميع جهاته ، فيعجبه ؛ ويرى الطير اذا همّت ان تنزل عليه ، رأت تمثالها فيه فتهرب ولا تقرب فلا ينزلُ عليه طائر. ويأمر الجنّ ان تقعد حوله لا يدنو منه احد من الناس[3] »

« كان ما كان » صدًى حلو لصوتٍ حلو هو صوت عبلة ، يوم كانت تنادي عنترة ابن عمها قائلة :

« انعشوا روحي وداووا كمدي	وخذوا نحو ابن عمي بيدي
قلّ صبري وتشفّى حاسدي	ولقيتُ الذلّ بعد الاسودِ
جسدي يضعفه ريح الصّبا	كيف يقوى للعذابِ المجهدِ !
قربوني من حمى عنترةٍ	ليس يحمي الظبيَ غيرُ الاسدِ
واخبروهُ أنني من بعده	لم ازلْ في حيرةٍ لا اهتدي
وردُ خدّيّ الذي تعهدُهُ	غيّرتهُ ادمعٌ كالبَرَدِ
وجفوني زال عنها حسنُها	وشكتْ طول البكا والرّمدِ

(١) عبدالله غانم — كتاب الاجيال ص : ١٦
(٢) الهمداني — كتاب الاكليل ج ٨ : ١٩٥ و٢٠١
(٣) الهمداني — كتاب الاكليل ج ٨ : ٢٥٢

غربةٌ دائمةٌ عنـد العدى وعـذابٌ فاق طور الجَلَدِ
لو لقي بعضَ الذي لاقيتُه جلمدٌ، ذاب فؤاد الجلمد [١] »

هو صوتُ الجنّ يوم كان الجن يبنون المنازل ويشيدون الدور والقصور، ويبرئون المرضى ويخاطبون الناس ويهتفون بهم باصواتٍ مفهومة تتكلم الحميريّة والعربيـة ، ويخدمون الملوك اذ « كانوا يأتونهم بفواكه بلاد الهند طرية [٢] »

هو صوتُ الجن يوم كانت نساء الجن تعشق الناس وتعرف من تعشق فتختـار الواحدة منهنّ أبرهة الملك ، وهو اجمل الناس وجهاً وتهجم عليه وتقول له : « ايها الملك : اني عشقتك وليس لي منك بد وانا حنيفية على دين ابراهيم ، وانا لا ارضى بالزناء ولا ادين به فاختر من اربع خلالٍ واحدة :

« ان شئتَ قتلتك ، وان شئت اعميتك ، وان شئت ابرصتك والا فتزوجني » .
ولا شك في ان ابرهة كان ذكياً فاختار الخصلة الاخيرة وقال لها :

« اذا خيراً اختار ... انا اختار منك العافية يا عيّوف [٣] »

واخيراً ، « كان ما كان » هو صوت مرعب مخيف ، هو صوت الكفار القتلة ، خارجاً من نار جهنم ، صوت آدمي أسود ، يخرج من الارض المنشقة وهو يشتعل ناراً من قرنه الى قدمه ، وفي عنقه سلسلة يجرها خلفه وهو يصيح :

« يا عبدالله اسقني ! ! يا عبدالله اسقني » ولكن سرعان ما يخرج في اثره رجلٌ آخر يده في طرف السلسلة فيجره ويقول :

« يا عبدالله لا تسقه هذا عدوّ الله ابو جهل لعنه الله ! ! » ويأخذ بضربه حتى يدخله القبر وتنطبق الارض عليه [٤]

هل عرف العرب الملاحم ؟

« كان ما كان » وكان للعرب ماضٍ ادبي زاهر حافل بجلائل الاعمال فجاء العلماء

---

(١) سيرة عنترة ج ١ : ١٧٥
(٢) الهمداني ـ الاكليل ج ٨ : ٢٩ و٧٩ و٨٠ و٨٩
(٣) الهمداني ـ الاكليل ج ٨ : ٢٣٨
(٤) الهمداني ـ الاكليل ج ٨ : ١٧٧

من مستشرقين وغير مستشرقين ، يدرسونه ، كل على ضوئه الخاص وبطريقته الخاصّة ونظرياته النقدية الخاصة فمنهم من رفعه الى اعلى الدرجات ومنهم من انكر على العرب إلمامهم بفنونٍ ادبية كثيرة واخصها القصة .

« كان العرب يعرفون ملوك اليونان حتى كليوباترة ، ويعرفون أباطرة الرومان ، أما امثال توسيديد من المؤرخين فلم يعرفوا عنهم شيئاً حتى ولا اسماءهم . ولم يأخذوا عن هوميروس اكثر من عبارته المشهورة : (يجب ان يكون الحاكم فرداً) . ولم يكن لهم معرفة بالقصصيين الأغريق ولا بشعراء الاغاني ولم تؤثر الثقافة اليونانية في العرب الا من طريق الرياضيات والطبيعيات والفلسفة[١]

ويقول مستشرق آخر : « ان ثمار الترجمات العربية عن اليونانية كانت الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبية[٢] »

وتنتقل هذه الفكرة من المستشرقين الى البحّاثين العرب فيقول احدهم :

« إن العرب اخذوا عن اليونان فلسفتهم وحكمتهم كما نقلوا عنهم الى العربية علوماً شتى كالطب والنجوم وغيرها ، ولكنهم لم يأخذوا عنهم فن القصص وخاصة القصص التمثيلي . » ثم يضيف في مكانٍ آخر :

« اما القصة بمعنى اختراع الاشخاص وتمهيد المكان وابتكار الحوادث وخلق الوقائع ونقض الصفات على ممثليها على ان يتجه كل ذلك الى غايةٍ واحدة ويدرج الى غرض معين ، فذلك ما لم يُعنَ به العرب ولم يتوجهوا اليه[٣] »

ويقول اديب ثانٍ :

« ان العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القَصَص المعقد الذي وجد كثير منه فيما أُثر عن اليونان القدماء والذي ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيس والالمان[٤] »

ويقول اديب ثالث من الادباء المعاصرين المرموقين :

« . . . كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة ،

(١) ده بور — تاريخ الفلسفة في الاسلام ص : ٢٦ ترجمة ابو ريده

(٢) J. Hell - The Arab Civilization p: 87.

(٣) عبد العزيز البشري — المختار ج ١ : ٢٤

(٤) زكي مبارك — النثر الفني ج ١ : ٢٠٤

مفهومة ، مختطفة اختطافاً ، لان كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الاغريق الحركة اي الحياة وعند العرب السرعة اي اللذة . لم تفتح امة" العالم باسرع مما فعلت العرب . ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من اطايبها اختطافاً ، ركضاً على ظهور الجيـــاد . كل شيء قد يحسونه الا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم ارض ولا ماضٍ ولا عمران ! دولة" انشأتهـا الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا ارض فلا استقرار وحيث لا استقرار فـلا تأمّل وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا احساس بالبناء . كل شيء عنـد العرب زخرف . الادب نثر وشعر لا يقوم على البناء فلا ملاحم ولا قَصَص ولا تمثيل[١] »

ويقول اديب رابع متحدثاً عن فن القصص :

« وله عند الفرنج مكانة مرفوعة وقواعد موضوعة . اما عند العرب فلا خطر ولا عناية به ، لانصرافهم عما لا رجع الدين منه ولا غناء للملك فيه . فمروا لذلك ، على ما كتب اليونان والرومان دون ان يترجموه او يقلدوه[٢] . »

ولقد سبق جرجي زيدان جميعَ المؤرخين العرب المحدثين الى اعتناق هـذه الفكرة التي اشار اليها المستشرقون فقال :

« ان العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود . فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم . وترجموا الشاهنامه . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيروديتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسته[٣] » .

ويضيف في مكان آخر :

« والروايات فن له شأن عظيم في آداب اللغات الافرنجية يكاد يكون اهمها . واما في العربية فانه من اضعف فروع الادب » ثم يقول : « يظهر ان العرب قلمـا اهتموا لهذا الفن في صدر دولتهم ولا التفتوا الى ما كان منه عند اليونان لما نقلوا علومهم[٤] »

وكان من المتوّجب تقديم رأي النقادة ابن الاثير في خاتمة كتابه « المثل السائر » على جميع هذه الآراء . فقد اشار في حديثه عن الفروق بين الكتابة والشعر الى ان

---

(١) توفيق الحكيم ـ تحت شمس الفكر ص: ٧٤ و٧٥

(٢) حسن الزيات ـ الادب العربي ص: ٢٤٧

(٣) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢: ٣٥

(٤) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢: ٢٩١

الشاعر في لغة العرب اذا احتاج الى الاطالة فانه لا يجيدُ في جميع ابيات قصيدته بل في القليل منها ، اما الكاتب فيمكنه الاجادة في ذلك كله . قال :

« وعلى هذا فاني وجدتُ العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها . فان شاعرهم يذكرُ كتاباً مصنّفاً من اوله الى آخره شعراً وهو شرح قصص واحوال . ويكون ، مع ذلك ، في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه . وهو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس . وهو قرآن القوم . وقد اجمع فصحاؤهم على انه ليس في لغتهم افصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية ، على اتساعها وتشعب فنونها واغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرةٍ من بحر[1] . »

ومثلُ هذه الآراء كثيرٌ غيرها وكلها تنطق بان العرب لم يعرفوا فن القصة ولم يحسبوه فناً ادبياً قائماً بذاته ولم يلتفتوا الى التراث القَصَصي اليوناني ليترجموا بعضه كما فعلوا في الفلسفة والعلوم اليونانية .

ولو جئت تسأل هؤلاء النقاد عن الاسباب التي حدت بالعرب الى عدم التفاتهم الى الفن القصصي والى عدم اهتمامهم بترجمة الكتب الادبية اليونانية الى اللغة العربية لاجابوك باجوبة كثيرة وادلوا اليك باسباب عديدة قد يكون بعضها وجيهاً نلخصها فيما يلي :

اولاً : قلة الاساطير : «..فالعربي غير عميق في تخيله وهو الذي استوطن الصحراء المجدبة وعاش عيشة بدوية لا يعرف له مسكناً الا بيوتاً من الشعر ، ثروته ناقته او عنزته ، دائم الارتحال يسعى وراء المرعى ، قنوع بالقليل ، لا تكتنفه غير الرمال الشامعة فلذلك نشأ قليل الاساطير ومن ثمّ قليل القصص لاتصال الاولى بالثانية[2] » .

ثانياً : ليس فوق الادب العربي ادب : هذا كان اعتقاد العربي في ادبه وربما لا يزال بعضنا يعتنق هذا الراي الى اليوم . لقد اهتم العرب بترجمة الكتب العلمية والفلسفية من اللغتين اليونانية والفارسية ولم يترجموا الكتب الادبية وخاصة عن اليونانية لأنهم كانوا يعتقدون ان لهم في آدابهم غنىً عن آداب غيرهم من الشعوب .

ثالثاً : العرب اهل بديهة وارتجال : « ان مزاولة القصص تقتضي الرويّة والفكرة

---

(١) ابن الاثير — المثل السائر ص: ٥٠٢

(٢) محمود تيمور — نشوء القصة وتطورها ص: ١٨

والعرب اهل بديهة وارتجال ، وتطلب الالمام بطبائع الناس وقد شغلوا بانفسهم عن النظر فيمن عداهم ، وتفتقر الى التحليل والتطويل وهم اشد النـــاس اختصاراً للقول واقلهم تعمقاً في البحث[١] . »

رابعاً : ذكر الآلهة والاصنام : ان كثرة الآلهة وذكر الاصنام في الالياذة منعهم من نقلها الى اللغة العربية خوفاً منها على عقائدهم الدينية[٢] . وهنا يخطر ببال البحاثة جرجي زيدان اعتراض على هذا السبب فيقول :

« ولكنّ في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك (اي من الآلهة والاصنام) فلم يمنعهم من نقلها . لكن الترجمة ضاعت[٣] »

والآن نتساءل : لماذا يترجم العرب الشاهنامة ولا يترجمون الالياذة ؟ وهل تذوّق العرب شاهنامة الفرس التي ترجموها ؟ بل هل اثرت هذه الشاهنامة في ادبهم والى اي حـــدّ ؟

لا شك في ان تأثر العرب بالفرس وبآدابهم كان اشد من تأثرهم باليونان وآدابهم . فالشاهنامة التي يقول عنها زيدان انها تُرجمت وضاعت قد وجدت منها نسخٌ عديدة ونشرت بعناية الاستاذ عبد الوهاب عزّام[٤] وليس من المستبعـــد ان يترجم العرب شاهنامة الفرس وغيرها من كتبهم الادبية والتاريخية كخداي نامـه او سير الملوك ، وكتاب التاج في سيرة انوشروان كما سنرى ، لاسيما وان العربي ، ذلك المحافظ على ادبه ومجتمعه وعاداته المقدسة قد جاءه الدين الجديد بنظم جديدة وتعاليم جديدة هيأت لهذا الدين سبيـــل الانتشار فانتشر ومهدت له الفتوحات طريق السيطرة فسيطر على الدولة الفارسية سيطرة فعالة فذابت في جسم الدولة العربية حتى كادت تصبح الحياتان حياة واحدة ، مما سهل امام العرب الامتزاج بالفرس امتزاجاً كلياً ، كانت ثماره تذوّق العرب حياة الفرس الاجتماعية واخذهم عنهم الشيء الكثير[٥] ! . .

---

(١) حسن الزيات — تاريخ الآدب العربي ص: ٢٤٧

(٢) زيدان — تاريخ آداب اللغة ج ٢ : ٣٥ ومحمود تيمور ص : ٢٤ واحمد امين — ضحى الاسلام ١ : ٢٨١

(٣) زيدان ج ٢ : ٣٥

(٤) راجع مقدمة الشاهنامة ج ١ : ٩٦ نشر عبد الوهاب عزام تجد الترجمة لقوام الدين الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني . ترجمت في اوائل القرن السابع هجري .

(٥) احمد امين — فجر الاسلام ص ١٦٤ و١٦٥ تجد تفصيلا لهذا القول

اما اليونان فلم يعرفهم العرب هذه المعرفة الحميمة، ولم يحتكوا بهم هذا الاحتكاك المولد، فلم يفتحوا لهم صدورهم، خاصة وان القوم لم يصل اليهم قبس الدين الجديد فيقربهم من العرب. زد على ذلك ان الترجمات عن اليونانية كانت تترجم الى السريانية اولاً ومنها الى العربية[١].

ويجد احمد امين لضعف هذا التأثير اليوناني في الادب العربي، فوق هذه الاسباب التي ذكرناها اسباباً اخرى اهمها:

« ان الفلسفة والعلوم عالمية والادب قومي، ذلك ان الفلسفة والعلم نتاج العقل والادب لغة العواطف، وليس للعواطف منطق يضبطها[٢] ». ويقوده هذا الزعم الى الاستنتاج « ان العرب تذوّقوا منطق ارسطو وطب جالينوس ولم يتذوّقوا الياذة هوميروس ». ولكن هذا الكلام لا يجيب على سؤالنا وهو: « لماذا تذوّق العرب ادب الفرس فترجموه ؟ » أيكون لهذا الامتزاج الفارسي العربي الذي اشرنا اليه اثره في ذلك ؟ قد يكون . . .

ويلاحظ الباحث في الادب العربي طغيان الشعر طغياناً جارفاً مما حمل ادباءهم الأقدمين ونقاديهم على القول: « ليس احد من العرب، الا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً رُكّب فيهم، قلّ او كثر[٣]. » فلعل انصراف العرب الى قرض الشعر « والشعر لا يحتاج الى خبرة في الحياة بل ربما احتاج الى جهل بها[٤] »، اقول لعل انصرافهم الى الشعر صرفهم عن الاشتغال بغيره من ضروب الأدب، فوقفوا كل نبوغهم ووجّهوا جلّ قواهم « الى قول الشعر وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام[٥] » على حد تعبير الجاحظ.

ان العرب عرفوا القصة

والغريب ان هناك قوماً من المستشرقين والبحاثين العرب لا يُقرّون هذه الآراء

---

(١) J. Hell - The Arab Civilization p: 87.

(٢) احمد امين — ضحى الاسلام ج ١ : ٢٨٠ و٢٨١

(٣) ابو الفرج الاصفهاني — الاغاني ج ٢٠ : ٥١

(٤) ديهامال — دفاع عن الادب ص: ٧٨ ترجمة محمد مندور

(٥) الجاحظ — رسائل الجاحظ ص: ٤١

في تفاصيلها ولا يقولون بها كلها بل يقفون الى جانب التراث القـَصَصي العربي ، مدافعين يصدون عنه تهجمات النقاد مندفعين الى القول : « كما ان اوروبا مدينة بديانتها لليهود ، فكذلك هي مدينة بقَصَصها للعرب[١] »

وقد حاول المستشرق جب، مدير معهد الدراسات الشرقية بجامعة اكسفورد ، ان يظهر اثر الادب العربي في الآداب الغربية وخاصة ادب القصة في القرون الوسطى فوفق توفيقاً كبيراً الى ذلك في بحثه القيم في كتاب تراث الاسلام . وللبارون كارادوفو بحوث مطوّلة في الحكايات العربية الكثيرة وهو القائل :

« Dans le genre des Contes la littérature arabe n'est dépassée par aucune autre. »

اي « انه لم يسبق الادب العربي ايّ ادب آخر في نوع الاقاصيص[٢] . » وهذا صحيح الى حدٍ بعيد وقد درسنا ذلك في بحثنا عن القصص الاخباري كما سيأتي .

وشجعت هذه الاقوال بعض ادبائنا المحدثين فقالوا : « ان امة تبدع حكايات الف ليلة وليلة ، هي امة القصة ُ في دمها[٣] » . ولكن هل ابدعت الامة العربية حكايات الف ليلة وليلة ؟ هذا يحتاج الى درس مستقل قائم بذاته .

هذا عرض سريع لمختلف الآراء في نتاج العرب القصصي ، الموضوع والمترجم . ولهذه الآراء من ناحيتيها ، السلبية والايجابية ، قيمة لا يستطيع الباحث المدقق ان يتجاهلها او يقلل من اهميتها . فالعرب عرفوا القصة وان حسبوها على هامش الأدب ووضعوا الكتب القصصية الكثيرة ، ولو غير بالغة حد الكمال . والعرب اقبلوا على تراث الامم التي احتكوا بها وامتزجت حياتهم بحياتها فترجموا ادب الفرس وان كانوا لم يهضموه في مجموعه ، واعتمدوا في ترجماتهم القصصية على اقاصيص الهند دون ان يتشربوا روحها . فمن الاجحاف ان نرمي العرب، في كل سانحة تسنح ، بالتقصير العلمي والتفكير السطحي دون ان نتعمق في دراسة اثارهم الفكرية ، ونتخصص في مختلف حقول هذه الآثار ، مسلحين باسلحة العلم الحديث ، نتخصص تخصصاً علمياً نزيهاً يؤهلنا ان نصدر احكاماً نهائية تساعدنا على اصلاح حاضرنا وبالتالي مستقبلنا . لقد أخذ

---

(١) مكائيل — تراث الاسلام ص: ١٧٤

(٢) Carra de Vaux - Penseurs de l'Islam, N: I p: 359.

(٣) منير بعلبكي — العروة الوثقى ـ كانون الثاني ١٩٣٩

العرب عن غيرهم من الامم ما اخذوا ، وتأثروا بهذه الامم تأثراً يتفاوت في العمق والمقدار، ثم اعطوا من نتاجهم اماً كثيرة اخرى ، واثروا فيها آثاراً عظيمة، وخاصة في القرون الوسطى . وكان لهاتين الحركتين ، الاثر والتأثر ، فوائدهما وتفاعلها في الجسم العربي والنفس العربية . واليوم ونحن نريد ان نعرف ما لنا وما علينا ، يجب ان ننصبّ على هذا التراث في مختلف نواحيه وندرسه بعين مجردةٍ عن الغرض وقلب خال من الهوى ، متعمقين ، مقارنين ، محاولين ان نستفيد من أخطاء الماضي لاصلاح الحاضر ، لا ان نعمل على نبش القبور وطرح العظام النخرة على جادة الطرق في وجوه الناس !.. على هذا المنهاج أسير في دراستي القَصَص العربي في الاعصر العباسية، وهي مدة من الزمن طويلة ، ان اختلفت في حكامها السياسيين واحزابها الكثيرة فهي لم تختلف اختلافاً بيّناً في آدابها وروحها ومزاياها الفكرية العامة .

انواع القصص العربي

ان التراث القصصي العربي يقسم الى قسمين رئيسيين :

١ – القَصَص الموضوع : اي الذي وضعه العرب

٢ – القَصَص الدخيل او المنقول .

والمنقول يقسم بدوره الى اقسام وهو ليس موضوع بحثنا في هذه الرسالة . لذلك فنحن نخصه، في هذه المقدمة، بدرس موجز لنطلع على الاسس التي يقوم عليها ولنتعرف الى مصادره المختلفة .

اما المصادر التي استمدّ منها هذا القصص الدخيل فاهمها :

الفارسية والهندية ، واليك جدولاً باسماء الكتب القصصية التي نقلت عن الفارسية وآخر باسماء الكتب التي نقلت عن الهندية :

القَصص الفارسي

١ – كتاب كليلة ودمنة – وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل

٢ – هزار إفسانه – ومعناه الف خرافة وهو اصل من اصول الف ليلة

٣ – كتاب يوسْفاسْ

٤ – كتاب خرافة ونزهة .

٥ – كتاب الدب والثعلب .

٦ – كتاب روزبه اليتيم

٧ – كتاب نمرود

٨ – كتاب مزدك

القصص الهندي :

١ – كتاب سندباد الكبير والصغير

٢ – كتاب بوداسف

٣ – كتاب كليلة ودمنة – وسنرى ان اصله هندي ثم ترجم الى الفهلوية ومنها الى العربية .

٤ – كتاب الهند في قصة هبوط آدم

٥ – كتاب ملك الهند القتال والسبّاح

٦ – الف ليلة وليلة – وبعض حكاياتها هندية الاصل كما سنرى .

القصص اليوناني :

اما القصص اليوناني فلم يترجم منه شيء يستحق الذكر كما تقدم معنا .

هذه هي اهم الكتب القصصية المنقولة عن اللغات الاجنبية الى اللغة العربية، ولكن لم يصلنا منها الا القليل واشهرها : الف ليلة وليلة وكتاب كليلة ودمنة وسيأتي الكلام عنها .

القصص الموضوع وأقسامه

وقبل ان ابحث في القصص العربي الدخيل احب ان اضع بين يدي القارىء جدولاً بالحكايات التي وضعها العرب فكانت نتاجاً عربياً صرفاً . وهي كثيرة ومتنوعة . لذلك فلقد قسمتها الى خمسة اقسام رئيسية تقسّم بدورها كما يلي :

١ – القصص الاخباري

٢ – القصص البطولي

٣ – القصص الديني
٤ – القصص اللغوي او المقامات
٥ – القصص الفلسفي

واليك الآن الحكايات التي تدخل تحت كل قسم من هذه الاقسام :

- ١ – القصص الاخباري ويدخل فيه
  - ١ – القصص الغنائي
  - ٢ – القصص الحبي
  - ٣ – القصص الفخري
  - ٤ – القصص الهجائي الخ . الخ .

وسيأتي الحديث عنه مفصلًا .

- ٢ – القصص البطولي ويدخل فيه
  - ١ – قصة عنترة
  - ٢ – قصة بكر وتغلب
  - ٣ – قصة البرّاق – عمر بن شبة + سنة ٢٦٢ هـ
  - ٤ – قصة كسرى انوشروان – بشر الاسدي

- ٣ – القصص الديني ويدخل فيه
  - ١ – كتاب قصص الانبياء للكسائي – القرن الخامس
  - ٢ – كتاب العرائس للثعلبي + سنة ٤٢٧ هـ ؟
  - ٣ – بعض الحكايات الدينية القصيرة المطبوعة على حدة

- ٤ – القصص اللغوي ويدخل فيه
  - ١ – مقامات الهمذاني + سنة ٣٢٨ هـ
  - ٢ – مقامات الحريري + سنة ٥١٦ هـ

٥ – القصص الفلسفي ويدخل فيه:
١ – التوابع والزوابع – ابن شهيد + ٤٢٦ هـ ؟
٢ – رسالة الغفران – المعري + سنة ٤٤٩ هـ
٣ – حي بن يقظان – ابن الطفيل + سنة ٥٨١ هـ
٤ – الصادح والباغم – ابن الهبّاريّة + سنة ٥٠٤ هـ ؟

وعندي ان كل قسم من هذه الاقسام الخمسة يتطلب بحثاً قائماً بذاته لذلك فلن نتناول في رسالتنا هذه الا الابواب الثلاثة الاولى لان هذه الابواب الثلاثة هي الصق بحقيقة القصة من البابين الاخيرين ولان البحث العلمي المستفيض في جميع هذه الاقسام يتطلب كتاباً ضخماً قد لا تكون هذه الرسالة الا جزءه الاول .

اما في المقدمة فساحصر بحثي في القصص العربي الدخيل ، محاولاً ان اعرض آراء بعض المستشرقين والنقاد الذين درسوا هذا التراث القصصي درساً علمياً نستطيع بواسطته ان نحكم على قيمة هذا التراث ، ادبياً وفنياً ، فنرى اثر العرب فيه وهل تذوّقوه ؟ والى اي حد ؟ ولقد اخترت من هذه الآثار القصصية المترجمة الف ليلة وكليلة ودمنة لانها الاثران البارزان في القصَص العربي الدخيل .

الف ليلة وليلة

تسميتها : ان اول من ذكر اسم الف ليلة وليلة من المؤرخين العرب هو المسعودي في كتابه « مروج الذهب » وهو من مؤرخي القرن الرابع للهجرة + سنة ٣٤٦ هـ قال :

« ... ويقال له (اي لكتاب الف ليلة وليلة) إفسانة وتفسيرها خرافة بالفارسية ، والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته ، وجاريتها شهرزاد ودينارزاد[١] . »

١) المسعودي — مروج الذهب ج ١٧ : ٨٩

اما الذي بحث في اصـــل هزار افسانة وفنّد اصله فابن النديم صاحب كتاب الفهرست قال :

« ان ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد. فتزوج بجارية من اولاد الملوك لها عقل ودراية ، يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ، ابتدأت تخرّفه وتصلُ الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألهـا في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى ان اتى عليها الف ليلة ، الى ان رزقت منه ولداً اظهرته واوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها[١] . »

هذا هو المشهور عن تسميتها عند العرب . اما بعض المستشرقين فيزيدون على هذا بعض الآراء المضحكة في سبب تسميتها باسم الف ليلة وليلة فيقول احدهم مثلاً . « ان الف ليلة وليلة سميت بهذا الاسم لان العادة حرمت على المسلمين ان يقصوا حكاياتهم الخرافية في النهار . وقد سرى اعتقاد بين اوساط الشعب ، وخاصة بين اولاد القُصاص ان من يخالف هذه القاعدة يُصاب بشر كبير[٢] . »

وراج اعتقاد آخر عند بعض الكتاب فحواه ان العرب في القرنين الرابع والخامس عشر كانت لهم آراء خرافية كثيرة في كتاب الف ليلة وليلة منها ان كل من يقرأه يموت او يصاب بضرر شخصي كبير .

اصول الف ليلة وليلة : اختلف العلماء المستشرقون في اصول الف ليلة وليلة اختلافاً كبيراً . وليس في استطاعة الباحث ان يصل الى نتيجة حاسمة في هذا الموضوع يطمئن اليها فكر الاديب ويرتاح اليها ظن العالم . انما باستطاعتي ان اقرر مطمئناً الى ان كاتب الف ليلة وليلة هو اكثر من شخص واحد بل ان كتابها كثيرون عديدون مختلفون في بلدانهم وتفكيرهم وجنسياتهم . فالذين فرضوا ان الف ليلة وليلة هي عربية الاصل او من ابداع العرب فقط ، قد اخطأوا ولو ان اللون العربي فيها هو من ابرز الوانها . ان حكاياتها التي تحمل الطابع العربي ليست عربية في اساسها رغم انهـــا معروضة باسلوب عربي .

لقد استطاع الذين تخصصوا في دراسة هذا الاثر الفني الادبي ان يُرجعوا كل حكاية

---

(١) ابن النديم ــــ الفهرست ص : ٣٠٤

Chauvin V. - Bibliographie des Ouvrages Arabes T. IV p : 10. (٢)

الى اصلها . « فاطار الف ليلة وليلة يرجع الى الهند لا الى فارس[١] » كما ان بعض حكاياتها من اصل يوناني ومن هذه الحكايات حكاية السندباد البحري المشهورة التي يعتقد دوفو في امكانية تأثرها بالادب اليوناني ، فيقول عنها :

« De tels sentiments honorent le monde islamique qui ne passe cependant pas, pour avoir eu dans l'ensemble, un goût bien vif de la vie maritime. »

« ان مثل هذا الشعور يشرّف العالم الاسلامي ، الذي أثر عنه ، على العموم ، ان ليس له تذوّق صحيح للحياة البحرية[٢] . »

ويؤكد هؤلاء العلماء ان بعض حكايات الف ليلة وليلة كتب في بغداد وان البعض الآخر كتب في القاهرة . فحكاية علي بابا والاربعين سارقاً مقتبسة عن حكاية مصرية قديمة قد تكون هي بدورهـــا مقتبسة عن حكاية اخرى يونانية . وقد حلل بعض المستشرقين كثيراً من هذه الحكايات فوجدوها في روحها ومزايا بعض شخصياتهـــا البارزة تتوافق وتتجانس مع اخلاق الشخصيات القصصية اليونانية ، وعبقرية اليونان الادبية[٣] .

ويذهب فريق آخر الى القول ان بعض الحكايات من اصل يهودي[٤] .

نستنتج من كل ذلك ان الف ليلة وليلة هي مزيج من آداب مختلفة وثقافات مختلفة هضمها العرب هضماً كلياً وصبغوها بلون عربي بارز . فهي وان كانت في بعض حكاياتها فارسية الاصل ، او هندية الاصل ، او يونانية الاصـــل فاصلها العربي يبقى مسيطراً سيطرة بارزة وهو ركن قوي من اركانها الاساسية . كذلك قل في الجو العربي الذي تجري فيه اكثر حوادثها فان هذا الجو يكسبها لونـاً عربياً يجعلها مفخرة من مفاخر الادب القصصي العالمي .

واخيراً هناك من يدّعي ان لبعض حكاياتها اصلاً تاريخياً حقيقياً[٥] . »

---

(١) منير بعلبكي — اصول الف ليلة وليلة — رسالة مخطوطة في مكتبة الجامعة الاميركية .

(٢) Carra de Vaux - Penseurs de l'Islam T. II p: 50.

(٣) Carra de Vaux - Penseurs de l'Islam T. I p: 366.

(٤) احمد امين — ضحى الاسلام ١ : ٣٣٨

(٥) المقتطف ،ج ٢٩ : ٨٢٥

شهرتها وترجمتها

لقد حظيت حكايات الف ليلة وليلة بشهرة عالمية قلما توفرت لكتب عربية مثلها. ولست مغالياً اذا قلت انها ترجمت الى جميع لغات العالم . فالايطالية واليونانية ، والفرنسية، والرومانية، والاسبانية، والبورتغالية، والالمانية، والهولندية، والفلمنكية، والسويدية ، والدانماركية ، والاسلندية ، والانكليزية ، والروسية ، والبولونية ، والهنغارية ، جميع هذه اللغات عرفت الف ليلة وليلة في ترجمات عديدة مختلفة فتمكن ادباء العالم من ان يغرفوا من هذا التراث الادبي القصصي الشيء الكثير . وليس باستطاعة الباحث مهما كان دقيقاً ، ان يُلم باسماء جميع الادباء العالميين الذين تأثروا بالف ليلة وليلة . وهاك بعضهم على سبيل المثال :

من الألمان : فيلاند (Wieland) (١٧٣٣ — ١٨١٣)
بورجر (Burger) (١٧٤٧ — ١٧٩٤)
هافمان (Hoffmann) (١٧٧٦ — ١٨٢٢)
ميلر (Müller) (١٧٩٧ — ١٨٤٠)
خميسو (Chamisso) (١٧٨١ — ١٨٣٨)
بلاتن (Platen) (١٧٩٦ — ١٨٣٥)

من الانكليز : ستو (Stowe)
تنيسون (Tennyson) (١٨٠٩ — ١٨٩٢) وقد نظم قصيدة في الف ليلة وليلة
ديكنز (Dickens) (١٨١٢ — ١٨٧٠) وهو ، كما يظهر لنا من كتابه دافيد كوبرفيلد، قد قرأ الف ليلة وليلة في حداثته وتأثر بها.

وهناك ادباء كثيرون من فرنسيين وايطاليين ودانماركيين تأثروا بالف ليلة وليلة حتى قال جب في بحثه الذي اشرت اليه سابقاً: « ان قصة شوسر (+ سنة ١٤٠٠) المسماة حكاية الفارس الغلام (Squire Tale) ليست غير واحدة من قصص الف ليلة وليلة[١]» وشوسر هو ابو الشعر الانكليزي وهو في الادب الانكليزي مثل دانتي في الادب الايطالي.

(١) جب — تراث الاسلام ص: ١٨١

ولم يقف اعجاب الاوربيين بالف ليلة وليلة عند هذا الحد بل قام رجال التربية فيهم يعملون على جمع الحكايات الطريفة في حوادثها ، الشيقة في مفاجآتها ، المليئـــة بالوان الشرق ، تلك الحكايات الخصبة الخيال التي توافقُ روح الاحداث ، فطبعوها على حدة طبعاتٍ جميلة ووضعوها بين ايدي احداثهم وطلاب مدارسهم فكان لهم كتاب علاءالدين والقنديل المسحور

وحكاية انيس الجليس

وحكاية ابي القاسم احمد البغدادي

وحكاية السندباد البحري وعشرات الحكايات غيرها . وكلها مهذبٌ لفظه ، متقن طبعه ، محلى باجمل الرسوم مما يشوق الصغير والكبير الى القراءة والمطالعة .

وكان اسرع الأمم الى اقتباس هذه الحكايات وعرضها للشبيبة ، الالمان والفرنسيون والانكليز .

وكان لالف ليلة وليلة اثرٌ كبيرٌ في عالم الفن والتمثيل فاستغلّ موضوعاتها الشيقة شركات السينما في العالم المتمدن فاستطعنا ان نشاهد افلاماً سينمائية رائعة هي طرفة فريدة في عالم الفن نذكر منها « لص بغداد » الذي ، لا يستطيع العقل البشري ، مهما سما وحاول ان يبتعد عن الاساطير الخيالية والحكايات الخرافية ، الا ان يعجب بخياله الساحر وموضوعه الطريف .

ولا بد من التساؤل : ما هو الدافع الذي حدا بالأدباء الغربيين والمستشرقين الى ترجمة الف ليلة وليلة ؟ وما الذي حمل رجال العلم والفن على ان يستغلوا موضوعاتها ويستوحوها قطعاً من الفن خالدة ؟ قد يطول البحث لو جئت افندُ الجواب . ولكنني اكتفي بالقول : ان في الف ليلة وليلة عناصر عديدة دفعت الادباء العالميين للاهتمام بها وفي مقدمة هذه العناصر :

لونها الشرقي الجذّاب ، وخيالها الظريف الساحر !!

كتاب كليلة ودمنة

لن استطيع في هذه المقالة ان ابحث بحثاً مسهباً في اقوال المستشرقين حول اصل هذا الكتاب ولن استطيع ان اتعرّض لجميع ما قالوه فيه . ذلك يحتاج الى كتاب قائم بذاته . ولكنني ساعرض لمحة سريعة لتاريخ الكتاب واثره الثقافي القصصي وشهرته العريضة التي خلدته على ممرّ الايام .

اصل الكتاب : يُرجع العلماء اصل كتاب كليلة ودمنة الى الهند . وهم لا يختلفون في هذا اختلافهم في الف ليلة وليلة .

وهناك رأي في ان ابن المقفع ليس هو مترجم كليلة ودمنة عن الفارسية بل هو الذي وضعه . ولكنّ هذا الرأي ضعّفه علماء كثيرون ولم يأخذ به حتى المؤرخون الاقدمون . فابن خلّكان (+ سنة ٦٨١ هـ) دوّن هذا القول على سبيل الرواية فجاء البيرونيّ وهو من علماء القرن الخامس الهجري (+ ٤٣٠ هـ) او ٩٧٣ م فاكد اصل كليلة ودمنة الهندي وقال : « ان ابن المقفع زاد عليه باب برزويه[١] . اما الاصل الهندي القديم الذي نشير اليه والذي عنه نقلت الترجمة الفهلوية والترجمة السريانية ، فقد فُقد . ولكنّ طائفة من هذه الحكايات . ُجمعتْ في كتابين : الواحد هو :

« بنجَ تنترا » اي خمسة ابواب . والثاني هو : هيتو بادشا اي نصيحة الصدّيق . ويضيف بعضهم اصلاً ثالثاً يسمونه : مهابهاراتا[٢] .

نقلُ كليلة ودمنة الى اللغة العربية : المعروف ان ابن المقفع هو الذي نقله من اللغة الفهلوية الى اللغة العربية لأسبابٍ قد يكون منها تحلّي ابن المقفع بمزايا الاديب الناضج الذي ُيحسنُ لغتين جميلتين هما الفارسية والعربية فينقل من الأولى الى الثانية أهم آثارها الادبية الفكرية وفي مقدمتها كتاب كليلة ودمنة .

ويرى بعضُ الذين يقرأون بين السطور ان ابن المقفع اراد ان يعظ المنصور وبعض حكام عصره الذين لم يعملوا على إطلاق الحرية السياسية ، بل كانوا يبطشون بقوة وبسرعة بكل من يسيئون به الظن ، فلم يجد احسن من هذه الوسيلة ، ترجمة كتاب

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة . طبع المعارف المصرية ص : ٣٦

(٢) O'Leary - Arabic Thought p : 108.

كليلة ودمنة الى العربية . فلعلّ هذه الاحاديث الحكمية ، وهذه المواعظ الرشيدة وهذه الحكايات الطريفة التي يسردُها بيدبا الفيلسوف على دبشليم الملك الظالم ، تفعل فعلها في نفس ابي جعفر وبطانته فيخف بطشهم ويتروّوا في احكامهم ! مسكين ابن المقفع لقد ذهب ضحية ما كان يخشاه[1] ! !

وقيل ان هناك من نقله الى اللغة العربية غير ابن المقفع ، وسيأتي ذكر ذلك .

تسميته بكليلة ودمنة : لم يذكر المؤرخون او يتفق المستشرقون الذين بحثوا في كتاب كليلة ودمنة ، وعددهم غير قليل ، ان هناك كتاباً معروفاً بهذا الاسم (اسم كليلة ودمنة)، كتاباً قائماً بذاته ، سواءٌ في الفهلوية القديمة او في السنسكريتية . وكل ما وجد من اصول هذا الكتاب الى الوقت الحاضر هو ما تقدّم ذكره . وقد سُمّي الكتاب كله « كليلة ودمنة » باسم ابني آوى اللذين هما محورُ القَصص في الباب الاول: باب الاسد والثور[2] .

شهرته وترجماته

اشتهر كليلة ودمنة اشتهاراً لا يقلّ عن اشتهار الف ليلة وليلة فترجم الى لغات عديدة اذكر منها ما يلي :

١ — الترجمة التبتية — لم يعثر الا على قسم منها

٢ — الترجمة الفهلوية — اي الفارسية القديمة وقد ترجمت على زمن كسرى انوشروان وذلك في القرن السادس ميلادي . وقد ضاعت كما ذكرنا سابقاً .

٣ — الترجمة السريانية الاولى — وقد نقلت عن الفهلوية . ترجمها رجلٌ اسمه بود Budh نحو ٥٧٠ م باسم قَلَيْلَجْ ودِمنَجْ .

٤ — الترجمة العربية — وهي اهم الترجمات لانها حفظت الكتاب ومنها نقل الى سائر اللغات الحية .

٥ — الترجمة العربية الثانية — من الفهلوية الى العربية لعبدالله بن هلال الاهوازي نقلها ليحيى بن خالد البرمكي في خلافه المهدي سنة ١٦٥ هـ

(١) احمد امين — ضحى الاسلام ١ : ٢١٨

(٢) بيدبا — كليلة ودمنة . مطبعة المعارف ـ مصر سنة ١٩٤١ ص: ٤٧

٦ – الترجمات المنقولة من النسخة العربية – لم يبق غير الترجمة العربية بين ايدي الناس وهي ترجمة ابن المقفع وعنها اخذ العالم المتمدن الترجمات الكثيرة الآتي ذكرها :

١ – السريانية الثانية – نحو القرن العاشر ميلادي
٢ – اليونانية – سنة ١٠٨٠ م
٣ – الفارسية – سنة ١١٢٠ م
٤ – العبرانية الاولى – ؟
٥ – العبرانية الثانية – القرن الثالث عشر
٦ – اللاتينية – القرن الثالث عشر
٧ – الاسبانية – ١٢٥١ م
٨ – الانكليزية – سنة ١٨١٩ م
٩ – الروسية – سنة ١٨٨٩ م

وتفرّع عن هذه الترجمات ترجماتٌ أُخرى الى الفرنسية والايطالية والسلافونية والتركية والالمانية والانكليزية والدانمركية والهولندية وغيرها حتى بلغ عدد الترجمات جميعاً بضعاً وعشرين ترجمةً ترجع كلها الى العربية ، اما مباشرةً او بواسطة لغة اخرى[١] .

ومن اراد الاطلاع على هذه الترجمات بالتفصيل فليرجع اليها فهي مصدّرة بمقدمات قيمة ودراسات علمية لهذا الاثر الادبي الجليل .

ومن جميل ما يُروى عن ترجمة كليلة ودمنة الفهلوية من اللغة السنسكريتية الحكاية التالية التي ترويها الشاهنامة وهذا ملخصها :

« جاء برزويه الحكيم الى انوشروان وقال :

ايها الملك اني قرأتُ في كتابٍ هندي أنّ في جبال الهند عشباً اذا رُكّب منه دواءٌ فنُثر على ميتٍ ارتدّ حياً .. فجهزه انوشروان وسيّره الى الهند وبعث معه كتاباً الى الملك . فلما اخذ ملك الهند الهدايا وقرأ الكتاب جمع علماءه وسيرهم مع برزويه لطلب هذا العشب في الجبال، فجمعوا كلّ ضربٍ من العشب وجرّبوه ، فما احيا ميتاً .

(١) راجع الهلال مج ١٤ : ٤٠٧ تجد مقالا مفصلا في ذلك وعنه اقتبسنا هذه المعلومات .

فندم برزويه على ما جشم نفسه من مشاقّ السفر والطلب ، وتحيّر ماذا يقول للملك انوشروان ، ثم سأل من كان معه من العلماء : أتعرفون في الهند أعلم منكم ؟ قالوا نعم شيخٌ يفضلنا علماً وسناً . فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال :

اما الجبال فهي العلوم ، واما الموتى فهم الجهال ، واما العشب فكتابٌ في خزائن ملك الهند يسمى « كليلة ودمنة » يُحيي موتى الجهل . فاسرع برزويه الى ملك الهند يرجو ان يطلع على الكتاب . فاغتمّ الملك وقال : ما طلب احدٌ هذا الطلب من قبل ولكننا لا نضنّ على الملك انوشروان بشيء . وامر ان يُؤتى بالكتاب وان يطلع برزويه عليه امامه حتى لا يظن احدٌ انه نسخه[1]... »

فاذا صح هذا الزعم ، ونحنُ لا نميلُ الى صحته ، بطل الراي السائد في ترجمة الكتاب الى الفهلوية وفحواه ان الطبيب برزويه سمع بالكتاب، وهو في بلاده، فاستأذن الملك انوشروان للذهاب في سبيل استنساخه . وقد اذن له الملك وزوّده بعشرين الف كيس في كل منها عشرة آلاف دينار... ولقي برزويه صعوباتٍ جمة وعانى ضروباً من العذاب والنصب في سبيل الحصول على الكتاب ونسخه ! ! والمرّجح ان كل هذه الحكايات ان هي الا مبالغاتٍ خيالية لتعظيم الكتاب واكبار عمل الحكيم برزويه ..

اثر كليلة ودمنة القصصي الادبي

ولكي يتضح لنا اثر هذا الكتاب يتحتم علينا ان نبحث في هذا الاثر من وجوه عديدة :

اولاً : لقد اثّر كليلة ودمنة في شعراء كثيرين فنظموه شعراً وهذه هي بعض الترجمات الشعرية واسماء اصحابها :

١ – ترجمة ابن سهل بن نوبختْ – وهي اول ترجمة شعرية ترجمها الشاعر يحيى بن خالد وزير المهدي والرشيد . ونال عليها الف دينار . وقد ضاعت .

٢ – ترجمة ابّان بن عبد الحميد اللاحقي صنّفها للبرامكة . (توفي أبّان + سنة ٢٠٠ هـ – سنة ٨١٦ م) . اعطاه يحي بن خالد عشرة آلاف دينار واعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئاً وقال : « ألا يكفيك ان

(١) عبد الوهاب عزام — كتاب كليلة ودمنة — طبعة المعارف المصرية — المقدمة ص : ٣٧

احفظه فاكون راويتك ؟ » . وقد اطنب الاقدمون في محاسن هذه الترجمة ولكنها فقدت ايضاً .

٣ – ترجمة علي بن داود – كاتب زبيدة بنت جعفر وقد فقدت ايضاً .

٤ – ترجمة بشر بن المعتمر – وقد نبغ بشر هذا في ايام الرشيد والمأمون

٥ – ترجمة ابن الهبّارية – وهي اول ترجمة شعرية وصلتنا سنة ٥٠٢ ﻫ

٦ – ترجمة ابن المماتي – وهو من اقباط مصر اشتهر في القرن الثاني عشر ميلادي (+ سنة ٦٠٦ ﻫ – سنة ١٢١٠ م) ولا اثر لهذه الترجمة في المكاتب العالمية اليوم .

٧ – ترجمة عبد المؤمن بن الحسن – اشتهر في القرن السابع هجري او الثالث عشر ميلادي . وتقع هذه الترجمة في تسعة آلاف بيت رجز اولها :

الحمدُ لله العزيزِ الحاكمِ القادر الحي المريدِ العالمِ

٨ – ترجمة جلال الدين النقّاش – وهو احد شعراء القرن التاسع للهجرة .

هذه بعض ترجمات كليلة ودمنة الى اللغة العربية شعراً . وقد كان للكتاب اثر آخر في الكتّاب العرب فألّفوا على منواله كتباً كثيرة منها :

١ – كتاب الصادح والباغم – لابن الهباريّة وقد مر ذكره

٢ – كتاب سلوان المطاع في عدوان الطّباع – لابن عبدالله القرشي المعروف بابن ظفر (+ سنة ٥٩٨ ﻫ) وقد طبع في تونس وبيروت .

٣ – فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء – لابن عربشاه .

٤ – كتاب القائف لابي العلاء المعري وقد ذكره الحاجّي خليفة في كتابه كشف الظنون[١] وقال : ان له ايضاً كتاب « منار القائف » يتضمن تفسيره في عشر كراريس .

ولم يقف تأثير كليلة ودمنة عند العرب في ناحيتي النظم والنثر بل تعدّى العرب الى غيرهم من الامم .

(١) الحاجّي خليفة — كشف الظنون ج ٢ : ١٦٠

١ – فابو جعفر الرّودكي (+ سنة ٣٢٩ هـ) وهو اول شاعر فارسي عظيم ، نظم « كليلة ودمنة » شعراً فارسياً . وكان شعراء عصره يشهدون له بتقدمه عليهم فيقولون فيه : « انه لا نظير له بين العرب والعجم[١] . »

٢ – والشاعر الظريف لافونتين الفرنسي قد تأثر الى حد بعيد في طائفة كبيرة من حكاياته الشعرية بكتاب « كليلة ودمنة » . وقد أشار الى هذا التأثر الادبي كثيرون من ادباء الغرب الذين درسوا لافونتين دراسة نقدية عميقة[٢] .

ويثني الأستاذ جب على كليلة ودمنة ثناء طيباً مبيناً اثره في الادب العربي حتى في زمن الاحياء . فهناك آثار لاتينية كثيرة وتراجم انكليزية متعددة استمدت من هذا الكتاب ، فاستفاد منهـــا كتّابهم وشعراؤهم وقصصيوهم وفي مقدمتهم : ماسنجر الانكليزي ولافونتين الفرنسي .

والحقيقة ان كتاب كليلة ودمنة بما يحتوي من حكايات قصيرة على السنة الحيوانات قد ادخل نوعاً جديداً على الادب العربي لم يكن لهذا الادب عهدٌ به اذ ذاك .

ولقد استطاع هذا السفر القيم ، بما توفر فيه من مزايا ادبية كثيرة ، في مقدمتهـــا هذه العظات الرشيدة ، والحكم السديدة ، وبما فيه من لغة عربية مشرقة البيان ، استطاع ان يحتفظ بمقام مرموق بين الكتب العربية ، وان يصل الينا ، جوهرة ثمينـة من سلسلة تراثنا القصصي الدخيل ؛ اقول تراثنا القصصي ، وانا عالم ان حكايات كليلة ودمنة لا تعتبر من صميم القصص . ولكن ذلك لا يمنعنا من اعتبارها كما هي : حكايات قصيرة ادبية ، حكمية ، لها لونهـا الخاص وجوّها الخاص . زد على ذلك ان في كليلة ودمنة « حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب[٣] »

نرى مما تقدم ، وقـــد كان البحث سريعاً خاطفاً ، رغم طوله ، ان هذين الاثرين القَصصيّين : الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ، وكلاهما من القصص الدخيل على العرب ، قد لونها العرب بالوانٍ عربية صارخة حتى بات من الصعوبة بمكان ، ان لم نقل من المتعذر ان نفرق بين اللون العربي فيهما وغير العربي . وهذا يعني لنا شيئاً كبيراً ، يعني ان

---

(١) الدكاترة حسن وغيره — كتاب نواح من الثقافة الاسلامية ص: ١٥٧
(٢) V. Chauvin — T : I p: 138. وايضاً : جب — تراث الاسلام ص: ١٨٧
(٣) بيدبا — كليلة ودمنة — المقدمة . طه حسين ص: ٨

العرب استطاعوا الى حدٍ ، ان يمتزجوا بالامم المتمدنـــة ، العريقة في مدنيتها ، وان يقتبسوا عن هذه الامم بعض تراثها القصصي ، رغم ما كان يسيطر على تفكيرهم : من ان ادبهم هو محصور في الشعر وفي الشعر وحده !

هذا من ناحية . ونرى من ناحية أُخرى ان الغرب في القرون الوسطى، وفي مطلع نهضته الفكرية الادبية لم يستنكف عن الاحتكاك بالعرب احتكاكاً علمياً ثقافياً . فاقبل العلماء الغربيون يدرسون وينقبون حتى تمكنوا من الاطلاع على معظم النتاج العربي الفكري فترجموه الى لغاتهم وهضموه واقتبسوا منه ما لاءم اذواقهم اقتباساً يصعب على غير العالم المدقق تمييزه عن الاصل المقتبس عنه .

هذا بعض ما جرى للقصص الدخيل على الأدب العربي، اما القصص العربي الاصيل فهو موضوع الفصول الثلاثة المقبلة من هذه الرسالة..

الفصل الأول

القصص الإخباري

اولاً : تعريفه

ثانياً : انواعه

ثالثاً : الحكايات الغنائية كمثال عنه

تأثير الغناء في القصص العربي

الخلفاء والمغنون

إحتقار الغناء والمغنين

اسماء بعض المغنين والمغنيات

شهرة المغنين والمغنيات

آلات الطرب

انواع الغناء

التآليف الغنائية الموسيقية

قيمة القصص الغنائي

مادة القصص الغنائي

فوائد القصص الغنائي

القصص الاخباري

قسّمنا القصص العربي الصميم في مقدمة هذا البحث الى خمسة اقسام رئيسية ، في مقدمتها القصص الاخباري . فما هو هذا اللون من القصص ؟ وما هي انواعه المختلفة ؟

عنينا بالقصص الاخباري تلك الحكايات القصيرة والاسمـــاء الكثيرة ، والنوادر

الظريفة ، والاخبار المشتتة هنا وهناك ، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الاصول ، لانها لم تدوّن في مكان واحد معين ، ولم يكتبها كاتب واحد معروف لغرض من الاغراض الادبية ، وانما هي روايات مختلطة الالوان ، متشعبة الاهداف ، متعددة الاغراض، جمالها في ظرفها وخفة روح راويتها، وادبُها في رشاقة اسلوبها ونصاعة لغتها.

انواع القصص الاخباري

وتقسم هذه الحكايات الى انواع تتعدد بتعدد الاغراض والاهداف التي ترمي اليها، فهناك القصص الفكاهي الذي لم يُروَ ولم يدون الا لنكتة مستملحة وفكاهة مستظرفة .

وهناك القصص الاجتماعي وهو يصور المجتمعات العربية الى حد كبير بما فيه من صور صحيحة ، وعبارات ساذجة ، تمثل نفسية القوم اصدق تمثيل .

وهناك القصص الاسطوري او الخرافي، وهو يدورُ على الاخبار الخرافية التي كان يتداولها العربُ فيما بينهم ، وقد وصلتهم عن اسلافهم شفاهاً فدونوها على علاتها فجاءت ببساطتها وسذاجتها ومعانيها الخارقة، مثالاً عن اساطير العرب وآلهتهم ومعتقداتهم في العصور القديمة .

وهناك القصص الفخري وموضوعه المشاحنات القبلية في العصر الجاهلي والاحزاب السياسية في العصر الاموي والاعصر العباسية ، كل تلك الاخبار التي رويت عن القحطانيين والعدنانيين ، عن ربيعة وتميم ، عن قيس وكنانة ، دونها الادباء العباسيون والمؤرخون . فالاصفهاني والطبري وابن عبد ربه والمبرد وابن الاثير ، والسيوطي وياقوت وكثير غيرهم جمعوا الشيء الكثير من مثل هذه الحكايات التي تُظهر الى حد كبير ، نفسية العرب ، وميلهم الى التفاخر . وكثيراً ما كانت تقودهم هذه المشاحنات الكلامية، والاختلافات السياسية الى النيل من خصومهم بطرق شتى واساليب متنوعة فالعباسيون يسبون الامويين ويطعنون فيهم والشعوبيّون يضعون الحكايات ويروون الروايات في اظهار مثالب العرب لتحقيرهم واذلالهم . وكان المِربَد مركزاً للمهاجاة بين جرير والاخطل والفرزدق[1] مما شجع على تداول الروايات في الطعن والشتائم

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ٤٩

فكثرت هذه الاخبار الهجائية وكانت نواة للقصص الهجائي .

وهناك نوع آخر من الحكايات القصيرة او الاخبار المرويّة هو القصص التعليمي وان لم يكن هدفه الاساسي الوعظ والارشاد . فحكاية تنصر النعمان بن المنذر وضعت لتعطي درساً لهذا الملك فيترك عبادة الاوثان الى عبادة الله الواحد[١] . وحكاية المنصور وقد استفاق من نومه مرعوباً، اكثر من مرة، ليخبر خادمه الربيع ان آتياً اتاه يقول :

« كأني بهذا القصر قد باد اهلهُ   وعُريَ منـه اهله ومنازلهْ
وصار رئيس القوم من بعد بهجة   الى جدثٍ تبنى عليه جنادلهْ . »

لم توضَعْ، في عرفي، الا لاستخراج العبرة منها وقد حملوا الخليفة نفسه على استخراج تلك العظة فكتبها بفحمة على الحائط وهي :

« المرء يهوى ان يعيش وطولُ عيش قـد يضرهْ
تفنى بشاشتـه ويبقى بعد حلو العيش مرّهْ
وتخونـه الايام حتى ما يرى شيئـاً يسرّهْ
كم شامتٍ بي ان هلكتُ وقائلٍ : لله دره ! ! »[٢]

ونرى الشيء الكثير من مثل هـذه الروايات وقد وضعت لردع الجائر عن جوره وزجر المنافق عن نفاقـه ، واسداء النصيحة لمن زاغ بصره عن الحق والصواب لعله يهتدي بعد ضلال . ومما لا شك فيـه ان الوعظ والارشاد والتعليم الديني والُخلقي هي من اهم البواعث على تدوين مثل هذه الاخبار .

على ان اهم ما يلفت النظر من هذه الالوان القصصية المذكورة لونان آخران هما : القصص الغنائي والقصص الحبي ، وفيهما تظهر مزايا القصص الاخباري ظهوراً بارزاً اكثر من اي نوع آخر وذلك لسببين على ما نعتقد :

اولا : كثرة هذا النوع من القصص وطغيانه طغياناً كبيراً على بقية الانواع التي مر ذكرها .

ثانياً : ميلُ الرواة ميلا ظاهراً الى الاكثار من هذا القصص حملهم على الاعتناء به

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٢ : ١٧ و١٨
(٢) جاد المولى — قصص العرب ج ١ : ١٠٤ و١٠٥

اعتناء كبيراً فجاء جامعاً لمزايا القصص الاخباري جمعاً صحيحاً لذلك فقد اخترنا من هذين النوعين القصص الغنائي لدراسته وتحليله وتقدير قيمته القصصية الادبية فنكون قد قدرنا القصص الاخباري كله .

القصص الغنائي

في العربي ميلٌ فطري الى الغناء والاستماع الى الصوت الجميل. وقد قيل: ان الشاعر الجاهلي اهتدى الى الشعر بواسطة الحُداء وراء الابل . والذي يهمنا هنا ان نثبت اثر هذا الغناء في العرب وانتشاره انتشاراً كبيراً مما حمل الخلفاء والعظماء على تشجيع المغنين وتقريبهم من بلاطاتهم واسباغ الاعطيات الكثيرة عليهم . كما يهمنا ايضاً دراسة هؤلاء المغنين وسبب شهرتهم وتحليل صفاتهم مع كلمة عن فنهم الغنائي وآلات الطرب التي كانوا يستعملونها لتساعدهم في تأدية اصواتهم . كذلك سنحاول ان نلم بالضرّاب الذين كانوا يضربون على بعض هذه الآلات فيخرجون منها الاصوات الجميلة والموسيقى العذبة بالحانها الكثيرة ، ومدارسها المتعددة وتعابيرها العلمية ! ندرس كل ذلك كما جاء في سياق هذه الحكايات الغنائية المختلفة وكما يعكسه لنا هذا القصص الغنائي الذي تطفح به كتب الادب العربي القديمة !

تأثير الغناء في العربي

من يطالع هذه الحكايات الكثيرة عن تأثير الغناء في نفوس العرب ، عظمائهم وصعاليكهم ، يقف مشدوهاً ، محتاراً ! ! هل يصدق جميع ما يقال ؟ ام يقف من ذلك ، او من بعضه على الاقل ، موقف الشاك المتردّد ؟

كان معاوية يعيبُ على عبدالله بن جعفر سماع الغناء ويستغفر الله عندما يسمع غناء حتى سمع ابن صياد يحرك اوتاره ويغني بشعر ابن عدي فقال : « لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الالحان[١] ! »

اما عطاء بن ابي رباح[٢] فكان يتعصب ضد الغناء والمغنين . « لقي مرة ابن سُريج

---

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ٣ : ٢٣٦ و٢٣٧

(٢) عطاء ابن ابي رباح تابعي من الفقهاء ، يمني ، نشأ في مكة وهو مفتيها توفي سنة ١١٥ هـ

المغني وعليه ثياب مصبّغة ، وفي يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجذبها بـه كلما تخلفت ، فقال له عطاء : يا فتان ، ألا تكف عما انت عليه ؟ كفى الله الناس مؤونتك . فقال ابن سريج : وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي ؟ فقال له: تفتنهم باغانيك الخبيثة . » حتى اذا استطاع ابن سريج ان يُقنع ابن ابي رباح بالسماح له اندفع يغني بشعر جرير فطرب ابن ابي رباح « واضطرب اضطراباً شديداً ودخلتـه اريحية وحلف الا يكلم احداً بقية يومه الا بهذا الشعر[١] » اي الشعر الذي غناه به ابن سريج .

وكثيراً ما كان يغمى على بعض ذوي العاطفة الرقيقة عندما يسمعون صوتاً جميلاً، او كانوا يكادون يموتون فرحاً وسروراً لحسن الغناء من مثل ما روي عن سُبيعة ابنة عبد الرحمن بن ابي بكرة وكانت من اجمل النساء . قيل انها حجّت ، فلما انحدرت الى العراق استطاعت ان تسمع الى غناء جميلة بشعر عمر ابن ابي ربيعة ، وكان هذا الشعر تغزلا فيها فأغمي عليها عدة مرات حتى رُش على وجهها الماء وثاب اليها عقلها[٢] .

وهذه الحكايات التي تروى عن تأثير الغناء تطلعنا على ما كان لهؤلاء المغنين من سلطان على قلوب سامعيهم يتصرفون بهذه القلوب وفقاً لمشيئتهم وطبقاً لاراداتهم .

فابن سُريج يحبس الناس عن مناسكهم عندما ينقر على الدُف متغنياً بشعر عمر ابن ابي ربيعة ، وكأن القوم عندما كانوا يستمعون الى صوته قـد نزل عليهم السبات ، وادركهم الغشي ، فكانوا كالاموات ، يصغون اليه بآذانهم ويشخصون اليه اعينهم متطاولة اعناقهم[٣]. وابن عائشة (+ سنة ١٠٠ هـ) يسيرُ في الناس، وقد سال العقيق فجاء بالعجب ، فلم يبقَ بالمدينة مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل الا خرج ببصره . » حتى اذا طلب منه ان يُغني قال: ألمثلي يقال هذا ؟ علي عتق رقبة ان غنيت يومي هذا! ولكنه كان يحمل على الغناء حملاً فيغني مائة صوت فيكبرُ الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ترتج لها اقطار المدينة[٤] . »

والحكايات كثيرة عن عظماء العرب وخلفائهم وعلمائهم وعن تأثير الغنـاء فيهم

(١) الاصفهاني — الاغاني ج١ : ١٠٠
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١ : ١٠١
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ١ : ١٠٩
(٤) ابن عبد ربه — العقد الفريد ٣ : ٢٤٥

تأثيراً عميقاً كثيراً ما حملهم على الخروج عن عاداتهم المألوفة واعمالهم الطبيعية .

فاذا ما غنت احدى الجواري سيدها ، وكان قاضياً ، غشيه من الطرب امر عظيم، ولم يدر ما يصنع ، واخذ نعله فعلقها في اذنه ، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف اذنه ، والنعل معلّقة فيها ويقول : اهدوني الى البيت الحرام ، فاني بَدَنة ! ! حتى يدمي اذنه[1] ! ويبلغ ذلك الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز فيلومه ويقول : قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ، ويأمر بصرفه عن عمله . فيستاء القاضي من عمل الخليفة فيتحداه قائلاً : لو سمعها عمر لقال : اركبوني فاني مطية ! حتى اذا عرف عمر بهذا القول امر فاحضر القاضي والجارية وغنت بين يديه :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا　　انيسٌ ، ولم يسمرْ بمكة سامرُ
بلى ! نحن كنـــا اهلها فابادنا　　صروفُ الليالي ، والجدود العواثر

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً بيّناً واقبل يستعيدها ثلاثاً ، وقد بلت دموعه لحيته ، ثم اقبل على القاضي فقال :

« ارجع الى عملك راشداً[2] . »

اما يزيد بن عبدالملك ، وكان صاحب لهوٍ ولذات ، فكانت تدمع عيناه عند سماعه غناء الغريض[3] .

كذلك حسان بن ثابت الانصاري . فانه كان يطرب عند سماعه عزة الميلاء حتى تنضح عيناه على خديه[4] .

وأروعُ من هذا وذاك ما حكي عن ابان ابن الخليفة عثمان بن عفان لما ولي المدينة على زمن معاوية قيل « إنه قعد في بهو له عظيم ، واصطف له الناس ، فجـــاء طُويس المغني ، وقد خضب يديه غمساً ، واشتمل على دُفٍ له ، وعليه ملاءة مصقولة ، فسلم ثم قال : بابي وامي يا ابان ، الحمد لله الذي ارانيك اميراً على المدينة . اني نذرت لله فيك نذراً، ان رايتك ان اخضب يدي غمساً واشتمل على دُفي وآتي مجلس امارتك واغنيك

---

(١) المسعودي — مروج الذهب ٢ : ١٧٠
(٢) المسعودي — مروج الذهب ٢ : ١٧
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٨ : ١٢
(٤) النويري — نهاية الارب ج ٤ : ٢١٢

صوتاً . فقال يا طويس ! ليس هذا موضع ذاك . قال : بابي انت وامي يا ابن الطيب الجني . قال : هات يا طويس فحسر عن ذراعيه والقى رداءه ومشى بين السماطين وغنى :

ما بالُ اهلك يا ربابْ حذراً كأنهم غِضابْ ! !

فصفق ابان بيديه ثم قام عن مجلسه فاحتضنه وقبّله بين عينيه وقال : يلومونني على طويس[١] ! .

اما الوليد بن يزيد فكثيراً مـــا كان يشتاق الى معبد ، ومعبد (فحلُ المغنين) فيحضر بين يديه ، فيأمر الخليفة ببركة تملأ ماء ورد ، قد خلط بالمسك والزعفران ويجلس هو وراء الستائر ومعبد مقابله على حافة البركة ، وليس معهما ثالث ، حتى اذا ما اطلق معبد العنان لصوته الجميـــل ، رفعت الجواري السجف وخرج الوليد فالقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج منها فاستقبله الجواري بثياب غير الثياب الاولى ، ثم شرب وسقى معبداً[٢] .

كذلك كان الرشيد يجتمع الى امراء المغنين مثل ابن جامع وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وفليح والهربذي فيغنونه اطيب الشعر باعذب الالحان حتى يكاد يرقص من النشوة ويستخفه الطرب حتى يضرب بيديه ورجليه[٣] .

فاذا كان هذا هو فعل الغناء وتأثيره في الخلفاء والعظماء فلا عجب اذاً ان يهيم القس وكان اعبد اهل مكة في زمانه ، بحب سلّامة بعد ان يسمع غناءها ، حتى اصبحت تنسب اليه فسميت سلّامة القس[٤] ولا غرابة في ان يفضل رجل من اهل القرى سماع ابن عائشة على مائتي دينار وعشرة اثواب ، رغم عُدمِه الشديد وفقره المدقع ، وشدة حاجته الى المال والطعام[٥] .

ولا ان يبيع الشيخ الزبيري شملته التي يستتر بها من العُري وتقيه حر القيظ وبرد الشتاء ، ليشتري بثمنها قربة جديدة لجارية مرت به وكانت تحمل قربة ، فطلب منها

---

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج٣ : ٢٤١
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج١ : ٢٧
(٣) الاصفهاني — الاغاني ٦ : ١٥٠
(٤) الاصفهاني — الاغاني ٨ : ٦
(٥) الاصفهاني — الاغاني ٣ : ٧٣

ان تغنيه فغنته صوتاً فطرب وضرب بالقربة الى الارض فشقها[١]

او ان يبكي شاعر كأبي العتاهية وينشج لسماع غناء مخارق ويلبس ثياب الصوف علامة التزهد والتقشف[٢]

او ان يؤثر الغناء في اخلاق عبد اسود فظ فيحمله على الملاينة والملاطفة[٣]

او ان يحلف رجل بطلاق امرأته الا ان يسمع غناء مخارق[٤]

والاغرب من كل ما ذكر ان عبداً اسود ، وكان ذا صوت طيب ، كان يحمّل الجمال احمالاً ثقالا ويحدو بها فتقطع مسيرة ثلاث ليال في ليلة ، من طيب نغمته[٥]

وحدثوا كثيراً في اثر الغناء مما حمل بعض الرواة على القول :

« كان بعض السامعين يقتات بالسماع ليقوى به على زيادة طيه ، كان يطوي اليوم واليومين والثلاثة ، فاذا تاقت نفسه الى القوت ، عدل بها الى السماع فاثار تواجدَه فاستغنى بذلك عن الطعام[٦] . »

وليس غريباً ان يطرب شيخ بعد ان يسمع غناء احدى الجواري فيرمي بنفسه وبثيابه في الفرات حتى اذ ما استخرجوه من الماء ، بعد لأي ، سألوه : « يا شيخ ، ما حملك على ما فعلت ؟ اجاب : دبّ من قدمي شيءٌ الى رأسي كدبيب النمل ، ونزل من رأسي مثله ، فلما اجتمعا على قلبي عملت ما عملت[٧] . . . » اقول لا غرابة في ان تبدو مثل هذه الاعمال الغريبة على بعض العامة من الناس ، عند سماعهم الغناء الجميل ، وهم انما يرون الطبقة الراقية من المجتمع تتأثر بهذا الغناء الى حد بعيد، ويرون ان بعض الخلفاء واولادهم ، وان بعض المحدثين والفقهاء والاشراف لا يستنكفون عن ان يغنوا هم انفسهم على مسمع من الناس . فمن الخلفاء الذين نسبت اليهم اصوات : عمر بن عبد العزيز والواثق بن المعتصم ، والمنتصر والمعتز والمعتمد ابناء المتوكل ، والمعتضد وكان

---

(١) الحصري — زهر الآداب ١ : ١٥٦

(٢) الاصفهاني — الاغاني ٣ : ١٨٠ و١٨١

(٣) المسعودي — مروج الذهب ٢ : ٢٧٠

(٤) الاصفهاني — الاغاني ٢١ : ١٥١ التقدم

(٥) النويري — نهاية الارب ٤ : ١٨٧

(٦) النويري — نهاية الارب ٤ : ٢١٧

(٧) النويري — نهاية الارب ج ٤ : ٢١٩

يصنع الحاناً يعارض بها الحان الفحول من قدماء المغنين ومحدثيهم . . . ويظهر لنا في هذا القصص الغنائي ان كثيرين من ابناء الخلفاء كان لهم باع طويل في الغناء .

فابراهيم بن المهدي « كان اشد خلق الله اعظاماً للغناء ، واحرصهم عليه واشدهم منافسة فيه . » وكان يُقبل على الغناء عن هوًى ورغبة ملحة فلذلك كان يؤثر عنه قوله : « انما اصنع تطرباً لا تكسباً واغني لنفسي لا للناس فاعمل ما اشتهي . » حتى اذا عيب عليه افساد الغناء القديم قال . « انا ملك وابن ملك وانما اغني على ما اشتهي وكما التذّ . » وكانت لابراهيم اخت جميلة الصوت ، حلوة الانشاد فقيل فيهما : « لم يُر في جاهلية ولا اسلام اخ واخت احسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته علية[1] . » وعلية هذه تعرف كيف تصل بين القلوب المتجافية بسحر صوتها وجميل شعرها وعذوبة الحانها ؛ اسمع الى هذه الحكاية :

« أهديت الى الرشيد جارية في غاية الجمال ، فخلا معها يوماً واخرج كل قينة في داره واصطبح ، وكان من حضر من جواريه الغناء والخدمة في الشراب زهاء الفي جارية في احسن زي من كل نوع من انواع الثياب والجوهر ، واتصل الخبر بام جعفر فعظم عليها ذلك ، فارسلت الى عُلية تشكو اليها ، فارسلت اليها علية : لا يهولنّك هذا ، والله لاردّنه اليك ، قد عزمت ان اضع شعراً واصوغ فيه لحناً واطرحه على جواريّ ، فلا تبقي عندك جارية الا بعثت بها الي ولبسيهنّ انواع الثياب ليأخذن الصوت مع جواريّ ، ففعلت ام جعفر ما امرتها به . فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد الا وعلية وام جعفر قد خرجتا اليه من حجرتيهما ، معهما زهاء الفي جارية من جواريهما وسائر جواري القصر ، عليهنّ غرائب اللباس وكلهن في لحن واحد هَزَج صنعته علية وهو :

منفصلٌ عني وما قلبيَ عنه منفصلْ
يا هاجري اليوم لمن نويتَ بعدي ان تصلْ ؟ !

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل ام جعفر وعلية وهوعلى غاية السرور وقال : لم ارَ كاليوم قط يا مسرور ، لا تبقينّ في بيت المال درهماً الا نثرته ، فكان

---

(١) النويري — نهاية الارب ج ٤ : ٢٢٥

ما نثر يومئذٍ ستة آلاف درهم ، وما سمع بمثل ذلك اليوم[١].» وكان للرشيد ابن يلقب بابي عيسى حسن الوجه والغناء وللمهدي ولد اسمه عبدالله له اصوات مذكورة ، قيل انه علم غلاماً اسود ، الضرب على العود حتى حذق فيه فاشترته منه ام جعفر بثلاثمائة الف درهم[٢] .

وكان للأمين ولد اسمه عبدالله ، غزِل ظريف يقول الشعر ويلحنه .

وكان لابي عيسى بن المتوكل صنعة مقدارها اكثر من ثلاثمائة صوت .

ولابن المعتز علم بضاعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها .

ويطفح كتاب الاغاني بالحكايات عن اشراف العرب وفقهائهم ومحدثيهم الذين اولعوا بالغناء وارتوا فيه قوة وبراعة . فابراهيم بن سعد ، وكان من العلماء الثقات المحدثين ، كان يبيح السماع ويضرب بالعود ويغني عليه ، وحدثت له قصة حملته على ان يحلف يميناً الا يحدث حديثاً حتى يغني قبله[٣] ورويت هذه الابيات على انها من غناء مالك بن انس وقد اجتمع الى زمرة ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون ومع مالك دُف مربع وهو يغنيهم :

سُليمى ازمعت بينا واين لقاؤها اينا ؟
وقد قالت لاتراب لهــا زُهرٍ تلاقينا
تعالينا فقــد طاب لنا العيش تعالينا[٤]

وكان ابو دُلَف العجلي شجاعاً عالي القدر عند الخلفاء يجيد الشعر والغناء كما انه كان جواداً ممدوحاً ، مدحه علي بن جَبلَة بقصيدة رائعة جاء فيها هذه الابيات :

انما الدنيا ابو دُلَفٍ بــين باديه ومحتَضَره
فاذا ولى ابو دلفٍ ولتِ الدنيا على اثره
كل من في الارض من عرب بين باديه الى حضره
مستعيرٌ منــه مكرمة يكتسيها يوم مفتخره[٥] !

(١) النويري — نهاية الارب ٤ : ٢٣٣ و٢٣٤
(٢) النويري — نهاية الارب ٤ : ٢٤٠
(٣) النويري — نهاية الارب ٤ : ٢٤٧
(٤) النويري — نهاية الارب ٤ : ٢٤٨
(٥) النويري — نهاية الارب ج ٤ : ٢٥٠

وهناك كثيرون غير من ذكرنا نكتفي بالاشارة الى من مرّ معنا منهم لئلا نخرج عن بحثنا .

ولم يقف هذا القصص الغنائي عند حد العلماء والفقهاء ورجال الدين بل اعطانا صورة صادقة امينة عن حياة الخلفاء الاجتماعية المجونية وميلهم الى الفن والغناء والموسيقى .

الخلفاء والمغنون

وانه لمن الحق ان نعتبر الاعصر العباسية افخم الاعصر الادبية العربية لهذا النشاط المعنوي الذي ظهرت بوادره في جميع مناحي الفكر . وليس هنا مجـــال البحث في الاسباب العديدة التي ساعدت على تنمية الفكر العباسي حتى نشط وازدهر ، ولكن ، لا بد من القول انه كان للخلفاء العباسيين او لاكثريتهم الساحقة ، على الاقل ، اليـد الطولى في هـذا النمو وذاك الازدهار . نكتفي الآن بلمحة سريعة خاطفة عن بعض هؤلاء الخلفاء وحياتهم الاجتماعية وقصورهم الخياليـــة التي كانوا يستقبلون فيها الادباء والشعراء والمغنين والمغنيات ، ندرس كل ذلك كما ينعكس لنا في هذا القصص الغنائي ولنبدأ بمؤسس الدولة العباسية ابو العباس السفاح .

السفاح (٧٥٠ م ــ ٧٥٤)

كان سفاكاً بطاشاً ورغم ذلك فانه شجع الغناء والموسيقى . دفعه الى هذا التشجيع تقربه من الفرس وميلهم اليهم وارضاء لهم لان خلافة العباسيين قامت على اكتافهم . زد على ذلك ان السفاح كان يطرب ولكن من وراء الستارة على قول المسعودي . « وكان لا ينصرف عنه احد من ندمائه ولا من مطربيه الا بصلة من مال وكسوة ويقول : لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرنا واطربنا مؤجلاً[١] . »

المنصور (٧٥٤ م ــ ٧٧٥)

ان الحكايات عن بغداد والمجتمع البغدادي في بذخه ومجونه ، في علومه وآدابه ،

---

(١) المسعودي — مروج الذهب ج ٦ : ١٢١ و١٢٢

في تبذيره واسرافه ، في تعهره وتزهده ، ان هذه الحكايات الكثيرة تكاد تكون من عجائب الاساطير التي لا يستطيع العقل البشري ان يصدقها !!

اما باني بغداد فهو المنصور بناها سنة ١٤٥هـ او سنة ٧٦٢م لتكون عاصمة المملكة العباسية فاصبحت عاصمة الشرق بل محتضنة العلوم والفنون والآداب . ولمعت في ايام المنصور اسماء البرامكة فشجعوا رجال الفن والفكر تشجيعاً كبيراً . ورغم ما كان يشاع من ان المنصور ما كان ليتأثر بالموسيقى والغناء كغيره من الخلفاء ، لانه في زعم بعضهم ، عرف حَكَمَ الوادي وكان يستسرفُ ما يناله هذا المغني من صلات بني سليمان ابناءعلي[1]، اقول رغم كل ذلك فان اخصاءه ورجال بلاطه وابناء عمه شجعوا الموسيقيين وناصروهم حتى ان ابنه المهدي كان من اشد انصارهم ومشجعيهم .

المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥)

كان بلاطه يعج بالموسيقيين منهم حكم الوادي وقد مر ذكره ، وسياط ، وابراهيم الموصلي . وكان المهدي ذا صوت جميل « لم يكن لاحد اجمل منه[2] » على حد تعبير ابن خلكان .

الهادي (٧٨٥ ـ ٧٨٦)

هو ابن المهدي لم يطل زمن حكمه . كان المغنيان ابراهيم الموصلي وابن جامع من اصدقائه ومقربيه . اما ابنه عبدالله فكان مغنياً ماهراً وكان يضرب على العود[3] . وقد مر معنا انه علم غلامه الاسود واسمه قلم ، الضرب على العود فاشترته ام جعفر باغلى الاثمان .

هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩)

ان حكايات الف ليلة وليلة بما فيها من خيال ظريف ساحر ، وبما فيها من وصف

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٦ : ٦٧
(٢) ابن خلكان — وفيات الاعيان ٣ : ٤٦٤ راجع ايضاً فارمر ص : ٩٣
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٩ : ٩٩

خارق ، جذاب تعكس لنا ، الى حد بعيد ، شخصية هذا الخليفة العظيم . لقد اشتهر في الشرق والغرب واصبح قصراه : الرقة والانبار حديث العامة والخاصة ، وكانا محط انظار العلماء والادباء والشعراء والمغنين فكثرت عنهما الروايات والاسمار والاحاديث واصبحا محجة الكثيرين من مهرة المغنين امثال : حكم الوادي ، وابراهيم الموصلي ، ابن جامع، يحي المكي ، زلزل، فُليح بن ابي العوراء، عبدالله بن دحمان ، الزُبير بن دُحمان اسحق الموصلي، مخارق، علوية، محمد بن الحارث، ابوصدقه، برصوما، محمد الزفّ وغيرهم.

الامين (٨٠٩ – ٨١٣)

يصوره المسعودي، وقد مرت به ساعة من اشد ساعاته خطراً، في ليلة قمراء، جالساً على شاطىء دجلة في قصره المعروف بالخلد، في القبة التي كان اتخذ لها فرشاً مبطناً بانواع الحرير والديباج الاخضر المنسوج بالذهب الاحمر ، وغير ذلك من انواع الابريسم . قدامه قدح بلور مخروز فيه شراب ينفذ ، مقداره خمسة ارطال ، وهو يدعو بعض ندمائه للاستئناس بهم وتغنيهم جاريته المفضلة ضعف[1] ! ! .

ويبدو لنا هذا الخليفة ، من خلال هذه الحكايات الغنائية التي نقرؤها عنه ، خليعاً يصرف ايامه مع المغنين والقيان . كان يقضي الليلة بكاملها في صحن مملوء بالشمع الكبير بين المئات من الوصائف وهن يغنين على الطبول والسرنايات :

هذي دنانيرُ تنساني فاذكرها　　وكيف تنسى محباً ليس ينساها
والله والله لو كانت اذا برزت　　نفسُ المتيم، في كفيه القاها[2] ! !

وهو يجول ، لا يسأم ولا يضجر حتى الصبح ! !

ورعى الامين عمه ابراهيم بن المهدي بعين عنايته ، وكان ابراهيم من امهر موسيقي عصره . « كانت له اليد الطولى في الغناء والضرب بالملاهي ، وحسن المنادمة[3] بايعه اهل بغداد بالخلافة على زمن المأمون ابن اخيه (٨١٣ – ٨٣٣) لان المأمون ، لما كان بخرسان جعل ولي عهده عليا بن موسى الرضي ، وامر الناس بترك لباس السواد ، وهو

---

(١) مروج الذهب — المسعودي ج ٦ : ٤٢٧
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١٦ : ١٣٨ و١٣٩
(٣) ابن خلكان — وفيات الاعيان ج ١ : ١٠

شعار العباسيين ، واستبداله بلباس الخضرة . فعزّ ذلك عــلى بني العباس فنقموا على المأمون وخلعوه بعد ان بايعوا ابراهيم بالخلافة وناصروه كما مر معنا . ولدعبل الشاعر ابيات هجائية في ابراهيم ، تربنا مقدار اهتمامه بالموسيقى والغناء والمجون قال دعبل :

ان كان ابراهيم مضطلعاً بها (اي الخلافة) فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن من بعده للمارق
انى يكون وليس ذاك بكائنٍ يرث الخلافة فاسق عن فاسق[١] !!

ولدعبل ايضاً في ابراهيم مما يؤكد ميل هذا الخليفة للهو والمجون :

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حُنينيّة يلتذها الامرد والاشمطُ
والمعبــديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربُط
وهكذا يرزُق قواده خليفة مصحفُه البربط[٢] . .

وهذا الخليفة المتعبد للبربط كان شوكة في عين عمه المأمون عندما ثار عليه ، حتى اذا ما ظفر به عفا عنه وقرّبه منه وصار يستمع الى الحانه بلذة وشغف . وقد اسس المأمون بيت الحكمة في بغداد ، وبيت الحكمة احتضن العلوم اليونانية على انواعها ، فقام بنو موسى و كثيرون غيرهم من علماء العرب ، يعملون على دراسة هــذه العلوم وترجمتها واقتباس ما يصح اقتباسه الى اللغة العربية ، ومن ذلك الموسيقى ، فازدهرت الفنون في ايامه وتقدمت شوطاً بعيداً .

المعتصم (٨٣٣ ــ ٨٤٢)

لم يقصّر عن بقية الخلفاء في تشجيع الفنون ورعايتها . ومن بين المغنين الذين عرفهم بلاط المعتصم : احمد بن يحي المكي ، زرزور الكبير ، ومحمد بن عامر الرومي .

---

(١) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ج ١ : ١١ مخارق وزلزل وابن المارق من المغنين .
(٢) الاصفهاني ــ الاغاني ج ١٨ : ٣٠

الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧)

ويصلُ الفن الموسيقي العربي مع الواثق الى ذروته ، فلم يدّخر هذا الخليفة الفنان وسعاً في تشجيع الآداب عامة والفنون خاصة ، ذلك لانه كان فناناً يحسن فن الالحان احساناً يحسده عليه الكثيرون من ممتهني الغناء في ذلك العصر . يذكر الاغاني للواثق الحاناً كثيرة تبلغ المائة صوت ويقول عنه « انه اعلم الخلفاء بالغناء ، واحذقُ من غنى بضرب العود[1] »

من الحانه المعروفة ابيات لعلي ابن الجهم انشده اياها ابن ابي العيناء :

لو تنصلتَ الينا لوهبنا لك ذنبكْ
ليتني املك قلبي مثل ما تملك قلبكْ
ايها الواثق بالله م لقد ناصحتَ ربّكْ
سيدي ما ابغض العيش اذا فارقتُ قربك !

فاستحسنها الواثق وكافأ كلًا من الناظم والراوي بالف دينار ووضع فيها لحناً ذاع بين المغنين وانتشر !

ولقد لمع نجم اسحق الموصلي زمن الواثق فكان على رأس زمرة كبيرة من المغنين والضرّاب أمثال : مخارق ، علوية ، عمرو بن بانى ، عبدالله بن العباس الربيعي ، ابراهيم بن سهل، حسن المسدود . ويقول المستشرق فارمر في كتابه القيم عن الموسيقى العربية :

« بموت الواثق ينتهي الدور الاول من الاعصر العربية ، وهو عصر الاسلام الذهبي الذي ، يظهر التمدن الاوروبي الحديث ، مقارناً به ، مجرّد توحش[2] » .

ومهما يكن من امر فان الحياة العلمية الفنية التي يعكسها لنا هذا القصص الغنائي حياة جديرة بالدرس والاعتبار . ولقد قام الخلفاء بقسطهم في تشجيع هذه العلوم وهذه الفنون سواء كان في المشرق او في المغرب . فعبد الرحمن الاول (٧٥٦ — ٧٨٨) مدوّخ الاندلس لم يمنعه انغماسه العنيف في السياسة وامور الدولة من الاهتمام بالموسيقى

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ٨ : ١٧٢

(٢) Farmer — A History of arabian Music p: 97.

ولقد سمع بالعجفاء ، وكانت عجوزاً كلفاء ، تحسن الغناء والضرب على العود فبعث من اشتراها له وجعلها مغنيته المفضلة[١] .

الحكم الاول (٧٩٦ ــ ٨٢٢)

كان من الذين يقدرون لذاذات الحياة واطايب المجتمع . فلقد وصفه لين بول في كتابه « الاسلام في اسبانيا » بقوله : لقد كان الحكم جذلاً انيساً يلتذ بالحياة كيفما جاءت دون اقل ميل نحو التزهد[٢] . » فظهر في بلاطه كثيرون من الموسيقيين امثال العباس بن النسّائي والمنصور وكان مغنياً يهودياً ، وغيرهما كثيرون ...

وفي زمن عبد الرحمن الثاني (٨٢٢– ٨٥٢) لمع نجم زرياب فكان يقاسم السلطان اكله ويرافقه فيحله وترحاله حتى اصبح رئيس الموسيقيين دون منازع . وسيأتي الكلام عن زرياب ومدرسته .

ومما لا شك فيه ان الاعصر العباسية ، في حقباتها المختلفة ، لم تكن مزدهرة ازدهاراً واحداً في العلوم والفنون والآداب . فبعد ان عرفت هــذه العلوم والفنون عصراً دُعي بحق العصر الذهبي (٧٥٠ – ٨٤٧) عادت فتأخرت لاسباب كثيرة لا مجال لذكرها هنا . ورغم هذه الاسباب التي تراكمت فعملت في جسم الدولة العباسية هدماً وخراباً فانـــه ظهر خلفاء كثيرون شجعوا الفن الغنائي وعملوا جهدهم لحماية المغنين وتشجيعهم . فالمتوكل (٨٤٧ – ٨٦١) ناصب رجال الفكر العداء ، وخنق الحرية الفكرية ، وضيّق امام العلماء والفقهاء مجال الاجتهاد والتفكير الحر بتقريبه احمد بن حنبل واعتماد فقهه دون سواه من الفقهاء الاربعة[٣] . ورغم كل ذلك فقد كان يشجع المغنين لانه كان محباً للفنون . كذلك كان ابنه ابو عيسى . قيل عنه انه كان يقول : « اذا اقمت صنعة ثلاثمائة وستين صوتاً ، عدد ايام السنة ، تركت الصنعة[٤] » .

ومن المغنين الذين ادركهم المتوكل ، اسحق الموصلي ، احمد بن يحي المكي ، محمد بن

(١) الاصفهاني — الاغاني ٢٠ : ١٤٨ و١٤٩

(٢) Lane Pole — Moors in Spain p: 74.

(٣) Farmer — A History of Arabian Music p: 139.

(٤) الاصفهاني — الاغاني ٩ : ١٠٤

الحارث ، عمرو بن بانة، عبدالله بن عباس الربيعي، اصوصة الأسود ، الحسن المسدود . واشتهرت من المغنيات عُريب وشارية وفريدة ومحبوبة جاريته المفضلة .

اما المنتصر (٨٦١-٨٦٢) فكان شاعراً وموسيقياً ، كثيراً ما كان يخلو بالندماء والمغنين واصحاب الأنس[١] .

ولا تذكر المصادر الادبية التاريخية عن تذوّق المستعين (٨٦٢ – ٨٦٦) للفنون شيئاً يذكر . ولكنّ لمحمد بن طاهر ، احد ولاته ، رأياً في الغناء والموسيقى يدل على حبه للغناء وميله الى الصوت الرخيم. قال مجيباً على سؤال وُجّه اليه: اي السماع افضل؟ فقال : « اوتار اربعة ، وجارية متربعة ، غناؤها عجيب ، وصوتها مصيب[٢] »

وكان المعتز (٨٦٦-٨٦٩) موسيقياً وشاعراً اشهر مغنيه بُنان بن عمرو الحارث، سليمان بن القصّار ، وكان يحسن الضرب على الطنبور . ومن مغنياته شارية التي سبقت الاشارة اليها وقد الف عبدالله بن الخليفة المعتز كتاباً في اخبارها . وكان عبدالله هذا موسيقياً بارعاً « حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها[٣]...»

ويذكر الاغاني ان لعبدالله كتباً مشهورة في صناعة الغناء ورسالة طويلة ارسلها الى عبيد الله بن عبدالله بن طاهر في تغيير بعض الالحان فاجابه ابن طاهر :

« ولو ان الرسالة جبهت الابراهيمين : ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحق وهم مجتمعون لبُهت منهم الناظر وأُخرس الناطق[٤] .»

ووصف المسعودي المعتمد (٨٧٠ – ٨٩٢) بقوله :

« كان المعتمد مشغوفاً بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ، ومحبـــة انواع اللهو والملاهي[٥] » . وكانت شارية من المغنيات المفضلة عنده . « كان قد وثق بها فلم يكن يأكل الا طعامها . » وقد كافأها يوماً ، على غناء جميل غنّته اياه بالف ثوبٍ مما لم يفعل مثله احد من الخلفاء قبله[٦] .

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ٨ : ١٧٦

(٢) المسعودي — مروج الذهب ٧ : ٣٤٨

(٣) الاصفهاني — الاغاني ٩ : ١٤١

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) المسعودي — مروج الذهب ٨ : ٨٨

(٦) الاصفهاني — الاغاني ١٤ : ١١٣

وكانت صنعة المعتضد (٨٩٢ – ٩٠٢) في الغناء صنعة يعتدّ بها . قال ابو الفرج في الاغاني انه لم يجد لاحد من الخلفاء ، بعد الواثق ، صنعة يعتدُ بها الا المعتضد ، فانه صنع صنعة متقنة ، عجيبة ، أبرزت على صنعة سائر الخلفاء سوى الواثق[١] . » وكان ابن طاهر يقرّظ صنعة المعتضد في الغناء ، وابن طاهر كما مرّ معنا ، خبير « بعلوم الاوائل من الفلاسفة في الموسيقى[٢] . » وهو صاحب كتاب (في النغم وعلل الاغاني المسمى كتاب الآداب الرفيعة) وهذا المؤلف «مشهور، جليل الفائدة» على حدّ تعبير الاغاني[٣] .

احتقار الغناء والمغنين :

وليس لنا، وقد عرضنا لتشجيع الخلفاء للمغنين ، وبعد ان رأينا النعم الكثيرة التي غمروا بها، واقبال بعض الخلفاء على تعاطي الغناء ان نجزم بان المغنين كانوا من الشرف والاحترام في الذروة . فلقد كان هناك رجال الدين الذين يقفون بالمرصاد لكل من يحاول ان يشذّ عن الطريق القويم . وكان هناك القضاة الذين كانوا ، بحكم وظيفتهم ، حماة للشريعة وذادة عنها . فكيف يتسامحون مع هؤلاء النفر من الناس الذين يفسدون اخلاق الفتيان ويغرونهم على انفاق اموالهم وتبذيرها[٤] ؟ كل هذا تجيب عليه هـــذه الحكايات الغنائية التي نحن بصددها ، بشيء من التفصيل والشرح .

فاذا ما اقبل ابو يوسف القاضي وهو من اهل المهابة والفقه ، يحدّث ابن جامع المغني، وهو لا يعرفه، نظر الناس اليهما وقالوا متعجبين: « هذا القاضي ابو يوسف قد اقبل على المغني[٥] » حتى اذا انذر القاضي بالمغني وجاء هذا الاخير يسلم ، رد عليه القاضي السلام ، بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه به وقال : إنا لله ! !

ولعلنا لو تعمقنا في درس هذه الظاهرة من رجال الدين والعلماء نحو المغنين وازدرائهم لهم لوجدنا لذلك اسباباً يمكن حصرها فيما يلي :

اولاً : الاحاديث المختلفة عن النبي محمد في انه ما كان ليحب ان يسمع الى الغناء .

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ٨ : ١٩٦ و١٩٧
(٢) الاصفهاني — الاغاني ٨ : ٤٤ و٤٥
(٣) الاصفهاني — الاغاني ٨ : ٤٥
(٤) الاصفهاني — الاغاني ٣ : ٨٨
(٥) الاصفهاني — الاغاني ٦ : ٦٩

ومن طريف ما يحكى من هذا القبيل ان ابن عمر ، وكان بصحبة نافع ، سمع مزماراً، فوضع إصبعيه على اذنيه ونأى عن الطريق وقال: يا نافع: هل تسمع شيئاً ؟ قال نافع : لا . فرفع عندئذٍ اصبعيه من اذنيه وقال . كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع مثل هذا ، فصنع مثل هذا[1] .

ثانياً : ان الحسد كان عاملاً كبيراً في احتقار المغنين والازدراء بهم والحط من مقامهم ومن صنعتهم لانهم كثيراً ما زاحموا العلماء والفقهاء الى قلب الخليفة فنالوا اعجابه وحازوا رضاه وخلوا به خلوات عديدة يحسدهم عليها الكثيرون من رجال البلاط المقربين ، فكيف بالعلماء ؟ ؟ لذلك رأينا الشعراء يهجون الخلفاء ويعيرونهم بميلهم الى الغناء وضربهم على الآلات الموسيقية[2] .

وكان اهل العراق يعيرون الحجازيين لانهم اجازوا الغناء واشتهروا بـــه وكانت المدينة معدن الغناء .

كذلك أثر عن الخلفاء الراشدين وبعض الأمويين ابتعادهم عن المغنين وكرههم الغناء اعتقاداً منهم انه يصرف الناس عن امور دينهم ويحمل اهل التقوى والتعقل على طلب اللهو والملذات .

ولكن هذا الازدراء وهذا الاحتقار للغناء وللمغنين لم يكن سوى موجة ما ازبدت حتى تلاشت لان تيار الترف والعمران الاجتماعي الذي مرت به الاعصر العباسية كان قوياً صخّاباً لم تقف في وجهه مثل هذه الحواجز الواهية والعوائق الضعيفة . فالحضارة التي وصل اليها العرب في ذلك العصر حملتهم على طلب الراحة والملذات والرخاء ومنها الغناء فاشتهر اكثر من خليفة في هذا الفن الجميل وشجّع السلاطين والامراء في جملتهم اصحاب الاصوات الجميلة وقربوهم منهم واجزلوا لهم العطايا فلمعت اسماء الكثيرين من المغنين واصاب الكثيرون منهم شهرة واسعة وثروة ضخمة وها أنا ذاكر بعضهم لانهم كانوا نواة القصص الغنائي وحولهم انشئت الحكايات الغنائية الكثيرة التي ندرسها في هذا الفصل . ولنبدأ ببعض المغنين الذين نشأوا وعُرفوا في العصر الاموي وكان لهم اكبر التأثير في تشجيع الغنـــاء ونموه في العصر العباسي لاسيا وان اكثرهم عاش في العصرين وبعضهم تمتع بخيرات الخلافة الاموية والعباسية وفي مقدمتهم :

---

(١) النويري ـ نهاية الارب ٤ : ١٦٥

(٢) راجع ابيات دعبل في هجاء ابراهيم بن المهدي وقد مر ذكرها

طويس ــ وقد مر ذكره مع ابان بن عثمان بن عفّان وكيف احتضنه هـذا الاخير وقبّله بعد ان سمع غناءه الرقيق. وطويس هو اول من غنّى في الاسلام الغناء الرقيق . وقد علّم ابن سُريج والدلاّل ونؤمة الضُحى[١]

جميلة المغنية ــ وقد اشتهرت زمن سليمان بن عبد الملك (٧١٥ – ٧١٧ م) وتفيدنا الحكايات الكثيرة التي تطفح بها كتب الادب ان هذه المغنية كانت تعقد مجالس للغناء والأدب تغصّ بعلية القوم واشرافهم . وكانت قد آلت الا تغنى احداً الا في منزلها فكان يقصدها حتى آلُ البيت احتراماً لقسمها هذا[٢] .

معبد بن وهب ــ وكان فحل المغنين وامام اهل المدينة في الغناء . كان له متعصّبون يفضّلونه على المغنين جميعاً وكان كثير الادلال بنفسه ، معجباً بها ، فخوراً بصوته وانغامه .

سائب الخاثر ــ عاصر عبد الملك (٦٨٤ – ٧٠٥) وهو اول من عمل العود في المدينة وغنى به[٣] .

ابن سريج ــ وكان يفضّل برقة صنعته وهو اول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة .

الغريض ــ وقد اخذ الغناء عن ابن سريج فبرع فيه وفاقه .

ابن مسجح ــ مولىً لبني مخزوم وهو استاذ ابن سُريج والغريض . ويخصه المستشرق فارمر ببحث مطول في احد كتبه الموسيقية وبعدد تآليفه الموسيقية المختلفة[٤] .

ابن محرز ــ وكان يلقب بصنّاجة العرب

عزة الميلاء ، عمر ابن داود ، رائقة ، سلامة ، ربيعة ، علوية ، زلزل ، ابراهيم الموصلي وكان اوحد زمانه في الغناء واختراع الالحان . عرف بانـه من اصحاب المدارس الغنائية[٥] .

---

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج٣ : ٢٤١

(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ١٢٩

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ١٨٨

(٤) Farmer — Historical facts p: 236.

(٥) يحسب المؤرخون ابراهيم الموصلي من المغنين المخضرمين راجع Ribera ص : ٣٤

هؤلاء هم اشهر المغنين في العصر الاموي . وليس لنا ان نسهب ، اكثر مما فعلنا ، في سرد الحكايات عن مغني العصر الاموي وتأثير غنائهم واشتهارهم ، لاسيما ، وان بحثنا قائم في الدرجة الاولى حول مغني العصر العباسي . ولكننا نستنتج ، ولا بد من ذلك ، من هذه الحكايات الكثيرة وهـــذا القصص الغنائي الذي يدور حول هؤلاء المغنين ان العصر الاموي قد عرف الغناء معرفة صحيحة وظهرت فيه اسماء الكثيرين من المغنين الذين حملوا لواء هذا الفن زمنـاً طويلاً حتى اوصلوه الى زملائهم في العصر العباسي فترعرع ونما في ظل القصور والبلاطات قصور الامراء والوجهاء وبلاطات الملوك والخلفاء . واليك بعض الاسماء التي مهرت العصر العباسي بطابعها الخاص واكسبته لونها الخاص :

اسحق الموصلي ــ وهو ابن ابراهيم. كان من اشهر ندماء الخلفاء. تفرّد بصناعة الغناء والموسيقى . واخباره لا تقل اهمية وروعة عن اخبار ابيه . وكلاهما يملأ كتب الادب العربي بالحكايات الغنائية الطريفة .

حكم الوادي ــ كان يحسب من كبار المغنين العرب[١] وهو معروف بفن الهزج

ابن جامع

سياط ــ وهو استاذ بن جامع ،

عُريب ، شارية ، متّيم ، دنانير ، ابراهيم بن المهدي وقد مر الكلام عنه ، المسدود وكان مسدود فرد منخر ومفتوح الآخر. وكان يقول : لو كان منخري الآخر مفتوحاً لاذهلت بغنائي اهل الحلوم وذوي الالباب وشغلت من سمعه عن امر دينه ودنياه ومعاشه ومعاده . اشتهر بصنعة عجيبة اكثرها الاهزاج واشتهر له هذان البيتان :

عُجْ بنا نجنِ بطرفِ العين تفاح الخدودْ
ونسلّ القلبَ عمن حظنا منه الكدودْ ! !

وكان يقول : والله لا تركت بعدي من يهزج[٢]. لُقب بالطنبوري ونبغ في بلاط الواثق والمتوكل والمنتصر .

---

(١) الاصفهاني ــ الاغاني ج ٥ : ٩

(٢) الاصفهاني ــ الاغاني ج ٢١ : ٢٥٦

ابن بانة ـــ كان تلميـــذ اسحق الموصلي والامير ابراهيم بن المهدي . كان اول ظهوره في بلاط المأمون . احسن الغناء والشعر ولكنه لم يكن موسيقياً ماهراً . كان يذهب مذهب ابراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه ، ويخالف اسحق ويتعصب عليـه تعصباً شديداً ويواجهه بذلك فينصره ابراهيم عليه . وكان تيّاهاً معجباً شديد الذهاب بنفسه وهو معدود في ندماء الخلفاء ومغنيهم . كان يقول لاسحق : « ليس مثلي يقاس بمثلك لانك تعلمت الغناء تكسباً وتعلمته تطرُباً ، وكنت اضرب لئلا اتعلمه وكنت تضرب حتى تتعلمه[١] » .

ابن عائشة ـــ وكان تائهاً لا يغني الا لخليفة او لذي قدر . ما كان يريد ان يقال له : غنّ : « اولمثلي يقال هذا ؟ »[٢]

فليح ابن ابي العوراء ـــ احد الثلاثة الذين اختاروا المئة الصوت للرشيد حسبه اسحق الموصلي من اربعة من فحول المغنين هم: ابراهيم الموصلي، حكم الوادي ، سياط، وفُليح ابن ابي العوراء[٣]

ابن الهربذ ـــ

فريدة جارية الواثق ، محبوبة من جواري المتوكل

المكي ـــ استاذ ابن جامع وابراهيم الموصلي ، وفليح ابن ابي العوراء وهو من عائلة موسيقية .

يزيد حوراء ـــ مغني المدينة، ظهر في ايام المهدي، عمل في مدرسة ابراهيم الموصلي وهو من طبقة ابراهيم وابن جامع . كان يتعصب للاول على الثاني[٤] » .

احمد ابن ابي العلاء ـــ تلميذ اسحق الموصلي من اهل سُرّ من رأى . برع في الاخذ عن اسحق وله صفة « يسيرة جيدة » على قول الاغاني[٥]

---

(١) الاصفهاني ـــ الاغاني ج ١٤ : ٥٢
(٢) الاصفهاني ـــ الاغاني ج ٢ : ٧٣
(٣) الاصفهاني ـــ الاغاني ج ٥ : ٩
(٤) الاصفهاني ـــ الاغاني ج ٣ : ٧٣
(٥) الاصفهاني ـــ الاغاني ج ٢٠ : ١١٤

عبدالله بن عباس الربيعي ــ كان شاعراً مغنياً محسناً جيـــد الصنعة نادرها ، وشعره مطبوع ظريف من اشعار المترفين واولاد النعم. عرف في بلاطات الخلفاء من الرشيد الى المنتصر . كان معجباً باسحق وكان المتوكل يفضله على غيره من المغنين[١] .

قريص المغني ــ من حُذاق المغنين[٢]

احمد ابن صدقة ــ عاصر المأمون الى زمن المتوكل . وكان ابوه وجـــده من الموسيقيين المعروفين في بلاط الرشيد

بُنان بن عمرو الحارث ــ من مغني المتوكل والمنتصر . عشيق الجارية فضـــل الشاعرة . وكان نديم المنتصر ومغنيه المفضل .

ولا سبيل الى الاحاطة بحياة كل من هؤلاء المغنين اكثر مما فعلنا وليس ذلك هو المقصود في دراستنا هذه وننهي البحث فيهم بذكر كلمة عن زرياب واثر مدرسته في الموسيقى العربية .

زرياب ــ كان زرياب ثورة في عالم الفن والغناء . ترعرع على يدي اسحق وتحت كنفه حتى اذا اشتد عزمــه وقويت شكيمته وآنس من نفسه القوة راح يتطاول على استاذه معتداً بنفسه ، مفاخراً بفنه امام الرشيد بقوله : « ان اذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك[٣] » .

ويعجب الرشيد بغناء زرياب اعجاباً ظاهراً يثير حسد الموصلي عليه فيكيد الموصلي لزرياب بالسر ويحمله على ترك البلاط مرغماً والهرب الى « مغرب الشمس » ، الى بلاد الاندلس الجميلة . ويقرّ قراره في قرطبة وينزل على عبد الرحمن بن الحكم مكرماً ، معززاً . فقرّبه ابن الحكم اليه وسمح له بمجالسته على الشراب والسماع واحبه حبـــاً شديداً وقدمه على جميع المغنين . وبرع زرياب في فن الموسيقى واظهر مقدرة في الغناء يحسد عليها . وكان صاحب مدرسة في الغناء عُرفت باسمه هي مدرسة لهـــا قوانينها

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ١٧ : ١٢١
(٢) ابن النديم — الفهرست ص : ١٥٦
(٣) المقّري — نفح الطيب ج ٢ : ٧٤٩

وقواعدها . ولقد اضاف الى اوتار العود الاربعة وتراً خامساً[١] فكان بذلك فناناً موهوباً ومغنياً مجدداً وصاحب مدرسة معروفة .

ولزرياب مجموعة من الاغاني عني بها وبجمعها وحفظها اسلام بن عبد العزيز ، وعمل كثيراً في سبيل نشرها وتعميمها[٢]

والظاهر ان زرياب كان موسيقياً في دمه . كان له ثمانية اولاد ذكور وابنتان اثنتان، كلهم غنّى ومارس الصناعة . كان اعلاهم عبيد الله ولكنه ، كما تقول المصادر ، « كان تيّاهاً بنفسه ، شديداً بزهوه ، كثير الاعجاب بغنائه ، يجترىء على الملوك ويستخف بالعظماء[٣] » .

اما حمدونة ، وهي بنت زرياب، وزوجة الوزير هشام بن عبد الملك العزيز فكانت متقدمة في اهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، اخذ عنها كثيرون من المغنين .

هؤلاء هم اهم المغنين والمغنيات في العصر العباسي . وقد رافق الغناء مظهر آخر من مظاهر الفن هو الضرب على الآلات الموسيقية المختلفة فبرع الكثيرون وذاع صيتهم ونالوا حظوة كبرى عند الملوك والامراء والخلفاء وهاك بعضهم :

الضراب

زلزل ـــ كوفي الاصل اخذ الغناء عن ابراهيم الموصلي ، وهو الذي ثقفه واراه وجوه النغم حتى اصبح من حذّاق الضرّاب . يقول صاحب العقد الفريد: « كان زلزل اضرب الناس للوتر ، لم يكن قبله ولا بعده مثله[٤] . »

محمد الزفّ ـــ كوفي الاصل والمولد . كان مغنياً ضارباً ، وكان اسرع خلق الله اخذاً للغناء واصحّهم اداءً له . وكان يتعصب لابن جامع .

ابو حشيشة الطنبوري ـــ كان ضارباً ماهراً على الطنبور . ظهر في بلاط المأمون والمعتمد وهو مؤلف في الغناء وفي اخبار الطنبوريين كما سنرى .

---

(١) المقّري ـــ نفح الطيب ج ٢ : ٧٥١

(٢) Ribera p: 107.

(٣) المقّري ـــ نفح الطيب ج ٢ : ٧٥٢

(٤) ابن عبد ربه ـــ العقد الفريد ج ٣ : ٢٤٦

عمر الميداني ــ نديم ابي حشيشة وهو من المتقدمين الذين يحسنون الصنعة والاداء قال جحظة : سمعت ابن الدقّاق في منزل ابي العبيس بن حمدون يقول : « سمعت ابا حشيشة والمستورد (والصحيح المسدود) ومن قبلها من الطنبوريين فما سمعت منهم اصحّ غناء ولا اكثر تصرفاً من عمر الميداني[1]

ابن القصار ــ كان نديم ابن المعتز. وضعه الاغاني بين احسن الطنبوريين قال: « كان ابن القصّار معدوداً بين احسن الطنبوريين وهم : المسرور وعمر الميداني وابن القصّار[2] » .

جراب الدولة ــ من الطنبوريين الظرفاء . كان يلقب بالريح . له كتاب « النوادر والمضاحك في سائر الفنون والنوادر » وقد وصفه ابن النديم بقوله : انــه كتاب كبير[3]

ملاحظ ــ كانت له الرئاسة على جميع الضرّاب[4]

ومن اقدم الذين تعلموا الضرب على العود الحرث بن كلدة الطبيب العربي الجاهلي. تعلم ذلك من فارس واليمن . ويقال انه ادرك الاسلام[5]

الجواري المغنيات ــ لم تقل الجواري المغنيات شهرة عن المغنين لاسيما وان الصوت الحسن من الوجه الحسن يكون اشد اختلاساً للعقول واوقع للقلوب على حد تعبير ابن عبد ربه[6] .

واليك اسماء بعض الجواري مع نبذة صغيرة عن كل منهن :

بصبص ــ جارية من مولدات المدينة ، حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، اشتراها المهدي وهو ولي العهد ، سراً من ابيه، بسبعة عشر الف دينار. وكان عبدالله بن الزبير يأتيها فيسمع منها وقيل انه انشدها شعراً بايعها فيه اذ قال :

---

(١) ابو الفرج الاصفهاني ــ الاغاني ج ٢٠ : ٦٦
(٢) ابو الفرج الاصفهاني ــ الاغاني ج ١٢ : ١٦٧
(٣) ابن النديم ــ الفهرست ص : ١٥٣
(٤) ابو الفرج الاصفهاني ــ الاغاني ج ٥ : ٥٧
(٥) القفطي ــ اخبار العلماء باخبار الحكماء : ١١٣
(٦) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج ٣ ص : ٢٣٠

لو انها تدعو الى بيعة بايعتها ثمّ شققت العصا[١]

عريب ـ مغنية محسنة، نهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الضرب واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار . وكانت دفاترها وصحفها التي جمعت فيها غناءها الف صوت . وقد خصها الاصفهاني بسبع عشرة صفحة من كتابه الاغاني ذاكراً نوادرها الغريبة وحكاياتها الكثيرة التي تظهر تأثيرها وفعل غنائها في عظماء دهرها ، وفي مقدمتهم الخلفاء[٢] .

عبيدة الطنبورية ـ نبغت في الضرب على الطنبور، شهد لها بذلك اسحق الموصلي وكان يقول فيها : « الطنبور اذا تجاوز عبيدة هذيان[٣] » وكان ابو حشيشة يعظمها ويعترف لها بالرياسة والاستاذية. ذكرها ابن جحظة في كتابه الطنبوريين والطنبوريات فقال: « كانت من المحسنات وكانت لا تخلو من عشق، ولم يعرف في الدنيا امرأة اعطر منها[٤] . » وكان مسدود المغني يقدرها ويحترمها فلا يتقدمها في الغناء ان جمعهما مجلس فيقول: « لا والله لا اتقدم عُبيدة وهي الاستاذة[٥]. » وكان لها طنبور مكتوب عليها بالابنوس :

كل شيءٍ سوى الخيانة في الحب يحتَمل[٥]

وقال فيها بعض الشعراء :

امست عبيدة في الاحسان واحدة ... فالله جار لها من كل محذور
من احسن الناس وجهاً حين تبصرها ... واحذق الناس ان غنت بطنبور[٥]

شارية ـ خرّجها ابراهيم بن المهدي واخذت غناءه كله او اكثره وبذلك يحتج من يقدمها على عُريب. ولقد برعت في الغناء حتى تمنى الكثيرون شراءها بآلاف الدنانير فلم يقبل ابراهيم بذلك بل اعتقها وتزوّج منها . وقد وصلت للمعتصم بعد وفاة ابراهيم فاعطي فيها سبعين الف دينار فلم يبعها. وكانت تدعي ان اباها من قريش وانها

---

(١) ابو الفرج الاصفهاني — الاغاني ج ١٣ : ١١٤ ـ ١١٩
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١٨ : ١٧٥ و١٩١
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ١٩ : ١٣٧
(٤) الاصفهاني — الاغاني ج ١٩ : ١٣٤ و١٣٥
(٥) الاصفهاني — الاغاني ج ١٩ : ١٣٦

سُرقت وهي صغيرة، فبيعت بالبصرة من امرأة هاشمية وباعتها من ابراهيم بن المهدي[١].

بذل — من مولّدات المدينة . كانت تغني ثلاثين الف صوت ولها كتاب في الاغاني منسوب الاصوات ، غير مجنس ، يشتمل على اثني عشر الف صوت . وكانت حلوة الوجه، ظريفة ، ضاربة. شهد لها ابو حشيشة قال: « كانت بذل من احسن الناس غناء في دهرها . وكانت استاذة كل محسن ومحسنة ». وقيل انها ارادت مداعبة ابراهيم بن المهدي يوماً ، وكان يعظمها ويتوانى لها ، فانقطع عنها ، فصارت اليه ودعت بعود فغنت في طريقة واحدة وايقاع واحد واصبع واحدة مائة صوت لم يعرف ابراهيم منها صوتاً واحداً، ثم وضعت العود وانصرفت. فلم تدخل داره حتى طال طلبه لها وتضرعه اليها في الرجوع اليه[٢] .

دنانير — مولاة يحي بن خالد البرمكي . كان الرشيد لشغفه بها يكثر مصيرها الى مولاها ويقيم عندها ويبرها ويفرط . لها كتاب مجرد في الاغاني مشهور . وقد اخذت الغناء عن بـــذل واخذت ايضاً عن كبار المغنين امثال فُليح وابراهيم وابن جامع واسحاق ونظرائهم . وتقدم عقيل المغني منها خاطباً وكان يحبها حباً شديداً فردته رغم الشفاعات الكثيرة التي بذلها مولاه صالح بن الرشيد ، وبذل والحسين بن محرز . وفي دنانير يقول ابو حفص الشطرنجي :

هذي دنانيرُ تنساني فاذكرها — وكيف تنسى محباً ليس ينساها
والله والله لو كانت اذا برزت — نفس المتيم في كفيه القاها !!

عاتكة — أمها شهدة جارية الوليد بن يزيد وشهدة هذه كانت مغنية ايضاً اشتهرت في بلاط الرشيد ونبغ من تلاميذها اسحق الموصلي ومخارق[٣] .

منيم الهاشمية — من مولدات البصرة اخذت عن اسحق وابيه قبله وعن طبقتها من المغنين ، وتخرجت على يد بذل . وكانت من احسن الناس وجهاً وغناءً وادباً . حظيت عنـد علي بن هشام حظوة شديدة وتقدمت على جواريه اجمع ، وهي ام ولده كلهم[٤] .

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ١٤ : ١٠٩ ـ ١١٤
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١٥ : ١٤٤ ـ ١٤٧
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٦ : ٥٧ و٥٨
(٤) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ٣١ ـ ٣٨

قلم الصالحية – كانت حسنة الغناء والضرب، حاذقة قد اخذت عن ابراهيم وابنه واسحق ويحي المكي وزُبير بن دحمان . كانت لصالح بن عبد الوهاب فاشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار[١] .

ذات الخال – احدى الجواري الثلاث اللواتي كان الرشيد يهواهنّ ويقول الشعر فيهنّ وهن : سحر وضيا وخنث او ذات الخال .

كانت احسن الناس وجهاً ولها خال على خدها ، فوق شفتها العليا ، لم ير الناس احسن منه في موضعه . كان ابراهيم الموصلي يهواها وهو الذي باعها من الرشيد بسبعين الف درهم حتى اذا علم الرشيد ان كان بينها وبين ابراهيم صلة حبية ابغضها ووهبها لحمويه الوصيف . ولكنه كثيراً ما كان يشتاقها ويستمع الى غنائها بعد ذلك .

عنان – من مولدات اليمامة ، جارية النّطاف ، كان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم . وكان العباس بن الاحنف يهواها ويراسلها شعراً ولم تكن لتميل اليه . وكان الرشيد يحبها ويساوم بها فيأبى الناطفي ان يبيعها منه باقل من مائة الف دينار[٢].

وهناك كثيرات من المغنيات يرد ذكرهن في هذا القصص الغنائي ونجد ترجمتهنّ في كتاب الاغاني وهنّ اقل شهرة ممن ذكرنا امثال : حسنة . وريّق . دمَن جارية اسحق الموصلي . وهْبة جارية محمد بن عمران القروي . دِفاق جارية يحي بن الربيع . سمحة . قمرية العمرية ام وُلد عمرو بن بانة وغيرهن ...

اما في الاندلس فنبغت العجفاء جارية عبدالرحمن الاول بن معاوية صاحب الاندلس وفضل المدنية جارية عبدالرحمن الثاني . ومصابيح تلميذة زرياب التي يقول فيها ابن عبد ربه ابياته المشهورة :

يا مَن يضنّ بصوت الطائر الغردِ ما كنت احسب هذا الضن من احد
لو ان اسماع اهل الارض قاطبة اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزدِ[٣]

هذه هي اهم الاسماء للجواري والقيان المغنيات اللواتي اشتهرن في الاعصر العباسية

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ١٢ : ١١٥ - ١١٧
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١٠ : ١٠١
(٣) المقّري — نفح الطيب ج ٢ : ٧٥٤

وهي اسماء كثيراً ما ترددت في هذا القصص الغنائي العابق بطيب الصوت وشذا الروح وهؤلاء القيان ، بما فيهن من مرح الشباب وعبق الحب ، وطيب الحنجرة قد استطعن ان يخلعنَ على هذه الحكايات الف لون ولون حتى بات الواحد منا ، وهو يقرأ هـذه الحكايات ، يتساءل هل هو في اليقظة ام في المنام ؟؟ ويتمنى لو تطول هذه الاحاديث العجيبة وهذه الاخبار النادرة التي تجمع الى الاشراق اللغوي متعة روحية سامية !

شهرة المغنين والمغنيات

ولسنـا نستطيع ان نمر بهؤلاء المغنين والمغنيات دون ان نبحث في هـذه الشهرة العريضة التي حظي بها الكثيرون منهم. وهي تظهر في مظاهر مختلفة اهمها ما يلي :

التأثير في الخلفاء والعظماء ــ وهو تأثير كثيراً مـا احسنت الجواري استغلاله عند الخلفاء والعظماء . فذات الخال ، وقد علمت سحر جمالها في قلب الرشيد تسأله ان يولي حموية الوصيف الحرب والخراج بفارس سبع سنين فلا يرد لهـا الرشيد طلباً[1] . وعندما تراه يميل الى بعض الجواري غيرها يشق عليها ذلك فكانت تقص الخال الذي يجدها لتغيظه بعملها فيتأثر الرشيد من ذلك وينهض اليها مسرعاً مسترضياً لها . .

اما بذل فكان الخلفاء يتوددون اليها ويستزيرونها ويمرون على بابها . وهكذا قلْ في الكثيرات من هؤلاء المغنيات اللواتي كن يظهرن دالة كبرى على رجال الدولة وامراء العصر . فيتدخلن في كل شاردة وواردة ، فعل الكثيرات من نساء الشرق والغرب ، والملكات العشيقات اللائي غـيّرن مجرى التاريخ بما كان لهن من سحر على الملوك والامراء .

وهذا التأثير لم يكن الدافع اليه المغنيات فقط بل كان للمغنين منه القسط الاكبر .

فالحارث بن خالد المخزومي يمدح الغريض بقوله : « يا غريض لا لوم في حبك ، ولا عذر في هجرك ، ولا لذة لمن لا يروّح قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ الا انت ، لكان حظاً كافياً وافياً . يا غريض ! انما الدنيا زينة فازين الزينة ما فرّح النفس. ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء[2]. » وهذا الوليد

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ١٥ : ٨٠

(٢) الاصفهاني — الاغاني ج٣ : ١٠٧

بن يزيد يستدعي معبد ويوجه اليه الى المدينة ويجلسان معاً، ليس بينهما ثالث، في موضع بقرب بركة مملوءة ماء ورد قد خلط بمسك وزعفران[١] .

وكانت الجواري والمولعون بمعبد كثيرين يكبون على يديه ورجليه يقبلونها قائلين: « انت سيدنا ومن نتمنى على الله ان نلقاه[٢] . »

وكان ابراهيم الموصلي ذا مكانة كبيرة عند الرشيد . كثيراً ما كان يقول له : « يا ابراهيم بكّر علي غداً حتى نصطبح[٣] » .

العطايا والهدايا ـ والمظهر الثاني لهذه الشهرة يصيبها المغنون والمغنيات هو في هذه العطايا الكثيرة والانعامات العظيمة والهدايا الثمينة التي كانت تتدفق عليهم من رجال الدولة والخلفاء في مقدمتهم . وانني لاحتار حقاً في اختيار الامثلة على ذلك . فاي مغن لم ينل العشرات والمئات والالوف من الدنانير الذهبية ؟ واي مغنية لم تتدفق عليها عقود الذهب واللؤلؤ تدفقاً وتنثر امامها الاثواب الجميلة نثراً !

هذي دنانير ، وقد تيمت الرشيد يهدى اليها عقد قيمته ثلاثين الف دينار[٤] .

وهذه شارية تصل الى المعتمد بعد ان مرّت على كثيرين غيره فيأمر لها بالف ثوب من جميع انواع الثياب[٥] .

وهذه عُريب تغلّف شعرها مكان الغسلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً، وتغسله من جمعة الى جمعة فاذا غسلته اعادته وتقسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير وما تسرّحُهُ منه بالميزان[٦] .

وهذه ام جعفر ، وقد جمعت بنات الخلفاء وبنات هاشم لينحنَ على الرشيد ، تبعث الى اسحق بن ابرهيم الموصلي بمائة الف درهم ومائة ثوب مكافأة له على اربعة ابيات ليست من نظمه ولا تلحينه[٧] .

---

(١) الاصبهاني — الاغاني ١ : ٢٧
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١ : ٢٤ و٢٥
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٥ : ٢٢٨
(٤) الاصفهاني — الاغاني ج ١٦ : ١٣٧
(٥) الاصفهاني — الاغاني ج ١٤ : ١١٣
(٦) الاصفهاني — الاغاني ج ١٨ : ١٨٧
(٧) الاصفهاني — الاغاني ج ٨ : ٣٤٨

وهذا ابن جامع يدخل الى بغداد فقيراً ويخرج منها احسن من جلة اهلها ومياسيرهم بعد مكافاءات الرشيد له على غنائه. قيل انه اقبل اليه يوماً وطلب منه ان يغنيه فكافأه بثلاثة اكياس فيها ثلاثة آلاف دينار[١].

وهذا المأمون يجعل يوماً خاصاً بالجواري المغنيات يغنينه من وراء الستارة، ويصلهن باجزل الصلات واغزر العطايا[٢].

وهذا الواثق يجمع الضراب والمغنين للمناظرة في حضرته ويكافىء المجيدين منهم[٣].

وهذا الوليد الثاني يكافىء حكم الوادي بالف قطعة ذهبية، وقد تغلب الحكم هذا على ابراهيم الموصلي وابن جامع في حضرة الهادي فنال الجائزة الاولى ومقدارها ٣٠٠ الف قطعة فضية. وهذا الامين يدفع عشرة آلاف درهم ثمن درس موسيقي واحد يعطيه يحي المكي لاخيه ابراهيم بن المهدي[٤].

الجواري تباع باثمانه باهظة

ولا يستطيع قارىء هذه الحكايات الغنائية الا ان يدهش لهذه الاموال الكثيرة التي كان يهبها الخلفاء ورجال المال للمغنين والمغنيات وخاصة المبالغ الجسيمة التي كانت تدفع ثمناً لجارية جميلة الصوت، حسنة الوجه!.

فبذل التي مر ذكرها والتي تتناولها هذه الحكايات بطريف الاخبار وجميل الروايات قيل انها بيعت بعشرين الف الف درهم[٥]. وهو مبلغ من المال عظيم بل هو اعظم مبلغ ينقد ثمن جارية.

آلات الطرب

تتردد في هذا القصص الغنائي عشرات الاسماء لآلات الطرب التي كان يستعملها المغنون في تأدية اصواتهم. وليس القصد هنا في ان نصف هذه الآلات وصفاً علمياً فنياً

(١) الاصفهاني — الاغاني ٦ : ٣١١

(٢) الاصفهاني — الاغاني ٥ : ١٢٥

(٣) Farmer — A History of Arabian Music p : 114.

(٤) Farmer — p : 114.

(٥) الاصفهاني — الاغاني ١٥ : ١٤٥

فنبين مزاياها بالنسبة لآلات اليوم . ذلك يحتاج الى دراسة خاصة لا تتوفر الا لمن كان له اطلاع واسع في فن الغناء والموسيقى ، الشرقي منها والغربي ، انما يهمنا، ان نلم بهذه الآلات الماماً سريعاً بصفتها تؤلف قسماً من مادة هذا القصص. ولعل في ذكر اسمائها حافزاً لدرسها وتبيان اهميتها[١] .

كان طويس يغني على المُرَبّع . وابن سُريج ينقر على الدُف، وهو ايضاً اول من ضرب بالعود . وكان ابن عائشة يغني على الاداة . وكان لحسّان بن ثابت ، زمن النبي ، جارية تغنيه بمُزهرها[٢] .

وكان عند جبلة بن الايهم الغساني مغنيات روميات يغنين بالرومية بالبرابط[٣].

وقال ابن رشيق: « وغنى العرب جميعاً بالعيدان، والطنابير والمعازف والمزامير[٤].

ولقد اتخذ العرب بعض آلاتهم الموسيقية عن الشعوب الكثيرة التي امتزجوا بها مثل الفرس والروم والانباط وغيرهم . من هذه الآلات :

الارغانون ، والبزق ، والطبلة ، والدف ، والشلياق ، والقيثارة ، والطنبور ، والعنق الرّباب ، والمعزفة ، والشهروز ، والعود[٥] . .

---

(١) راجع كتاب Studies in Oriental Musical instruments - Farmer وهو من اوسع المصادر واشملها لدراسة هذه الآلات

(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ١٠ : ١٦٩

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ١٦ : ١٥

(٤) ابن رشيق — العمدة ج ٢ : ٢٤١

(٥) الدكتور حسن وغيره — نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية ص : ٧٩

انواع الغناء

وغنى العرب على هذه الآلات المختلفة جميع انواع الغناء وهي كثيرة منها :

الحداء : وهو اول السّماع والترجيع في العرب على قول المسعودي[١] . وهو يقع بتطريب وترجيع يسير وترفيع للصوت[٢] .

النصب : وهو شبيه بالحداء .

وهناك فن الاهزاج الذي برع فيه اسحق الموصلي بينما ابوه ابراهيم عُرف بالماخوري قال الاصفهاني : « اربعة بلغوا في اربعة اجناس مبلغاً قصر عنه غيرهم ، معبد في الثقيل وابن سُريج في الرمل ، وحكم في الهزج وابراهيم في الماخوري[٣] » . وقال المسعودي: « وكان غناؤهم (اي العرب) النصب ثلاثة اجناس : الركباني والسناد الثقيل والهزج الخفيف[٤] . »

وتقدم الغناء واصبح بعد زمن فناً مستقلاً له اتباعه وله مريدوه وله اعلامه الذين يحملون لواءه وينشدونه على طريقة علمية صحيحة . فهذا ابراهيم الموصلي يؤلف صوتاً مشهوراً مطلعه :

قلْ لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغتَ الذي اردت وان كنت لاعبا

فيتصل خبره بابراهيم بن المهدي فيكتب يسأله عن الصوت فيجيبه ابراهيم ويكتب اليه « بشعره وايقاعه ، وبسيطه ، ومجراه ، واصبعه ، وتجزئته واقسامه ، ومخارج نغمه ومواضع مقاطعه ، ومقادير ادواره ، واوزانه[٥] » .

فالايقاع والبسيط والمجاري والاصبع والتجزئة والاقسام ومخارج النغم ومواضع المقاطع والادوار والاوزان ، كل ذلك الفاظ لها معانيها اله ومدلولاتها الفنية .

---

(١) المسعودي — مروج الذهب ج ١٠ : ٩٢
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج٨ : ١٤٩
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٦ : ٦٦
(٤) المسعودي — مروج الذهب ٨: ٩٣
(٥) الاصفهاني — الاغاني ٩ : ٥٤

وهي تعطينا فكرة واضحة عن تقدم فن الموسيقى ورسوخه عند العرب في ذلك العصر. ولقـــد استطاع المستشرق فارمر ان يرى تشابهاً كبيراً بين استعمال العرب لاجناس غنائهم وبين التي استعملها اليونان قبلهم . فاجناس الغناء الثلاثة التي وردت في كتاب مفاتيح العلوم وهي الطنيني ويسمى القوي والمقوي ، اللوي والملون ، والتأليفي او الناظم او الراسم ، ليست في الحقيقة سوى الانغام اليونانية المعروفة باسم Diatonic ، Enharmonic, Chromatic . وتسمى ايضاً الرجليّ والخنثوي والنسوي[1] .

وفي الاغاني اشارات كثيرة الى استعمال العرب هذه الالحان المقتبسة عن الالحان البيزنطية[2] .

التآليف الغنائية الموسيقية

وكان لتقدم الغناء وانتشار شهرة المغنين ان ظهر الفن الغنائي في مظهر جديد هو مظهر التأليف في الموسيقى والغناء ، او الجمع ، جمع الاخبار عن الفنانين من ضرّاب ومغنين ومغنيات ، او جمع الاصوات المختلفة والاغاني المتنوعة في كتاب مستقل .

ومما يؤسف له حقاً ان تكون اكثر هـــذه الكتب مفقودة . فلم يصلنا منها شيء يستحق الذكر فنهتدي بواسطته الى دراسة الفن الموسيقي العربي القديم . ولعل العاملين على احيـاء التراث العربي القديم يعثرون ، في زوايا المكاتب العالمية على بعض هذه الكتب فينشروها خدمة للعلم والآداب والقومية .

وهاك اسماء بعض المؤلفين مع اسماء كتبهم :

١ ــ الكندي[3] : + سنة ٤٧٤ له عدة كتب في الموسيقى منها :

١ ــ رسالة كبرى في خبر تأليف الالحان .

٢ ــ رسالة في ترتيب النغم .

٣ ــ رسالة في الايقاع .

---

(١) الخوارزمي ــ مفاتيح العلوم ــ مطبعة الشرق سنة ١٣٤٢ هـ ص : ١٤٠

(٢) الاصفهاني ــ الاغاني ٥ : ٥٣

(٣) ابن النديم ــ الفهرست ص : ٢٥٧

٤ – رسالة في المدخل الى صناعة الموسيقى .

٥ – رسالة في الاخبار عن صناعة الموسيقى .

٦ – رسالة في خبر صناعة التأليف .

٧ – مختصر الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود[1] .

٢ – الخليل بن احمد[2] : + سنة ١٧٥ ﻫ

له كتاب النغم وكتاب الايقاع وفيهما محاولة جريئة علمية في دراسة الفن الموسيقي

٣ – اسحق الموصلي[3] : + سنة ٢٣٥ ﻫ

له كثير من الكتب في الغناء وفي اخبار المغنين منها :

١– كتاب الاغاني

٢– كتاب اخبار عزة الميلاء

٣– اغاني معبد

٤– كتاب اخبار حنين الحيري

٥– كتاب اخبار طويس

٦– كتاب اخبار ابن مِسجَح

٧– كتاب اخبار ابن عائشة

٨– كتاب اخبار الدلال

٩– كتاب الاختيار من الاغاني للواثق

١٠– كتاب الرقص والزّفن

١١– كتاب النغم والايقاع

١٢– كتاب اخبار معبد ابن سريج واغانيهما

١٣– كتاب اخبار الغريض

١٤– كتاب الاغاني الكبير

٤ – حنين بن اسحق العبادي : + سنة ٨٧٣ م

مسيحي المولد والنشأة عُرف بنشاطه في ترجمة الكتب اليونانية الى العربية والسريانية . ويقول فارمر ان في مكتبة مونيخ الحكومية مخطوطة عربية لحنين فيها

---

(١) قد وصل الينا بعض هذه الكتب منها ثلاثة او اربعة كتب في المتحف البريطاني ومكتبة برلين باسماء محرّفة بعض التحريف راجع عن ذلك فارمر ص : ١٢٨

(٢) ابن النديم — الفهرست ص : ٤٣

(٣) ابن النديم — الفهرست ص : ١٤١

بحث عن الموسيقى مأخوذ عن اليونانية . وقد ترجمت الى العبرانية[١] .

٥ ــ ابنو موسى :

وهم محمد احمد والحسن ابناء موسى بن شاكر . نشأوا في بيت الحكمة وكانوا علماء في الرياضيات والميكانيك وعلم النجوم والموسيقى . ولهم كتاب الاراغانون وكتاب الآلات التي تزمّر بنفسها وهو موجود مخطوطة في مكتبة المدرسة الارثوذكسية (الثلاثة الاقمار) في بيروت[٢] .

٦ ــ يحي المكي :

له كتاب في الاغاني وقد جمع فيه احسن الامثلة من الغناء القديم .

٧ ــ احمد ابن يحي المكي : + سنة ٨٦٤ م

ابن يحي المذكور . راجع كتاب ابيه واخرج منه نسخة جديدة بثلاثة آلاف اغنية ثم جمع كتاباً آخر باسم كتاب مجرّد في الاغاني وجمع فيه اربعة عشر الف اغنية .

٨ ــ ابراهيم الموصلي : + سنة ٨٠٤ م

لم يسبقه احد من مؤلفي القطع الموسيقية . جاء في الاغاني ان ابراهيم « صنع تسعمائة صوت منها دينارية ومنها درهمية ومنها فلسية ، وليس اكثر من صنعته . فاما ثلاثمائة منها فانه تقدم الناس جميعاً فيها ، واما ثلاثمائة فشاركوه وشاركهم فيها ، واما الثلاثمائة الباقية فلعب وطرب[٣] » .

٩ ــ عمرو ابن بانة : + سنة ٨٩١ م

له كتاب مجرد الاغاني يشهد فيه ابن خلكان بقوله : « انه كاف لمهارته . ويقول فيه ابو الفرج « انه اصل من الاصول[٤] » .

---

(١) Farmer — A History of arabian Music p: 127.

(٢) المشرق مج ٢١ ص : ٤٤٤

(٣) ابو الفرج الاصفهاني —— الاغاني ج ٥ : ١٧

(٤) الاصفهاني —— الاغاني ١٤ : ٥٢

١٠ ـــ ابن مشبشة الطنبوري :

له كتابان الاول كتاب المغني المجيد والثاني كتاب اخبار الطنبوريين . ويقول ابن النديم انه رأى الكتاب الاول « بخط عتيق[١] » .

١١ ـــ قريص المغني :

له كتاب صناعة الغناء واخبار المغنين وذكر الاصوات التي غنى فيها على الحروف ولم يتمه . والذي خرج منه نحو الف ورقة . هذا ما يقوله ابن النديم[٢] .

١٢ ـــ جحظة البرمكي + سنة ٩٣٨ م

له كتاب الطنبوريين وكتاب النديم وكان لهما شهرة كبيرة في ذلك الزمن وقد نقل عنهما الاصفهاني في كتاب الاغاني .

(١) ابن النديم ـــ الفهرست ص : ١٤٥
(٢) ابن النديم ـــ الفهرست ص : ١٥٦

قيمة القصص الغنائي

يجدُر بنا، لنقدّر هذه الحكايات الغنائية قدرها، ولننزلها منزلتها من الفن القصصي العام والقصة العربية خاصة، ان ننظر في المادة التي تتألف منها وفي البواعث والاسباب التي بعثت على تأليفها وتدوينها ، والاغراض العديدة التي تناولتها .

ولقد مررنا مروراً سريعاً بالاغراض الرئيسية التي طرقتها هذه الحكايات ، فرأينا انها وضعت للالمام بحياة المغنين والمغنيات وذكر الحانهم واصواتهم، وتعداد آلاتهم التي كانوا عليها يضربون . كما انها تبين الى حد كبير الشهرة الواسعة التي اصابها هؤلاء المغنون والحظوة الكبرى عند الخلفاء والعظماء من بني قومهم ، والثروات الضخمة التي نالها الكثيرون والكثيرات ممن مر ذكره معنا من مغنين ومغنيات . كل ذلك هو غرض هذه الحكايات ، وهو غرض رئيسي هام ، يطلعنا على تاريخ عصبة كبيرة من اصحاب الفن حملت لواء الموسيقى والغناء طيلة الاعصر العباسية وعملت جهدها في تحسينه وتنميته وترقيته . وليس هذا كل شيء بل لهذه الحكايات قيمتها الاجتماعية التي لا يستطيع المؤرخ ان ينكرها . فاي اخبار هي اخبار هؤلاء المغنين والمغنيات ، تلك الروايات الطريفة التي يذكرها كتاب الاغاني وغير الاغاني عن جميلة وعزة وعريب ودفاق وغيرهن كثيرات ! بل ما هي هذه المجالس الفخمة ؟ مجالس اللهو والرقص والغناء والشراب، تلك التي كانت هؤلاء الجواري يعقدنها في دورهن تارة والخلفاء في قصورهم تارة اخرى ؟ انها تطلعنا على العصر العباسي ، او على الاقل ، على جانب منه . وهذا الجانب، رغم ما فيه من مجون ورغم ما يغلب عليه من الحرية الاخلاقية والنزعة المجونية، هو وجه من وجوه المجتمع العباسي الكثيرة، تلك الوجوه المختلفة في تقاسيمها، المتعددة في متناقضاتها !

مادة القصص الغنائي

وليست قيمة هذه الحكايات الغنائية محصورة في عرضها لنا ، وبصور مختلفة ، مظاهر العصر العباسي فقط . بل فيها مادة شعرية غزلية لارق شعراء العرب . وغير بعيد ان يتآلف الشعراء والمغنون ويتصادقوا فهم بحاجة قصوى الى بعضهم البعض .

فالشعر الرقيق المقرون الى الصوت الجميل يرقص السامع ترقيصاً[١] .

وفي هذه الحكايات الشيء الكثير عن حيل الجواري وظرفهن في كتابة الرقيق من الشعر على المراوح التي يحملنها او اذيال الفساطين التي يلبسنها مما كان يلفت الانظار ويبهر العقول :

دخل ابن ابي عتيق على عبدالملك . فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه ، يميسان كغصن بان ، بيد كل جارية مروحة ، تروح بها عليه ، مكتوب بالذهب في المروحة الواحدة :

انني اجلب الرياح وبي يلعبُ الخجلْ
وحجابٌ اذا الحبيب ثنى الرأس للقبَلْ
وغيـــاث اذا النديم تغنى او ارتجـــل!

وفي المروحة الاخرى :

انا في الكف لطيفـــة مسكني قصر الخليفة
انـــا لا اصلح الا لظريف او ظريفـه
او وصيف حسن القـد شبيـــهٍ بالوصيفه[٢]

ويحكون عن الدارمي وكان شاعراً أمويـاً شريفاً من سادات قومه انـه تنسّك وترك الشعر ولزم المسجد حتى اذا قدم تاجرعراقي بعِدل (نصف حمل) من خُمُر العراق الى المدينة باعها كلها الا السود . فشكا ذلك الى الدارمي فعمد هـذا الى ثياب نسكه فالقاها عنه وعاد الى مثل شأنه الاول وقال هذا الشعر ورفعه الى صديق له من المغنين :

قلْ للمليحة في الخمار الاسود ماذا فعلتِ بزاهد متعبد ؟
قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمدِ

فشاع هذا الغناء وقالوا : قد رجع الدارمي وتعشق صاحبة الخمار الاسود . فلم تبق مليحة في المدينة الا اشترت خماراً اسود . وباع التاجر جميع ما كان معه[٣] .

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ١ : ١١٢ — ابن عبد ربه ـ العقد ج ٣ : ٢٥٥
(٢) ابن عبد ربه — العقد ج ٣ : ٢٣٩
(٣) ابن عبد ربه — العقد ج ٣ : ٢٣٥

ويتغنى ابن سريج امام عطاء بن ابي رباح ببيتي جرير :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلّا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا ؟

فيضطرب عطاء اضطراباً شديداً وتدخله اريحية ويحلف الا يكلم احداً بقية يومه الا بهذا الشعر[١] .

ويأخذ المغني ابن جامع الابيات التالية عن احدى الجواري حتى اذا سنحت له الفرصة تغنى بها امام الرشيد اولاً وثانياً وثالثاً فكافأه عليها بثلاثة آلاف دينار :

شكونا الى احبابنا طول ليلنا فقالوا لنا : ما اقصر الليل عندنا!
وذاك لان النوم يغشى عيونهم سراعاً وما يغشى لنا النوم اعينا
اذا ما دنا الليل المضر لذي الهوى جزعنا وهم يستبشرون اذا دنا
فلو انهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا[٢]

ومن جميل الشعر الذي كان يتغنى به اسحق الموصلي وهو من صنعته :

الطلول الدوارسُ فارقتها الاوانس
اوحشت بعد اهلها فهي قفر بسابسُ .

وللشعراء المدنيين باع طويل في نظم الشعر الغنائي الرقيق . اسمع الى ابيات ابن الدمينة يقول :

واذكر ايام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية ان تصدعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك، ولكن خل عينيك تدمعا
بكتْ عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا

ولقد مر معنا ان اسحق كوفىء مكافأة كبيرة على اربعة ابيات ليست من نظمه ولا تلحينه بل هي من نظم الاحوص وتلحين معبد وهي من اشهر الابيات في النوح :

قد لعمري بتّ ليلي كأخي الداء الوجيع
ونجي الهم مني بات ادنى من ضلوعي

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ١ : ٢٥٦
(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ٦ : ٣١١

كلما ابصرت ربعـاً دارساً ، فاضت دموعي
مقفراً من سيد كان لنا غير مضيع

ومر معنا ايضاً ان بعضهم كان يحلف بالطلاق ان يسمع غنـاء المغنين ويشرب عليه وهذه بعض اصوات مخارق التي كانت تحملهم على ذلك الحلفان :

بكرت عليك فهيجت وجدا هوج الرياح واذكرت نجدا
اتحنّ من شوق اذا ذكرت نجـد وانت تركتها عمدا ؟

وآخر :

الف الظبي بعاديَ ونفى الهمّ رُقادي
وعدا الهجر على الوصل باسيافٍ حـداد
قل لمن زيّن ودي لستَ اهلاً لودادي

وتخبرنا هذه الحكايات الطريفة ان فريدة ، وكانت جارية مغنية محسنة ، اهداهـا عمرو بن بانة الى الواثق ، كثيراً ما كانت تتغنى بمجلس الواثق فتجيء بالسحر الى ان غنّته يوماً هذا الصوت :

اهابك اجلالاً وما بي قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل انها قلتك ولا ان قل منك نصيبها

فرفع رجله فضرب بها صدر فريدة ضربة تدحرجت منها من اعلى السرير الى الارض وتفتت عودها ! ذلك ان الواثق فكـّر فيما فكـّر فيه بان مغنيته قد تجلس يوماً من الايام هذا المجلس مع غيره من الخلفاء[1] ! من يدري ؟

ومما غنى به نومة الضحى وهو من الشعر الجميل :

يا مولد النار قد أعيت قوادحهُ اقبس اذا شئت من قلبي بمقياس
ما اوحش الناس في عيني واقبحهم اذا نظرت فلم ابصرك في الناس

وكان ابن المعتز يحسن النظم والتلحين ومن جميل اصواته التي تظارف فيها وملح :

زاحم كمي كمه فالتويا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاق الهوى فاكتويا يا قرة العين ويا همي ويا . . .

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٤ : ١١٥

وله في غلام نفر منه وغضب فجهد ان يترضاه فلم يكن له فيه حيلة :

بابي انت قد تماديتَ في الهجر والغضب !
واصطباري على صدودك يوماً من العجب
ليس لي ان فقدت وجهك في العيش من ارب
رحم الله من اعان على الصلح واحتسبْ !!

ومر سليمان بن داود كاتب ام جعفر وكان جالساً مع عبدالله بن موسى الهادي خادم لصالح بن الرشيد فسأله عبدالله : ما اسمك ؟ قال: اسمي لا تسلْ . فاوحى هذا الاسم لعبدالله بهذه الابيات الغنائية الجميلة .

وشادنٍ مر بنا يجرح باللحظ المقَلْ
مظلوم خصر ظالم منه اذا يمشي الكفلْ
اعتدلت قامته والطرف منه ما عدل
بدر تراه ابداً طالع سعدٍ ما افل
سألته عن اسمه فقال : اسمي لا تسل
وطلعت في وجنتيه وردتان من خجَل
فقلت ما اخطا الذي سماك بل قال المثل
لا تسألن عن شادنٍ فاق جمالاً وكَمُلْ !

وقال فيه :

عز الذي تهوى وذل صب الفؤاد مختبل
جد به الهجر وذا الهجر اذا جدّ قتل
من شادن ممنطق فاق جمالا وكمل
تناصفَ الحسن به فلا تسل عن لا تسل

ومن اصوات الغريض المستحسنة :

يا خليلي قد مللت ثوائي بالمصلى وقد سئمت البقيعا
بلغاني ديار هندٍ وسعدى وارجعاني فقد هويت الرجوعا

ومن اهزاجه :

لبيكِ يا سيدتي لبيكِ الفاً عــددا
لبيكِ من ظالمة احببتها مجتهدا
قومي الى ملعبنا نحكِ الجواري الخردا
وضع يداً فوق يدٍ نرفعُها يــداً يدا !

وايضاً :

شجاني مغاني الحي وانشقت العصا وصاح غراب البين انت مريضُ
ففاضت دموعي عند ذاك صبابة وفيهن خودٌ كالمهاة غضيض
ووليت محزون الفؤاد مروعاً كئيباً ودمعي في الرداء يفيض

ومن اصوات ابراهيم الموصلي المشهورة وهو لابي صخر الهذلي :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ولما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدني جوًى كل ليلة ويا سلوة الايام موعدك الحشرُ
ويا هجر ليلى قد بلغت بيَ المدى وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر
اما والذي ابكي واضحك والذي امات واحيا والذي امره الامر
لقد تركتني احسد الوحش ان ارى اليفين منها لا يروعها الذعر[1]

ومن اصوات ابي حشيشة التي كان يشتهيها المستعين :

وما انسَ لا انس منها الخشوع وفيض الدموع وغمز اليد
وخدي مضاف الى خدهـا قياماً الى الصبح لم نوقد !!

وآخر وكان يشتهيه المعتمد :

قلبي يحبـــك يا منى قلبي ، ويبغضُ من يحبكْ
لاكون فرداً في هواك فليت شعري كيف قلبك ؟

(١) النويري ـ نهاية الارب ج ٤ : ٣٥٢ والاصفهاني — الاغاني ج ٥ : ١٦ وابو علي القالي ـ الآمالي ج ١ : ١٥٠

وكانت جميلة اذا ما غنت بشعر عمر ابن ابي ربيعة يشق الحضور ثيابهم ويغمى عليهم :

ولقد قالت لجارات لهــــا كالمهى يلعبن في حجرتهـــا
خذن عني الظل لا يتبعني ومضت تسعى الى قبتها
لم تعلّق رجلا فيما مضى طفلة غيداء في حلّتها
لم يطش قط لها سهم ومن ترمـه لا ينج من رميتها

ومن اصوات بذل وكانت تغنيه للمأمون :

الا لا ارى شيئاً الذ من الوعد ومن املي فيه وان كان لا يجدي
ومن غفلة الواشي اذا ما اتيتها ومن زورتي ابياتها خالياً وحدي
ومن ضجة في الملتقى ثم سكتة وكلتاهما عندي الذ من الخلد

وقد مرت معنا بعض ابيات من هذه القصيدة التي نظمت في دنانير جارية البرامكة :

هذي دنانير تنساني واذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها ؟
اعوذ بالله من هجران جارية اصبحت من حبها اهذي بذكراها
قدا كمل الحسن في تركيب صورتها فارتجّ اسفلها واهتز اعلاها
قامت لتمشي فليت الله صوّرني ذاك التراب الذي مسته رجلاها
والله والله لو كانت اذا برزت نفس المتيم في كفيه القاها ! !

وهناك الكثير من القصائد الحبية الرقيقة لشعراء العرب الغزلين كعمر وجميل وابن ذريح وعروة والمجنون وكلها مادّة جميلة لهذا القصص .

فوائد القصص الغنائي

ولا بد من القول ، وقد اشرفنا على الانتهاء من البحث في هذه الحكايات الغنائية ، ان فوائدها عديدة تقسم الى انواع :

١ ــ **الفائدة التاريخية** : اننا مجبرون على قبول الكثير من هذه الحكايات كاصل من اصول التاريخ نستطيع بواسطته ان نؤرخ حياة المغنين والمغنيات وندرس علاقتهم بالكثيرين من ابناء عصرهم من امراء وخلفاء وشعراء وملوك .

٢ ـ **الفائدة الاجتماعية** : لقد رأينا ان الحياة العباسية المترفة بما فيها من مجون وفسق وعربدة ، قد ارتسمت بارزة في هذه الحكايات الكثيرة التي تعج بالنوادر عن الجواري الحسان ، وتطفح بالروايات عن المغنين واجتماعاتهم بمن كانوا يشجعونهم من ملوك وخلفاء وما كان يجري في تلك الاجتماعات من شرب ومجون وخلاعة . زد على ذلك مـا تقرؤه بين السطور عن عادات القوم في طعامهم وشرابهم وزواجهم الى مـا هنالك من امور كثيرة تؤلف للمؤرخ صورة دقيقة عن المجتمع العباسي .

٣ ـ **الفائدة الادبية الفنية** ليس لهذه الحكايات قيمة قصصية فنية بما لهـذه الكلمة من معنى فني حديث . فالحبكة القصصية التي تملك على قارىء القصة انفاسه لا اثر لها في هذه الحكايات ولا ضير عليها من ذلك وهي انما وضعت ، كما ذكرنا في بدء هـذا البحث ، لسرد خبر من الاخبار او رواية حادث من الحوادث . على ان قيمتها الادبية قائمة في لغتها المشرقة وبيانها الناصع وبلاغتها العربية . والقصص الاخباري يشترك في هذه الصفات في جميع الوانه وانواعه . ولهذه الحكايات فائدة ادبية اخرى لا تقل اهمية عما ذكرناه . فلقد مرت بنا عشرات الابيات من الشعر العربي الرقيق لم تكن لتوجد لولا وجود المغنين . وهي قصائد يحق للادب العربي ان يفخر بها .

واخيراً ارى في هذه الحكايات مورداً عذباً ، ومنهلاً طيباً لادباء العرب المحدثين يستلهمونها حكايات جديدة ومواضيع طريفة بل آثاراً ادبية خالدة .

الفصل الثاني

القَصص البطولي

١ – نشوءُهُ

٢ – ملاحم العالم الكبرى

٣ – ما هو القصص البطولي
- ١ – تسميته
- ٢ – مادته

٤ – سيرة عنترة
- ١ – شهرتها
- ٢ – ما هي ؟
- ٣ – مؤلفها
- ٤ – طبعاتها وترجماتها
- ٥ – اقسامها الرئيسية
- ٦ – شخصاتها
  - ا – عنترة
  - ب – عبلة
  - ج – شيبوب
- ٧ – الروح الاسلامي فيها
- ٨ – منزلتها الادبية
- ٩ – إلياذة العرب .

نشوء القصص البطولي

لكل امة عريقة في المجد والمدنية تاريخ تستوحيه، وماضٍ تتطلع اليـه ، وابطال تنسج حول اسمائهم هالة من الاحترام والقداسة ، تخلدهم في بطون الكتب وعلى الواح القلوب وتمجدهم بما تصوغه حولهم من حكايات اسطورية جميلة تظهر عبقريتهم الحربيـة وشجاعتهم النادرة مشيدة بما يتحلون به من سامي الاخلاق ورفيع السجايا .

وليس لهذا النوع القصصي البطولي من تاريخ معين يرجع اليه في نشوئه وتكوينه فلقد نشأ مع الانسان الاول. ولقد حيكت حول الامم القديمة، تلك الامم التي تحدثت عنها التوراة ، عشرات الحكايات الاسطورية. وتناقلتها الالسن جيلاً بعد جيل. وفيها الغريب وفيها الطريف ، وفيها الحقيقة ممزوجة بالوهم والخيال .

ورددت الاجيال صدى هذه الحكايات الوهمية انغامـــاً حلوة ، تارة على شبابات الرعيان يرحون في رؤوس الجبال الشاهقة وبين بطون الاودية الممرعة ، وتارة على انغام ناي عتيق لبدوي فنان، يرسل مع نغماته الحزينة انات نفسه الملتاعة وقلبه الملوع .

وخطت البشرية خطوة جديدة نحو العلم والنور فاذا بالرواة ، رواة العلم والادب والدين في الامم يتناقلون هذه الاخبار ويقصّونها حكايات طريفة وروايات منمقة على جمهور من الناس كبير ، يلتف حولهم متلقفاً من شفاههم ، بشغف وانتباه، العبارة تلو العبارة ، والكلمة تلو الكلمة .

وكان المسرح ، او قل ما سمي بهذا الاسم بعد مئات السنين . فاذا به اداة صالحة لنشر هـذا القصص في جمهور النـاس واذا بالممثلين ، بما وهبوا من مقدرة في تصريف الكلام وزلاقـــة في اللسان ، وقوة في التعبير والتأثير ، يحملون الرسالة عن الرواة ويؤدونها على وجهها الكامل لجمهور المتفرجين .

وتتفاعل عناصر الامة وتتعاون بعضها مع بعض فتخلق الشاعر الموهوب والفنان العبقري فيربط بخيطه السحري ما تشتت من هذه الروايات الكثيرة وينظمهـــا عقداً لؤلؤياً وضّاء ويسكب عليها شيئاً من فنه وسحره وروحه ، فاذا بها ملحمة من ملاحم العالم الخالدة ، تتغنى بمآثر الامة وامجادها ، وتستعرض تاريخها وعظمتها في خيال مبدع سام ولغة انيقة مشرقة .

تلك كانت طريق هوميروس في الالياذة والاوذيسة وفرجيــل في الانياذة ، والفردوسي في الشاهنامه .

ملاحم العالم الكبرى

لجميع امم العالم التي اثرت في مجرى التاريخ ملاحم معروفة يتغنى بها ابناء تلك الامم مباهين ، مفاخرين .

فللهنود المهابهارتا التي يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر او السادس عشر قبل الميلاد وقد ترجمت الى اكثر من لغة اجنبية .

ولليونان الالياذة والاوذيسة (حوالى ٨٥٠قبل الميلاد) واثرهما في الادب العالمي والفكر الحديث اشهر من ان نشير اليه بكلمة موجزة هنا .

وللرومان الانياذة لفرجيليوس (حوالى ١٩ ق. م) وقد استقى منهـا دانتي في الكوميديا الالهية .

وللفرنسيين اغنية رولان (القرن الحادي عشر[١] للميلاد). وتتشابه في بعض تفاصيلها بسيرة عنتر كما سنرى . وهي صلة وصل بين الادب الملحمي القديم والملاحم الحديثة .

وللطليان الكوميديا الالهية لدانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١) وهي اكبر اثر ادبي ظهر في القرون الوسطى. ولقد استوحى الطليان اغنية رولان فكان لهم ملاحم رومانطيقية كثيرة منها :

١ – مورغانتِ ماغيور ظهرت سنة ١٤٨١ وهي للوكي بولسي

Luigi Pulci — Marganti Maggiore.

٢ – اورلاندو الخالد ظهرت سنة ١٤٨٦ وهي لِ م. م. بواردو

M. M. Boiardo — Orlando Immamorato.

٣ – مامبريانو سنة ١٤٩٧ تأليف فرنسيسكو بالو

Francesco Bello — Mambriano.

٤ – اورلاندو الغاضب للشاعر اريستو

Ariosto — Orlando Furioso.

---

(١) يقول بعضهم انها الفت سنة ١١٠٠ م والبعض الآخر سنة ١٠٨٠ وآخرون سنة ١١٢٥ م .
راجع مقدمة كتاب Chanson de Roland — Joseph Bédier Paris 1937.

وهو من شعراء النهضة المعروفين وملحمته من اشهر ملاحم المتأخرين ظهرت في سنة ١٥١٦

٥ – ملحمة اورشليم المخلصة لتاسّو

Torquata Tasso — Jérusalem délivré.

ويعدها بعضهم افخم ملاحم الايطاليين على الاطلاق .

وللاسبان السِّيد وهي في مقدمة ملاحم القرون الوسطى كتبت بين سنة ١١١٥ و١١٧٥ . ولهم ايضاً في الادب الحديث (الاروكانا) (١٥٦٩ - ١٥٩٠) للشاعر زونيجا

Zuniga — Arancana.

وهي اول عمل ادبي ذي قيمة كما يلاحظ بعض النقاد .

وللانكليز (الفردوس المفقود) للشاعر ملتون المتوفى سنة ١٦٧٤م وهي ملحمة دينية تصف تكوين الخليقة توصل ملتون ان يضاهي بها هوميروس وفرجليوس . وللالمان هيلوبراند Hildebrand ولهم (انشودة الظلام) Niebelungen Lied وقد جمع اشعارها شاعر جرماني مجهول في القرن الثاني عشر . وكانت موضوعاً خصباً لخيال الموسيقيين الالمان فاستوحوها موضوعات موسيقية هامة وفاجنر هو في مقدمة هؤلاء الفنانين .

وللفرس الشاهنامة للفردوسي وهي نشيد القوم المفضل كما مر معنا .

ونلاحظ ان الملاحم تقسم الى انواع منها القديمة الكلاسيكية ومنها الحديثة الرومانطيقية . ومنها الشعرية وهي كثيرة ، ومنها النثرية وعددها ضئيل جداً مثل :

دون كيخوت لسرفانتي الاسباني (+ سنة ١٦١٦)

والديكاميرون او الايام العشرة لبوكاتشيو الايطالي (+ سنة ١٣٧٤)

ولقد اهتم بالملاحم الكتاب الاقدمون من يونان ورومان كما انه قد ظهرت مدرسة فلسفية عُنيت بهذا النوع من الادب على رأسها : اكزنا فانوس وبارمنيدس وامباذوقليس[١] .
هذه هي اهم ملاحم العالم وهي تختلف في انواعها وقيمها الفنيّة الادبيـــة وموضوعاتها باختلاف المؤلفين والعصور والازمنة التي وضعت فيها . ولم نذكرها هنا الا لنظهر اهمية هذا اللون الادبي في العالم ونحن نعلم ان العرب لم يقصدوه بالذات ولم يخلفوا فيه آثاراً تذكر لهم كما مر معنا في مقدمة هذه الرسالة .

---

(١) تلخص هذه المعلومات عن دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة Epic

القصص البطولي

١ – تعريفه ٢ – تسميته ٣ – مادّته

تعريفه : فماذا عنينا اذاً بالقصص البطولي العربي؟ وما هي مخلفات العرب في هذا الفن الادبي ؟ وهل تستدعي الاهتمام والانتباه والى اي حد ؟

ان معظم ما وصلنا من هذه الحكايات البطولية قد دون حوالي اواخر العصر العباسي الثالث وهي مجهولة المؤلف ، ضعيفة الشخصية ، هزيلة اللغة والاسلوب ، دونت لارضاء الطبقة العامة من الجمهور ليس لها لون ادبي فني ولا رونق . وهي ، وان تكن تصور المجتمع العربي من نواح عديدة في اعصره القديمة ، فالركاكة والاسفاف ، وما فيها من خلط تاريخي في سرد الحوادث والوقائع ، يحملنا على القول انهـــا وضعت للتسلية في الدرجة الاولى .

اما لماذا اطلقنا عليها اسم القصص البطولي فلأنها تدور في مواضيعهـــا المتعددة ورواياتها الكثيرة حول بطل او ابطال معروفين من ابطال العرب، كما انها تصف ايام العرب ووقائعهم المشهورة، معددة الشخصيات الكثيرة التي اشتهرت في هذه الحروب.

هذا ما حملنا على تسميتها بالقصص البطولي. فهي وان لم تبلغ درجة سامية من فن الملحمة وآدابها كأكثر الملاحم التي تقدم ذكرها ، فهي تقوم ، مثل تلك الملاحم ، على تمجيد البطولة والتغني بذكر الوقائع وصفات الرجولة والشجاعة . ومما لا شك فيه ان تلك الحوادث المتشابكة وتلك الوقائع التي تؤلف موضوع هذه الحكايات البطولية ، لو أتيح لها شاعر عربي مرهف الشعور رقيق الاحساس عميق الخيال او كاتب موهوب يعرف كيف يصل بين اجزائها المتقطعة ساكباً فيها روحاً من روحه ونغماً من انغامه لكان للعرب ملاحم لا تقل شأناً وخلوداً عن الملاحم المذكورة .

ما هي هذه الحكايات ؟

والى القارىء بعض هذه الحكايات التي تدخل في هذا الباب . وسنذكرها واحدة واحدة دون ان نقف عندها طويلًا لسببين :

اولاً : ان بعض هذه الحكايات ليس مطبوعاً كما سنرى . وبعض المطبوع منهـا

غير متيسر وجوده في البلدان العربية .

ثانياً : ان هذه الحكايات تكاد تكون في مجموعها نسخة واحدة بعضها عن بعض، في الموضوع والاسلوب .

على اننا خصصنا عنترة بدراسة خاصة لانها تمثل ، في عرفنا ، القصص البطولي اتم تمثيل . فهي اكمل مثال وصلنا من هذا النوع الادبي ويعدها بعض النقاد للعرب بمثابة الالياذة لليونان[١] .

اما الحكايات البطولية التي اشرنا اليها فهذا بعضها :

١ ــ قصة شيبان مع كسرى انوشروان . مطبوعة في بمباي . لم نستطع ان نحصل على نسخة منها . وصفها زيدان في الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية[٢] فقال ما فحواه: انها قصة تاريخية قريبة من الرواية الخيالية لان مؤلفها توسع بحوادثها التاريخية بتصرف . وتدور هذه القصة على حروب شيبان و كسرى انوشروان وسببها . وهي نثرية ويتخلل حوادثها قصائد يظهر عليها انها مصطنعة حديثاً فضلاً عن بعض القصائد الحقيقية التي نظمها ابطال القصة . وليس لهذه القصة مؤلف معروف كاكثر هذه الحكايات انما هي مروية عن بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي .

٢ ــ قصة بكر وتغلب

مطبوعة في بمباي ايضاً سنة ١٣٠٥هـ في ١٢٠ صفحة لم نحصل عليها فنعطي فيها رأياً شخصياً وهي قصة تاريخية اكثر منها رواية خيالية. تنسب روايتها لمحمد بن اسحق، صاحب السيرة النبوية . ذكر فيها اخبار كليب وجساس وضمنها قصائد حماسية اراد بها اظهار شهامة العرب وفروسيتهم وخاصة ربيعة .

٣ ــ قصة البراق لعمر بن شبة + سنة ٢٦٢ هـ

وهي قصة تاريخية موجودة ضمن مجموعة خطية في المكتبة الخديوية في مصر اسمها (الجمهرة) . والغريب ان ابن النديم في ترجمته لابن شبة ذكر له اكثر من عشرين كتاباً

---

(١) زيدان — الهلال مج ٥ : ٧٣٠ والزيات — تاريخ الادب العربي ص : ٢٤٩ و Huart في كتابه : Littérature Arabe ص: ٣٦٧

(٢) زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص : ٢٩٤

ولم يذكر بينها اسم الجمهرة[1] على ان زيدان وقف على هـذا المخطوط وهو يشتمل على اخبار العرب العرباء وشيء من ايامهم وحروبهم قبل الاسلام مع الفرس والروم واليمن اما البرّاق فهو بطل هذه القصة ، وهو شاعر قديم من ربيعة من اقرباء المهلهل وكليب. وليلى بنت لكيز هي ابنة عم البرّاق ولها خبر معـه تداولته الالسن والرواة وتوسعوا فيه حتى اصبح مجموعة اخبار عن وقائع حربيـة ضمنها ابن شبة كتاب الجمهرة في خمس قصص متسلسلة :

اولاً : الحرب بين ربيعة وطي ثم بين ربيعة وطي وقضاعة ودخل البرّاق على رأس ربيعة وجرت بين الطائفتين ثماني وقائع .

ثانياً : قصة قطيعة مضر وربيعة .

ثالثاً : قصة سبي ليلى بنت لكيز من وائل الى بلاد العجم والحروب التي اثيرت بين العرب والعجم والروم بسبب ذلك السبي . والبطل هو دائماً البرّاق .

رابعاً : قصة الحرب او الحروب بين وائل واليمنيين لقتل كليب احد الاسرى وفي هذه القصة يدخل كليب والمهلهل .

خامساً : قصة حرب البسوس .

وهي قصة قائمة بنفسها، حوادثها عنترية تكثر فيها الحماسات والمبارزات حتى يخيل للقارىء انه يطالع عنترة. هذا ما يقوله زيدان عن هذه القصة التاريخية[2] ثم يضيف الى ذلك ان هذه القصة لو دونت في العصر الذي دونت فيه سيرة عنترة لصارت مثلها . ولكنها دونت قبل عنترة بقرن وبعض القرن . على ان لغة (البرّاق) اصح واقرب الى صدر الاسلام واقل مبالغة من لغة عنترة .

٤ ــ قصة سيف بن ذي يزن :

يرجع تاريخها الى اواخر القرن الرابع عشر الميلادي . وهي متأثرة ، الى حـد ، بحكايات الف ليلة وليلة. تدور حوادثها في مصر القاهرة وهي حوادث تاريخية حربية جرت بين المسلمين والاحباش الوثنيين . وفيهـا كثير من الحوادث الخرافية ابطالها الجن والعفاريت والارواح الساحرة .

---

(١) ابن النديم ــ الفهرست ص : ١١٢

(٢) زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ : ٢٩٣

موضوعها : سيف بن ذي يزن هو احـد ملوك اليمن ولد من ام جارية كانت قد سممت زوجها قبل ولادة سيف. فلما ولد سيف في الصحراء اخذت تغذيه ظبية بطريقة عجيبة. ويعثر عليه الصيادون فيقتادونه الى بلاد الحبشة حيث يشب هناك بطلاً صنديداً ويلمع اسمه في الحروب الكثيرة والمعامع الحامية التي تدور رحاهـــا تارة بين سيف والمختطف ، الملك الكافر ، وتارة بينـه وبين سعدون للحصول على كتاب (النيل) الذي وضعوه مهراً للزواج بشامة . وبعد حوادث عديدة ومجازفات عجيبة تلعب فيها الجن والسحرة دوراً كبيراً يعود سيف الى بلاده متعباً « بعد ان احيا الارض بالايمان وحظي من الله بالثواب والاحسان . . ويعتزل الناس في جبل خال تاركاً الحكم لولده مصر[١] » .

يقول بارت[٢] : « ان هذه القصة تعطينا صورة صادقة عن عقلية الشعب المسلم في مصر في اواخر القرون المظلمة وتؤلف ، في الوقت نفسه مصدراً قيماً لتاريخ الاسلام بمعناه الصحيح[٢] . »

ويدعي كامل الكيلاني في قصته حي بن يقظان[٣] « ان صاحب قصة سيف بن ذي يزن اقتبس فكرة ارضاع الظبية لسيف بطل قصته عن حي بن يقظان ، ثم ارتقى من الظبية الى جنيّة تعطف عليه وترضعه . »

ويذكر المؤرخ الفرنسي هيار في كتابه تاريخ الادب العربي[٤] ترجمة فرنسية لهذه السيرة بقلم علي بك ظهرت في القسطنطينية سنة ١٨٤٧م باسم (السلطان سيف ذو يزن)

٥ ــ سيرة بني هلال

العنصر التاريخي في القصة

بنو هلال قبيلة عربية عرفت في الجاهلية بتقديس الكعبة. وعاشوا في العصر العباسي وهمهم النهب والسلب. فجرت بينهم وبين الفاطميين حروب كثيرة حملتهم على الرحيل الى بلاد المغرب .

---

(١) سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن — مج ٤ : ١٢٠٨

(٢) Encyclopedy of Islam Vol : IV pp. 72.

(٣) كامل الكيلاني — حي بن يقظان ـ مطبعة المعارف مصر سنة ١٩٣٥ ص : ٨٢

(٤) Huart — Littérature Arabe p: 401.

هذا هو العنصر التاريخي في سيرة بني هلال . وجـاء القصاص والشعراء والرواة فحاكوا حول هذه الحروب الاساطير الكثيرة واضفوا عليها شيئاً من خيالهم وقبساً من روحهم فجاءت اداة صالحة، خصبة لحكايات بطولية حبية او بالاحرى لملحمة عربية تكاد تكون فريدة في الادب العربي .

أقسام السيرة وموضوعها

وصلت الينا سيرة بني هلال في طبعتين منقحتين مختلفتين .

١) السيرة الشامية

٢) السيرة الحجازية .

وهي تقسم الى ثلاث مراحل. في المرحلة الاولى تاريخ عام ووصف شامل لحياة بني هلال في بلاد السرو وعباده[1] حيث يولد للملك المنذر ابنان هما جابر وجُبير جـــدا الهلاليين .

المرحلة الثانية : حكاية بني هلال وهم يرحلون الى بلاد نجد لجوع اصابهم واستقبال الامير غانم وابنه دياب لهم استقبالا حسناً .

المرحلة الثالثة : تغريبة بني هلال او رحلة بني هلال الى بـلاد المغرب ، ووصف حروبهم مع الزناتي خليفة سلطان تونس سنة ٤٠٠ﻫ، ١٠٦٨م . وتتشابك في هـذا القسم الحوادث بعضها في بعض ، وتكثر الاسماء ، اسماء القبائل المتحاربة ، واسمـاء الابطال المتحاربين ، وتختلط الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة ، وتقوم الحروب في سبيل الاستيلاء على العروش السبعة والاربعة عشر قصراً في بلاد المغرب . مما يُثير في نفس القارىء حب الاستطلاع والتشوق لمتابعة قراءة الكتاب .

مصادر السيرة

لا بد لنا ، ونحن ندرس سيرة بني هلال، من الاشارة الى المصادر القديمة التي استند عليها جامع هذه الحكايات او جامعوها ، وذكر كلمة عن العلماء الغربيين والشرقيين

---

(١) السرا او سرو مدينة باذربيجان وهي بين اردبيل وتبريز خرّبها التتر سنة ٦١٧ ﻫ — راجع عنها معجم البلدان مج ٣ : ٦٤

الذين درسوا هذه الحكايات دراسة علمية ادبية فادوا للادب العربي خدمة تذكر لهم ورفعوا قيمة هذا الادب الشعبي في عيون ابناء الغرب والشرق .

قلنا ان مرور بني هلال في افريقيا وحروبهم مع الفاطميين في القرن الحادي عشر كان حادثاً تاريخياً له خطره وله اثره في نفوس الشعراء والقصاص والرواة في ذلك الزمن فاستغلوه استغلالا ادبياً فنياً ونظموا فيه القصائد ورووا عنه الحكايات . ولقد حفظ ابن خلدون بعض هذه الحكايات وشيئاً من القصائد التي استندت عليها السيرة فكان ابن خلدون اقدم مصدر استند عليه جامعو هذه الحكايات واستقوا منه[١] .

اما ابن الاثير (+ ٦٣٠ ﻫ) وغيره من المؤرخين العرب فلم يذكروا عن بني هلال سوى تاريخهم وعلاقتهم بغيرهم من الشعوب التي حاربوها[١] ولعل المستشرقين هم اول الذين اثاروا بحثاً علمياً في مثل هذه الحكايات كما تقدم فلقد اصدر المستشرق الورد Ahlwardt كتالوج المخطوطات العربية في مكتبة برلين وذلك سنة ١٨٩٦ م يلخص فيه كثيراً من الحكايات العربية ، نحو ١٧٣ مخطوطة من رقم ٩١٨٨-٩٣٦١، ومنها سيرة بني هلال وهي تشغل من الكتاب محلاً كبيراً[٢] .

وكتب المستشرق هارتمن سنة ١٨٩٨ م مقالا باللغة الالمانية بعنوان : (حكايات بني هلال) اشاد فيه بقيمة هذا الادب الشعبي ومادته السخية ودرس المصادر الاساسية التي استوحيت منها هذه الحكايات « البطولية الحية[٣] » .

ولقد سبق هذين المستشرقين الاستاذ Basset ببحثه القيم بعنوان :

Un Episode d'une Chanson de Geste arabe. وقد صدر سنة ١٨٨٥م والذي يقول فيه هوار صاحب كتاب الادب العربي ان كتاب Basset ذو قيمة من حيث المصادر .

زد على ذلك ان Basset هو اول من عبّد الطريق لدراسة هذه الحكايات الشعبية عن بني هلال .

وهناك الفرد بل Bel المستشرق الفرنسي وقد كتب مقالا مطولا قيماً بعنوان

---

(١) Huart ص : 398

(٢) Huart — Littérature Arabe Paris 1902 p: 398.

(٣) Journal Asiatique, 9me série p: 322.

«الجازعة» Djazya استطعنا ان نطلع عليه في المجلة الاسيوية[١] وان تقتبس منه معلومات كثيرة عن هذه السيرة .

ويجد القارىء جدولاً مفصلاً بكل هذه المصادر التي ذكرناها وبكثير غيرها في كتاب Bibliographie des Ouvrages Arabes ببلوغرافيا المؤلفات العربية لمؤلفه فيكتور شوفان[٢] كما انه يعدد طبعاتها الكثيرة المختلفة مع تواريخها .

سيرة بني هلال والشاهنامة

يرى المستشرق هيوار[٣] تشابهاً في بعض مشاهد الشاهنامة وسيرة بني هلال وذلك عندما يلتقي ابو زيد الهلالي بالامير رزق ويصوب اليه رمحه قاصداً قتله وكل منهما يجهل الآخر حتى تأتي ام ابي زيد وتشرح لابنها وخامة عمله فيما لو اقدم على قتل الامير الذي ليس هو في الحقيقة غير ابيه ! ان هذا المشهد ، في زعم هيوار ، شبيه بمشهد آخر في شاهنامة الفردوسي عندما يلتقي رستم بابنه سحراب فيقتل الاب ابنه دون ان يعرف الواحد منهما الآخر[٤] ، الا بعد ان يقع المقدر .

والذي نقوله: ان في سيرة بنى هلال وفي غيرها من هذه الحكايات البطولية كثيراً من المشاهد التي قد تتشابه ببعض المشاهد في الملاحم العالمية الكبرى ولكنها تبقى قليلة لا تخول الباحث الحق في اصدار حكم نهائي في الموضوع . على اننا نعتقد ان مثل هذا الحكم لا يحق اصداره الا بعد دراسة خاصة عميقة، ومقارنة صحيحة بين هذه الحكايات وبين الملاحم العالمية الاخرى .

ولعل المستشرق الالماني برنهارد هالر في كتابه عن سيرة عنترة في ادب المقارنة هو المستشرق الوحيد الذي وفى الموضوع حقه من الدرس . وسنعرض لكتابه في دراستنا عن سيرة عنترة[٥] .

---

(١) Journal Asiatique, 9me série XIX pps: 289 et seq.

(٢) Bibliographie des Ouvrages Arabes — Tome III p: 128 et seq.

(٣) كلمان هيوار احد المستشرقين الفرنسيين واستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الحية في باريس ومؤلف كتاب تاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ بغداد الحديث . راجع عنه زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ : ١٧٩

(٤) Cl. Huart — Littérature Arabe p: 398.

(٥) راجع في الموضوع : B. Heller — Die Bedenteng Des Arabishen, Antar Romano Für Die Nergleichend Litteraturkund.

سيرة عنترة بن شداد

---

١ – شهرتها

٢ – ما هي ؟

٣ – مؤلفها

٤ – طبعاتها وترجماتها

٥ – اقسامها الرئيسية

٦ – شخصياتها
- ا – عنترة
- ب – عبلة
- ج – شيبوب

٧ – الروح الاسلامي فيها

٨ – منزلتها الادبيه

٩ – الياذة العرب

سيرة عنترة بن شداد

شهرتها : قال اسكندر آغا ابكاريوس في كتابه « منية النفس في اشعار عنتر عبس[1] » متحدثاً عن شهرة سيرة عنترة وعن شغف الجمهور بها :

« بلغنا عن رجل من اهل حمص كان يحضر كل ليلة الى حلقة القصاص يسمع فصلاً من قصة عنترة . ففي احدى الليالي تأخر في حانوته الى ما بعد المغرب ، فحضر الى هناك بدون عشاء . وكان في تلك الليلة سياق حرب عنتر مع كسرى ، فقرأ القصاص الى ان وقع عنتر في الاسر عند الفرس ، فحبسوه ووضعوا القيد في رجله . وهناك قطع الكلام وانفضت الناس ، فدخل على الرجل امر عظيم واسودت الدنيا في عينيه وذهب الى بيته حزيناً كئيباً . فقدمت له زوجته الطعام فرفس المائدة برجله ، فتكسرت الصحون وانصب ما فيها على فرش البيت ، وشتم المرأة شتماً قبيحاً فصادمته في الكلام فضربها ضرباً شديداً ، وخرج يدور في الاسواق، وهو لا يقر له قرار. ثم غلب عليه الحال فذهب الى بيت القصاص فوجده نائماً فايقظه وقال له: قد وضعت الرجل في السجن مقيداً واتيت مستريح البال ! فارجوك ان تكمل لي هذا السياق الى ان تخرجه من السجن فانني لا اقدر ان انام ولا يطيب عيشي ما دام على هذه الحال . وانظر ما تجمعه من الجمهور في ليلتك فانا اعطيك اياه الآن . فاخذ القصاص الكتاب وقرأ له باقي السياق الى ان خرج عنترة من السجن فقال له : اقرّ الله عينيك واراح بالك . الآن طابت نفسي وزالت همومي فخذ هذه الدراهم ولك الفضل. ثم انصرف الى بيته مسروراً وطلب الطعام واعتذر لأمرأته بان القصاص وضع له القيد في رجل عنتر وهي جاءته بالطعام ليأكل فكيف يمكنه ان يذوق طعاماً وعنتر محبوس مقيد ؟ قال : واما الآن فقد ذهبت الى بيت القصاص وقرأ لي الحديث الى ان اخرجه من السجن والحمد لله ، قد طابت نفسي فهاتي ما عندك من الطعام واعذريني عما فرط مني . »

فهذه الحكاية ، على بساطتها وسذاجتها تبين شغف العامة من الناس بسيرة عنترة وتعلقها الشديد بجميع تفاصيلها . وسنرى ، بعد ان ندرس هذه السيرة ، بشيء من التدقيق والتفصيل ان هذا التقدير لم يقتصر على العامة بل تعداها الى الخاصة من الناس، فالى الادباء والمتأدبين فالمستشرقين . لقد اعاروا هذه السيرة اهتمامهم الشديد وكتبوا

(١) اسكندر آغا ابكاريوس — منية النفس في اشعار عنتر عبس ص : ٥ ـ ٦

عنها الفصول الضافية وعلّقوا عليها التعاليق الكثيرة حتى ان بعضهم الف فيها كتباً قائمة بذاتها . والحقيقة ان سيرة عنترة تستحق مثل هذه العناية من قبل رجال البحث والادب لانها تمثل قصص الفروسية عن العرب ، اصدق تمثيل . وهي اطول الحكايات العربية البطولية واشرفها مقصداً زد على ذلك ان بطلها هو عنترة الفارس الشاعر الذي ملأ الآفاق صيته وطبقت العالم شهرته .

لذلك وجب على دارس القصص البطولي عند العرب ان يتناول هذه السيرة فيدرسها درساً دقيقاً مقارناً ، مبيناً منزلتها القصصية الادبية بين الحكايات الشعبية العربية وبين مثيلاتها من الحكايات الغربية . ولست انكر على القارىء صعوبة هذا الدرس على من كان مثلي وفي حالتي تنقصه اكثر المصادر الاجنبية عن هذه السيرة وهي مصادر لها اهميتها ولها اعتبارها . كذلك ليس غرض رسالتي هذه البحث في نوع واحد من انواع القصص كما ذكرت سابقاً . وليست عنترة ، على منزلتها الرفيعة في القصص البطولي ، الا لوناً واحداً من هذه الالوان الادبية المتعددة . وعندي انها تستحق دراسة علمية قائمة بذاتها ليس هذا البحث الذي نقدمه للقارىء الا مدخلاً لها وتمهيداً .

ما هي سيرة عنتر ؟

هي اعظم الحكايات العربية البطولية وهي تتناول حياة العرب في العصر الجاهلي فتصورها لنا من جميع وجوهها وتطلعنا على عادات العربي في ذلك الزمن وايامه وشجاعته وكرمه وحبه ووفائه وتضحيته وحبه الضيف وحسن مراعاته الجوار وما شاكل هذه الصفات التي اشتهر بها العرب .

وهي تقوم في اساسها على ولادة عنترة ، اشهر ابطال الجاهلية واحد شعرائها المعدودين من زبيبة الجارية الحبشية السوداء وكيف ان هذا العبد الاسود ، رغم ضعة نسبه من جهة امه ، ورغم تقديس العرب الجاهليين عنصر الدم في ذلك الوقت ، استطاع ان يشق طريقه الى المجد والعظمة وان يربح رضى ابنة عمه عبلة ويتزوج منها ، متكلاً على سيفه وبطولته من ناحية وعلى فصاحته وشاعريته من ناحية اخرى . فهي في ذلك رواية حماسية غرامية ذات مغزى تظهر لنا ، ببروز وجلاء ، عمل الارادة القوية والشجاعة المندفعة ، والحب الصحيح . ان رجل القلب في سيرة عنترة استطاع ، رغم الاهانات

العديدة التي ُصبت على رأسه ، ورغم الصعوبات الخارقة التي اعترضته في حياته ، ورغم العراقيل الممكنة وغير الممكنة التي خلقها له خصومه ليوقعوه استطاع رغم كل ذلك، ان يقف صامداً امامهذه المصائب وان يتربّع، هانئاً على عرش ذهبي من المجد والسؤدد وهذا هو الغرض الاساسي المقصود من هذه الحكاية !

مؤلفها :

اختلف العلماء في اسم مؤلفها كما اختلفوا في اسم مؤلفي اكثر هـــذا النوع من القصص . وحاول الكثيرون ممن بحث في سيرة عنترة ان يستنتجوا من دراساتهم رأيا معروفاً يركنون اليه ويطمئنون فلم يستطيعوا .

هناك آراء مختلفة متعددة لا تخرج عن حيز التخمين والظن يعزو بعضها سيرة عنترة للاصمعي احد رواة القرن الثاني للهجرة (٧٣٩ م – ٨٣١) ولكن المتأكد منه ان الاصمعي ليس هو الراوية الوحيد الذي يرد اسمـه في بعض السياقات من القصة فهناك اسم ابي عبيدة وجهينة الاخبار ونجد بن هشام وكلهم من الرواة العرب المعروفين.

ويدعي بعض المؤرخين ان اسم الاصمعي موضوع للتستر وراءه[١] وهناك رأي آخر يقول ان واضع سيرة عنترة هو يوسف بن اسماعيل المصري (٩٧٥ م – ٩٩٦ م) وهو من الرجال الذين كان لهم اتصال بباب العزيز بالله (الخليفة الفاطمي في القرن الرابع للهجرة = اواخر القرن العاشر للميلاد) . قيل انه حدثت ريبة في دار الخليفة لهجت الناس بها في المنازل والاسواق حتى ساء الخليفة ذلك فاشار على الشيخ يوسف المذكور ان يطرف الناس بما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف هذا واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والاحاديث . وكان قد اخذ روايات شتى عن ابي عبيدة ونجد بن هشام وجهينة الاخبار والاصمعي وغيرهم من الرواة . فاخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فاعجبوا بها واشتغلوا عن سواها . وكان من تلطفه في التشويق ان قسّم الكتاب الى اجزاء عديدة اوصلها بعضهم الى ٧٢ جزءاً كان يقطع الكلام في كل جزء عنـد معظم الامر حتى يتطلب المطالع الجزء التالي[٢] . فيتضح من

---

(١) Huart Cl. — Littérature Arabe p: 396.

(٢) زيدان — الهلال مج ٥ : ٧٣٠

هذا الكلام ان الاصمعي لم يكن مؤلف القصة كلها لان يوسف هذا لم ينقل عنه الا بعض حوادثها اما البعض الآخر فقد نقله عن رواة آخرين غيره .

ولقد تنبه الى تعدد هذه الآراء في مؤلف سيرة عنترة بعض المستشرقين فاشار احدهم الى تعذر معرفة مؤلفها والزمن الذي ألفت فيه[١] مما حمل المستشرق هامر بيرجستال على كتابة مقال مطول في الجريدة الاسيوية يُدلي فيه برأي جديـــد في تأليف عنترة يدعي فيه ان القرن الاول الهجري قد عرف القصاص الذين استغلوا عنترة ابا الفوارس وحوادثه الخارقة ولكن سيرة عنترة لم توضع ولم تسمَّ بهذا الاسم الا في القرن السادس هجري . وضعها احد اطباء وشعراء العراق المشهورين ابو المؤيد ابن الصايغ الملقب بالعنتري[٢] . اما المصدر الذي يستند عليه هذا المستشرق فهو قول لابن ابي اصيبعه في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » جاء فيه :

« ... ان العنتري كان في اول امره يكتب احاديث عنتر العبسي فصار مشهوراً بنسبته اليه[٣] » وابن الصايغ هذا عاش في اواسط القرن السادس هجري فهو من ادباء القرن الثاني عشر ميلادي . ويفاخر كاتب المقال بانه كان اول من ادخل الى اوروبا مخطوطاً كاملاً عن سيرة عنترة وذلك لست وثلاثين سنة خلت فمن حقه ان يفاخر بانه اول من يشير الى مؤلفها الحقيقي .

والذي نراه ان هذا القول لا يختلف في اساسه من حيث تعيين مؤلف السيرة عما سبقه من الاقوال وان كان ذا نصيب اكبر من الوجاهة والتقدير. فهل من الدليل الجازم القاطع ان يقول احد المؤرخين بان ابن الصايغ ، وقد اشتهر بعلومه الطبية في القرن الثاني عشر ، كان يكتب اول امره احاديث عنترة ، حتى تنسب اليه قصة كاملة كسيرة عنترة ؟

ان الادلة الخارجية للجزم في هـــذا الامر تنقصنا فلم يبق امامنا غير تحري النص وهذا يحتاج الى دراسة عميقة لاسلوب السيرة ومقابلته باسلوب هؤلاء الرواة الذين تتكرر اسماؤهم على انهم مؤلفو القصة او مقابلته باسلوب ذاك العصر الذي كانوا يعيشون فيه .

على ان الباحث ، يستطيع ، بشيء كبير من السهولة ، ان يلاحظ ما في السيرة من

---

(١) Journal Asiatique tome V, 1838 p: 383.

(٢) Journal Asiatique tome V, 1838 p: 386.

(٣) ابن ابي اصيبعة — عيون الانباء في طبقات الاطباء سنة ١٨٨٢ مصر ج ١ : ٢٩٠

اخطاء نحوية وصرفية ، وما فيها من ضعف في اسلوبها ، يبلغ بها ، بعض الاحيان ، حد الاسفاف ، مما يحملنا على الحكم ان مثل هذا الاسلوب يختلف اختلافاً بيناً عن اسلوب الاصمعي واصحابه الرواة الآخرين .

والحقيقة التي تبدو لنا ان سيرة عنترة كاخواتها التي مر ذكرها لم يكن مؤلفها واحداً بل تداولتها عدة السن ودوّنت حوادثها عدة اقلام ودخلها من الخلط التاريخي والهفوات الكثيرة ما ينفي عنها نسبتها الى مؤلف واحد معروف .

وما قلناه في مطلع هذا الفصل من ان اكثر هذه الحكايات البطولية مجهولة المؤلف نقوله ، ولكن بشيء من الحذر عن سيرة عنترة . ذلك ان هذه السيرة، وان تداولتها ايدٍ كثيرة ولحقت بها زيادات عديدة حتى اصبحت على ما هي عليه من التضخم والاسفاف ، تبقى ذات علاقة وثيقة بيوسف بن اسماعيل وبابن الصايغ وربما بغيرهم من الرواة الذين ذكرنا اسماءهم سابقاً .

وليس من المستبعد ان يكون جميع هؤلاء المذكورين وغيرهم كثيرون ممن لم تصلنا اسماؤهم قد ساهموا في وصول هذه القصة الينا على هذه الصورة لان حوادث عنترة الشاعر البطل قد استغلها الرواة القصاص استغلالاً ادبياً عظيماً، فجاء الادباء من بعدهم يجمعون ما تشتت من هذه الحكايات ، وكان لخيال القصاص في تزويق هذه الحوادث وترتيبها وعرضها مجال فسيح فوصلت الينا وهي في حالتها الحاضرة من التشويش في التأليف وسرد الوقائع سرداً ينقصه الوحدة في التفكير والانسجام المتزن في التعبير .

والمرجح ان سيرة عنترة ليست ابعد من عصر الصليبيين ، دوّنت حوادثها في اواخر القرن الرابع هجري حوالى سنة ٣٨٠ هـ .

طبعاتها وترجماتها :

الحقيقة ان سيرة عنترة تختلف في رواياتها اختلافاً قد لا يكون جوهرياً ولكنه يجعل منها ثلاث سير بدلا من واحدة نسميها فيما يلي :

١ ــ السيرة الحجازية وهي اصول هذه الروايات .

٢ ــ السيرة الشاميّة .

٣ – السيرة العراقية وهي لا تختلف اختلافاً بيناً عن السيرة الشامية. لذلك يمكننا القول ان سيرة عنترة معروفة في سيرتين :

١ – السيرة الحجازية وهي كاملة .

٢ – السيرة الشامية وهي مختصرة وقد تكون تتشابه تشابهاً كبيراً بالسيرة العراقية كما ذكرنا[١] .

ولها طبعات عديدة نشير الى اقدمها ونحيل القارىء الى المصادر التي تعدّد تلك الطبعات :

١ – طبعت في بيروت (١٨٦٩ – ١٨٧١) في ١٥٤ كتاباً في ٩ مجلدات .

٢ – بيروت – المطبعة الادبية (١٨٨٣ – ١٨٨٥) في ١٥٥ كتاباً في ستة مجلدات وهذه هي الطبعة التي اعتمدناها في رسالتنا .

٣ – القاهرة (١٨٨٨–١٨٩٣) في ٣٢ جزءاً . وهذه الطبعة تعتمد السيرة الحجازية

٤ – وقد اخذ بطبعها سليمان الحرائري والاب بُركاد Bourgade في ذيل جريدة (برجيس باريس) سنة ١٨٦٥ و١٨٦٦ ولكن لم يظهر منها الا جزءان من اثني عشر جزءاً[٢] .

ويعدد شوفان في كتابه المذكور (مآخذ الكتب العربية) طبعاتها وترجماتها بالتفصيل الوافي فمن اراد الاطلاع عليها فليرجع اليه[٣] .

ترجماتها

لا بد من الاشارة الى العدد الكبير من المستشرقين وغيرهم من ادباء الغرب الذين تصدوا لهذه الحكايات البطولية تروى عن عنترة. فمنهم من اخذ يبحث فيها بحثاً ادبياً تحليلياً مقارناً ومنهم من دفعه اعجابه بها الى ترجمتها او ترجمة قسم منها . نذكر من المستشرقين الفرنسيين الذين عملوا على ترجمتها او ترجمة بعضها :

---

(١) M. Hartmann — The Encyclopædia of Islam Vol. I p: 362

(٢) فؤاد افرام البستاني — المشرق مج ٢٨ : ٦٤١

(٣) Chauvin — Bibliographie des Ouvrages Arabes Vol. III p: 113

١ – كارْدَنْ دي كاردون — Cardin de Cardonne

٢ – دي برسفال — Du Perceval

٣ – شربونو — Cherbonneau

٤ – دوغا — Dugat

٥ – دوفيك — Devic

وللشاعر الفرنسي المشهور الفونس دي لامارتين اعجاب خاص بسيرة عنترة فلقد اطلع عليها ، على ما يظهر ، في زيارته للشرق وخصها ببحث في كتابه القيم عن الشرق (رحلة لامارتين الى الشرق[١])

ولم يقف اعجاب لامارتين عند هذا البحث المقتضب في كتابه المذكور بل نشر بحثاً آخر في مجلة « المتمدن » Le Civilisateur سنة ١٨٥٤ بعنوان : عنتر او التمدن الريفي Antar ou la Civilisation pastorale . وقد نشر هذا البحث على حدة ثم اعاد نشره بعنوان : عنتر سنة ١٨٦٤ م. اما دوفيك الذي اشرنا اليه سابقاً فقد كتب كتاباً عن عنترة بعنوان : حوادث عنترة بن شداد طبع في باريس سنة ١٨٦٤ م .

وكان قد سبق هـذا التاريخ وترجم نحو ثلث السيرة الى اللغـة الانـكليزية تاريك هاملتون Terrik Hamilton سكرتير السفارة الانكليزية في القسطنطينية في ذلـك العهد . اما ترجمته فقد نشرت في لندن سنة ١٨٢٠ في اربعة مجلدات بعنوان :

عنترة – حكاية بدوية – Antar — A Bedween Romance

وهناك بحوث كثيرة في هذه السيرة نشرت في المجلة الاسيوية وفي غيرها من كتب الادب سنشير اليها في سياق بحثنا عنها . وعلى من يرغب في زيادة الاطلاع على ترجماتها واللغات التي ترجمت اليها ، وهي كثيرة ، واسماء الذين اهتموا بذلك ، ان يعود الى كتاب المستشرق شوفان المذكور ففيه تفصيل ما اجملناه هنا .

اقسام السيرة الرئيسية

تسهيلاً للبحث نقسم سيرة عنترة الى ثلاثة اقسام :

(١) Lamartine — Voyage en Orient Tome II p: 471 Paris 1911

اولاً : زواج عنترة من عبلة بعد مصاعب لا تحصى واهوال لا حد لها .
ثانياً : سعي عنترة المتواصل لاظهار فصاحته وشاعريته وتعليق معلقته في الكعبة
ثالثاً : رحلات عنترة خارج الجزيرة العربية وغزواته الكثيرة وموته .

موضوع السيرة :

ليس للسيرة موضوع واحد كما يظهر من اقسامها الرئيسية الثلاثة المشار اليها سابقاً ولكنها تتناول اموراً كثيرة منها ما يمت الى عنترة وسياق القصة بصلة ومنها ما لا علاقة له مطلقاً بجوهر السيرة وسيرها الفني الطبيعي . ولكن هناك حوادث بارزة في السيرة تفرض نفسها على القارىء اكثر من غيرها وهي تؤلف عناصر القصة وموضوعها الاساسي وهي :

لون عنترة ، حب عنترة ، تمجيد البطولة في سيرة عنترة ، تمجيد الحسب والنسب والافتخار بها . وسنرى بالتفصيل ان هذه العناصر الاربعة تكاد تكون كل ما في السيرة . فرواة السيرة يصورونه كثيراً ان يكون عنترة « اسود ادغم ، افطس المناخر ، واسع المحاجر ، مهدّل الاشداق ، مفلفل الشعر[1] » . في عصر كان العرب يقدسون فيه العرقية الدموية ، حتى اذا ما التقى بفرسان العرب الميامين في ساحات الوغى واحتقروه لسواد جلده ، فخر عليهم ، وهو العبد الاسود ، بقوته وجبروته فكان ذلـك ادعى لاحتقارهم واذل لرفعتهم وتكبرهم ! .

وحب عنترة ، كما سنرى ، هو عنصر جوهري من عناصر السيرة . فمن اجل هـذا الحب يعيش عنترة ، ومن اجل هذا الحب يناضل ويحارب ، ومن اجل هذا الحب يموت ميتة الابطال ! .

ويأتي في الدرجة الثالثة عنصر البطولة في السيرة . وهذا العنصر هو الذي يجعل من هذه الحكاية حكاية بطولية من الدرجة الاولى . نرى ان حوادث الرواية تجري كلها في نسق واحد وترتيب واحد ومجرى واحد هو تمجيد البطولة والمفاخرة بالفروسية الصحيحة . فعنترة تحبه الفوارس وتعجب به وهم خصومه وما ذلك الا لبطولته وعزة نفسه[2] . وهو لا يحترم هؤلاء الفرسان خصومه ويحبهم الا لانهم ابطال صناديد لذلك فهو يكرمهم في

---

(١) سيرة عنترة ج ١ : ٦
(٢) سيرة عنترة ج ٤ : ١٣٠٧

حياتهم ومماتهم ويشهد بقوتهم وبطولتهم كما يشهدون هم بدورهم بقوته وبطولته[١].
واذا ما ظفر عنترة بخصم من خصومه الابطال عفا عنه اكراماً لهذه البطولة[٢] حتى يصبح هذا العفو قاعدة مطّردة تجري عليها فرسان العرب فيقول ربيعة بن المعدم بعد ان ظفر بعمرو :

« انك اذا ظفرت بفارس في الحرب ابق عليه كما ابقيت انا عليك[٣] » .

بقي العنصر الرابع وهو عنصر الحسب والنسب والافتخار بهما. وهو لا يبدو بارزاً بروز العناصر الثلاثة الاولى ولكنه لا يقل عنها اهمية على ما يظهر لي. فالبطل مهما سما ببطولته ورجولته لا يفخر به العرب الا اذا عظم حسبه وعرف نسبه . والولد ينشأ يتيم الاب حتى اذا كبر وقف امام امه يسألها عن ابيه وهل كان كريم المحتد ؟ ومن هم آباؤه واجداده ؟ وهل يحق له الافتخار بهم والاعتزاز باعمالهم المجيدة ؟ حتى اذا عرف انه منحدر من ارومة شريفة وقبيلة عزيزة الجانب تاه عجباً وفخر نسباً وقال في سياق قسمه : « وحق كذا وكذا... وجدي المنتسب[٤] » !

ومما لا شك فيه ان في السيرة مسائل كثيرة غير هذه الامور الاربعة التي ذكرت سابقاً ولكنها مسائل تبقى ثانوية بالنسبة لسياق القصة ومجراها الطبيعي .

ان في السيرة صورة صادقة لحياة العرب في الصحراء في العصر الجاهلي فهي تصف حبهم وبغضهم وانتقامهم وحريتهم وغزواتهم وايامهم وميلهم الفطري الى انشاء الشعر وغير ذلك من الشؤون التي اثرت عن العرب الجاهليين .

وفي السيرة ايضاً كثير من الحوادث التاريخية لذلك العصر السحيق ولكنها حوادث غير موثوق بصحتها كما سنبين في مكان آخر من هذا البحث . واخيراً مهما كثرت الحوادث في سيرة عنترة ومهما كانت موضوعاتها متعددة فان العناصر الاربعة المار ذكرها تبقى مسيطرة عليها سيطرة فعالة تجعل منها وحدة مترابطة اجزاؤها ولو بعض الترابط .

---

(١) سيرة عنترة ج ٤ : ١٧٠٥
(٢) سيرة عنترة ج ٤ : ١٧١٩
(٣) سيرة عنترة ج ٤ : ١٦٨١
(٤) سيرة عنترة ج ٥ : ١٧٨٦

شخصياتها : الاخلاق والصفات

تتكاثر الشخصيات في سيرة عنترة وتتعدد بتكاثر الحوادث وتعددها . اما هـذه الحوادث فلا حصر لها ولا عد . ففي كل لحظة دسيسة تحاك ، ومفاجأة تظهر . وبمناسبة وبغير مناسبة تشن الغارات على القبائل وتلتحم الفرسان في معارك لا نهاية لها فترتمي الابطال صرعى على الارض وتتكدس الاجسام بعضها فوق بعض ! وليس في استطاعة الباحث ان يتناول جميع هذه الشخصيات بالدرس والتحليل لانها في اكثرها قد حشرت حشراً في القصة لتملأ فراغ الفصول بالحوادث وترضي ذوق العامة فليس لها اهمية اولية في السيرة . لذلك اكتفينا بعرض سريع لكل من الشخصيات التالية : عنترة ، عبلة ، شيبوب اخو عنترة ومالك ابو عبلة .

عنترة : يبدو لنا عنترة في السيرة اسطورياً في حبه وبطولته، وشاعريته وحنكته السياسية ودهائه واخلاقه الرفيعة النبيلة حتى وفي موته ايضاً . ولـكي نتحقق من هذا القول لا بد لنا من ان نتناوله من جميع هذه النواحي بشيء من التحليل مستشهدين على ذلك ، بامثلة من السيرة نفسها ولنبدأ في حبه فنقول :

حب عنترة : قلنا ان حب عنترة لعبلة ابنة عمه هو حب اعمى يكاد يكون محور القصة وجوهرها الاساسي . فجميع مآتي عنترة وجميع مساعيه السلمية تدور حول هدف أساسي واحد ولغاية واحدة هي الوصول الى الحبيبة والزواج منها ! .

وحبه هو حب عنيف ، اعمى ، عميق ، صادق، مخلص. وعنترة عاشق حزين يشجيه صوت الحمائم ويهيج اشجانه وعواطفه نسمات الريح الناعمة . وهو ، من اجل هذا الحب يتحمل كل اهانة وكل مصيبة ويلاقي مشاق كثيرة ما انزل الله بها من سلطان ! ما ذنب هذا الرجل ليقوم بمثل هذه الغزوات التي لا تنتهي ؟ ولا تقف عند حد ؟ بل ما الدافع الذي يحمله الى ان يزج بنفسه في الجبال الشاهقة والوديان السحيقة والصحاري المقفرة معرضاً نفسه لانياب الوحوش المفترسة واظافرها الحادة ؟

لماذا يتحمل هذه المجازفات الخطرة ؟ وهذه الرحلات الشاقة الطويلة ؟ وفي سبيل مَن مِن الناس يغزو القبائل والفرسان والامراء والسلاطين والملوك والصعاليك ، انه يفعل كل ذلك في سبيل عبلة، تلك الحبيبة التي اعماه حبها وكبله هيامه لها. انه لا يرضي

لها مهراً الا الف ناقة من النوق العصافير ، وليس من طريقة لايجاد هذه النوق الا ان يغزو النعمان المنذر[١] .

واذا كان هذا الحب قد اعمى عنتر عن ان يرى المخاطر تحف به ، وان يحس بها ، فقد اعماه ايضاً عن ان يرى جمالاً غير جمال عبلة. فالجواري التي قدمها قيصر الى كسرى وهي اجمل من الكواكب ، هي ملك يتصرف بها كما يشاء لان كسرى قدمها له هدية ولكن عنترة لا يأبه لها لان حب عبلة قد شغله عن كل حب سواه[٢] .

لقد امتلأ بهذا الحب كل ما في عنترة من عواطف واحساس حتى اذا ما جاءه اخوه شيبوب يخبره بزواج عبلة ، مكرهة ، من بسطام بن قيس بن مسعود احس بطلنا « ان روحه قد انسكت من جسده من شدة الغرام[٣] » .

وحب عنترة لا يعرف النعمة ولا الطمأنينة ولا لذة الوصل والتقرب من الحبيب لذلك فهو حب ملتاع ، جريح ، صادر من اعماق القلب :

بين العقيق وبين برقة ثهمدِ   طلل لعبلة مستهل المعهدِ
كيف السلو وما سمعت حمائماً   يندبن الا كنت اول منشد
وسألت طير الدوح كم مثلي شجا   بانينه وحنينه المترددِ
ناديته ومدامعي منهلة   اين الخلي من الشجي المكمد ؟
قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى   واطول شوق المستهام الى غد !
وتخال انفاسي اذا رددتها   بين الطلول محت نقوش المبرد !

وليت هذا الحب الجريح يقف به عند هذا الحد ! بل ليته يُبقي له جلال البطولة وروعة الفروسية ! ان عنترة البطل لا يتردد عن البكاء عندما يعلم ان عبلة اسيرة عند الاعداء[٤] :

اذا كان دمعي شاهدي كيف اجحد   ونارُ اشتياقي في الحشا تتوقدُ ؟
الى الله اشكو ظلم عمي وجوره   اذا لم اجد خلاً على الظلم يُسعد

---

(١) سيرة عنترة — ج ١ : ١٢٣
(٢) سيرة عنترة — ج ١ : ١٣٦
(٣) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٤٧
(٤) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٣٦

خليليّ امسى حب عبلة قاتلي وبأسي شديد والحسام مهندُ
حرام علي النوم يا ابنة مالكٍ ومن فرشه نار الغضا كيف يرقد ؟
سأندب حتى يعلم الطير انني حزين ويرثي لي الحمام المغردُ
وألثم ارضاً انتِ فيهـا مقيمة لعلّ لهيباً حل في القلب يبرد[1] !

ويبدو لنا عنترة، وقد الف السقام، وتحمل العذاب الواناً واصنافاً في حبه، عاشقاً حزيناً مغموماً ، ناقماً على الدنيا باسرها لان عبلة بعيدة عنه :

اذا ريحُ الصّبا هبّتْ اصيلا شفت بهبوبها قلباً عليلا
وجاءتني تخبّر ان قومي بمن اهواه قد جدوا الرحيلا
وما عنوا[2] على من خلّفوه بوادي الرمل منطرحاً جديلا
يحن صبابة ويهيم شوقاً اليهم كلما ساقوا الحمولا

. . .

الا يا عبلَ ان خانوا عهودي وكان ابوك لا يرعى الجميلا
حملت الضيم والهجران جهدي على رغمي وخالفت العذولا
الفت السقم حتى صار جسمي اذا فقد الضنى امسى عليلا
وقد غنى على الاغصان طير بصوت حنينه يشفي الغليلا
بكى فاعرته اجفان عيني وناح فزاد اعوالي عويلا[3]

فانت ترى ان حالة عنترة الحبية هي حالة يرثى لها . لقد اصبح، وهو البطل المغوار والفارس الجبار ، ريشة في مهاب الريح لا يدري اين ولا كيف يستقر به الحال :

أقاتلُ كل جبارٍ عنيد ويقتلني الفراق بلا قتال[4]

ومن الغريب حقاً ان يثير حبه لعبلة نقمة الناس اجمعين عليه . فعمه مالك يقيم في وجهه العقبات اشكالا والواناً. وابن عمه عمرو لا يترك سانحة تسنح دون ان يدس عليه. وعمارة بن زياد « معدن الخبث والفساد » مع اخيه الربيع يترقبان الفرص للايقاع به لانه يتجاسر على حب عبلة وهو العبد الاسود ذو الحسب الوضيع والنسب الخسيس ! .

---

(١) سيره عنترة ج ١ : ٢٤٣
(٢) كذا في السيرة والاصح : حنّوا
(٣) سيرة عنترة ج ١ : ٣٠٦ و٣٠٧
(٤) سيرة عنترة ج ١ : ٤٢١

ومن العجب حقاً بعد ان ظهر لنا عنترة عاشقاً متيّماً بحب عبلة ، ان يعود مؤلفو السيرة فيظهروه لنا في اكثر من مكان من القصة انه متزوج بغير عبلة وان نساءه كثيرات منهن مريم اخت القيصر[١] كذلك نرى عنترة عندما كان يغضب من عبلة لامر من الامور ، كان يهددها بالزواج من ضرّة لها تكيدها وتنغص عليها عيشها ولقد تزوج من اكثر من جارية ، على قول الرواة ، وهجا عبلة بابيات منها :

واذا الحبيب جفا ومل فخله   واجفُ وزده من الملالة والقلى
ما ضاقت الدنيا علي باسرها   حتى اذل لمن تريـد تذللا[٢]

والحقيقة ان هذه الامور كلها من مبتدعات القصاصين وخيالهم الخصب وهي من الزيادات والتزاويق التي انما ارادوا ان يستعينوا بها لاثارة فضول القارىء والتأثير عليه بمختلف الطرق وحشد الحوادث . ولكن اثر هذه الحوادث وهـذه المفاجآت ضعيف هزيل فهي لا تثير النفس ولا تهيج العاطفة لان اداءها ضعيف ونتائجها غير خطرة .

بطولة عنترة

ليست البطولة ، في عرف بعض الناس ، وسيلة بل هي غاية في نفسها او نتيجة[٣]، ويضيف بارون[٤] الى هذا القول : « ان هذه النتيجة هي التي دفعت بالاسلام والحراب الاسلامية الى ما وراء جبال البيرانا حتى حدود نهر الرين[٥] » .

والذي يبدو لنـا ان جامعي السيرة ارادوا ان يجعلوا من عنترة بطلاً من ابطال الاسلام دفعه الى المجازفات التي قام بها ما دفع الابطال المسلمين من بعده : جهاد ديني مستمر وهدف سام مقدس . فصوروا لنا رجولته وبطولته صوراً خارقة تفوق حـد التصور « فهو يقابل خمسين فارساً فيقتلهم واحداً واحداً » ج ١ : ٢١

« وهو بطل تخافه الجن وتخشاه الغول » ج ١ : ٥٥ يتقدم الفرسان « كأنه مارد

---

(١) سيرة عنترة ج ٦ : ٢٥٥١

(٢) سيرة عنترة ج ٤ : ١٥١٩

(٣) M. J. J. Ampère — La Revue des deux Mondes, Fév. 1838.

(٤) Perron كان مدير المدرسة الطبية في سنة ١٨٣٩ وطبيب مستشفى القصر العيني في ذلك الوقت وقد كتب لصديق له في باريس في المجلة الاسيوية عدد دسمبر سنـة ١٨٤٦ مقالا عن عنترة وعن ربيعة بن المقدم يبين فيه ان عنترة الاسطورة يختلف كثيراً عن عنترة التاريخ .

(٥) Journal Asiatique, — 1840 p: 513.

من مردة الجان او من عفاريت سيدنا سليمان » ٢:٤٨٧ وهذا المارد « كان يرمي اعداءه بالنبال فيشك بها مقاتل الرجال حتى اخذوا يتعوذون منه وظنوا انه شيطان في صورة انسان » ١ : ٦٦ .

حتى الاعاجم يقولون عنه : « لا نعلم هل هو من الجن او من الابالس ؟ » ١:١٢٨ « وكان اذا طعن ضلعاً دقّه وان ضرب رأساً شقّه » ١ : ١٢٠

وهو يقاتل البطريق ويطلق عليه السهم فيطلع من ظهر وله زفير وشهيق ٢:١٣٥

اما ان يضرب عنترة بطلاً من الابطال « ضربة يطلع الرمح يلمع من قفار ظهره » فهذا اسهل الامور ١ : ٧٣ و ٧٤

مساكين اعداؤه ! « كان يضربهم فينثر رؤوسهم مثل الاكر واكفهم مثل اوراق الشجر » ١ : ١١٠ وكلهم عارف به مؤمن بجبروته حتى اذا وصفوه قالوا · « كان يلتقط الفارس منا في عرصات المجال فيضرب به الآخر فيموت الاثنان في عاجل الحال» ١ : ٣٢٤

ويهجم على حذيفة المسكين «ويضرب رأس حجرته بالسيف فيبريها كبري القلم[١]» ١ : ٣٧٧

واليك نموذجاً من معاركه التي كان يشنها كل لحظة من لحظات حياته :

« ... كانت تتطاير الجماجم وتتدحرج وتتخضب الدروع بالدماء وتشتد نار الحرب وتتأجج ، وتضطرب الابطال وتنزعج وتدور ملائكة الموت على الارواح ويطوّق عنترة الاعناق بالدماء ويقيم الحرب على قدم وساق ويظهر العجائب والاهوال . وينثر الفرسان والابطال ولا يفقد من قومه اكثر من سبعة رجال[٢] ! »

اما مفاخرته ببطولته في الحرب ومخاطبته اعداءه مشيداً بقوتـــه ورجولته فتملأ تضاعيف السيرة . فهو يقول عن نفسه في حربه ضد الاعاجم :

« انا عنتر العبسي ، فارس العرب وقد ارسلتني النار على رؤوسكم جمرة الغضب[٣]»

---

(١) سيرة عنترة — ج ١ : ٣٧٧
(٢) سيرة عنترة — ج ٢ : ٥٥٢
(٣) سيرة عنترة — ج ١ : ١٣٠

ويقول ايضاً :

والموت حقاً لو رآني لانثنى   عني مخافة سطوتي وتجبري[١] !

ويخاطب بسطام بن مسعود ، وقد طمع بعبلة ووعده بها ابوها على شرط ان يأتيه برأس عنترة ، بقوله :

ان تكن تشكو لاوجاع الهوى   فانا اشفيك من هذا الوجع
بحسام كلـــما جردتـــه   سجد الموت له ثم ركع[٢]

وهل بقي بطل من ابطال العرب لم يبارز عنترة ؟ لقــــد حشدوا له جميع صناديد الجاهلية من صخر بن عمرو بن ملك كندة الى زياد بن اكال الاكباد ، الى معاوية المعروف بقانص السباع ، الى وجه الغول ، الى ربيعة بن المقدم ، الى فهر الملقب بمرارة النسر ، الى ابي المقداد الملقب بسيف بكر ، الى الطياح ، آكل الاكباد وآفة العباد ، الى علقمة بن سيف التغلبي الملقب بقلّاع الآذان وآفة الزمان ، الى ابي براء عمرو بن مالك الملقب بملاعب الاسنة ، الى عمرو بن معدي كرب ، الى سبع بن الحارث الملقب بذي الخمار ، الى حذاوند ملك الاعاجم ، ابن الملك انوشروان ، الى الامير نازح ، الى لقيط بن زرارة ، الى كثيرين غير هؤلاء من رجال العرب الذين اشتهروا بالفروسية في العصر الجاهلي .

ومن الطبيعي ان يتغلب عنترة على جميع هؤلاء الابطال بدهاء وسرعة لا حد لها . كان يتصدى له خصمه فيقتله بضربة من سيفه «حتى اذا برز اليه ثان اسره ، وثالث قهره ورابع دمّره ، وخامس عفـّره[٣]» حتى لا يبقى من يتجاسر على الصمود امامه في الميدان .

عنترة والشعراء

ان الشعر ضرورة مكملة لبطولة عنترة لان الجاهليين لم يطيقوا ان يكون لهم ابطال من غير ان يكونوا شعراء ، والحقيقــة ان عنترة قرن الى فروسيته شاعرية لم تتوفر للكثيرين من شعراء الجاهلية . وليس لنا ان نتعرّض لهذه الشاعرية في دراستنا

---

(١) سيرة عنترة — ج ٢ : ٥٥٦
(٢) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٥٥
(٣) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤٥٧

هذه وانما غرضنا ان نستشف شيئاً عن شخصية عنترة الشعرية كما تبدو في السيرة . لقد كدسوا اسماء الشعراء الجاهليين ، بمناسبة وبغير مناسبة ، وجعلوا منهم ابطالا صناديد، وحملوهم ، بسبب وبدون سبب ، على مقارعة عنترة ومبارزته . فهذا طرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وامرؤ القيس امير الشعراء ، وزهير فصيح بني غطفان ، ولبيد العامري، والاعشى بن ميمون آخر رجال المعلقات، كل هؤلاء قد تصدوا لعنترة وكلهم رجعوا خاسرين في الحسب والنسب والفصاحة والادب[١]

والملحوظ ان مؤلفي السيرة ارادوا ان يجعلوا منها خزانة للادب الجاهلي وخاصة المعلقات . فما كان منهم الا ان جعلوا من اصحاب المعلقات ابطالا يتناظرون الشعر ويتساجلون مع عنترة فيغلبهم بعد ان يسمع قصائدهم ويسمعهم قصيدته . وعنتر في السيرة هو شاعر من الطراز الاول ، استطاع ان يعلق معلقته في الكعبة رغم الصعوبات الجمة والعراقيل الكثيرة التي وضعوها في وجهه .

عنترة والدهاء السياسي

رأينا في عنترة بطلاً مغواراً يحمل على اعدائه بضراوة وشراسة اين منها ضراوة الاسود الضارية والوحوش الفاتكة !

ورأيناه يجابه جيشاً عرمرماً فيقتل منه من يقتل ويأسر من يأسر ويرجع ظافراً غانماً لم يصبه خدش او كسر .

وقد يتبادر الى الذهن ان من كانت هذه صفاته لا شك وانه متهوس ، لا يحسب حساباً للعواقب الوخيمة وما قد تجره عليه مجازفاته الكثيرة من الاخطار . والحقيقة ان اندفاع عنترة ومخاطرته بحياته في مختلف الوقائع التي شنهـا على اعدائه كانت مقرونة بشيء كبير من الحكمة والتروي والدهاء السياسي .

هكذا يظهر لنا عنترة في السيرة وهو في ذلك لا يختلف عن عنترة التاريخ الذي يروى عنه : « انه كان يقدم موضع الاقدام ، ويحجم موضع الاحجام[٢] » . كذلك كان ينكر انه اشجع العرب واشدها حتى اذا سئل بما شاع له ذلك في الناس اجاب :

(١) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤٩٩

(٢) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ١٥٢

« كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا ادخل موضعاً لا ارى لي منه مخرجاً . وكنت اعتمد الضعيف الجبان فاضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فاثني عليه فاقتله[١] » .

ودهاؤه السياسي هـــذا يحمله على مهادنة خصومه الاشداء ومحالفتهم فهو صديق كسرى وحليفه في الحروب بعد ان كان خصمه اللدود[٢] .

اخلاق عنترة

يبدو لنا عنترة في السيرة كامل الصفات فهو عزيز النفس رغم سواد لونـه وضعة نسبه . وهو عفيف في حبه لا يتهتك ولا يفحش . وهو مترفع عن الدنايا ، مترفع عن الأسلاب والغنائم التي يصيبها رجاله في الحرب فلا يمد اليها يداً . وهو سهل المخالقـة ، لطيف المعشر ، دمث الاخلاق، لا يحب ان يكون البادىء بالظلم ولا يفكر بان يسيء الى الغير . اما الكرم فهو سجية طبيعية فيه .

وهو فوق كل ذلك حليم صبور ، غير متهور ولا متهوس ، رغم المجازفات العديدة والمعارك الكثيرة التي كان يشنها على اعدائه . والفضيلة التي تجعل من عنترة مثالا اعلى للفارس الكامل هي صونـــه الحريم . فهو اذ يسبي الاعداء ويقهرهم لا يتعرض للنساء والاطفال[٣] .

وصيانة المرأة والمحافظة عليها شريعة قدسها العرب ايما تقديس. لذلك نجد ان جميع الابطال كانوا يحترمونها ويجلونها وهكذا قل في ابطال سيرة عنترة . فالغضبان يزعق بخصومه الانذال قائلا :

« ... انا الغضبان مبيـد الاقران . وحامي الحريم والصبيان ويلكم هل بلغ من قدركم ان تسبوا الحريم والنسوان[٤] ؟ »

واصحاب عمرو بن مالك يؤكدون له ان ربيعة بن المقدم « ما نصره الرب عليهم الا لما سبوا الحريم وهذا هو الذنب العظيم[٥] » .

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ١٥٢

(٢) سيرة عنترة — ج ٥ : ١٧٧٣

(٣) سيرة عنترة — ج ٢ : ٦١٧ و٦٤١ وج ٤ : ١٣٤٧ وج ٥ : ١٧٥٥

(٤) سيرة عنترة — ج ٥ : ١٧٦٢

(٥) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٦٨٤

ولا شك في ان جميع هذه الصفات التي تبلغ حد الكمال ليست لتطلق جزافاً على عنترة بل ان لها اصولا في اشعاره التي أثرت عنه في العصر الجاهلي . ففي قوله :

ولقد ابيتُ على الطوى واظله حتى انال به كريم المأكل

تظهر عزة نفسه وصبره وترّفعه عن الدنايا ، الامر الذي حمل النبي محمد على القول ، بعد ان سمع البيت المذكور :

« ما وصف لي اعرابي قط فأحببت ان اراه الا عنترة[١] »

وهذه الشهادة كفيلة ان تحفظ ذكر البطل العبسي وتخلده مدى الدهر .

وفي قوله :

اغشى فتاة الحي عند حليلها واذا غشى في الجيش لا اغشاها
واغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

تظهر عفته التي تنقص الكثيرين من شعراء عصره .

وهكذا قل في سائر صفات عنترة التي يظهر اثرها بارزاً في شعره فيبدو لنا شاعر الحرب والحب ، شاعر المعامع الحامية والمعارك الدامية من ناحية وشاعر الحب الذبيح والغزل الحزين من ناحية اخرى !

ان حب عبلة جعل منه رجلًا فوق الرجال . فمن اجل عبلة وارضائها خاض ما خاض من حروب ، وسبى ما سبى من ابطال ! دون ان ينقم عليها او يسيء اليها بافل كلمة تخدّش عفتها .

وهنا يلاحظ Perron ، ان الشعراء العرب الاقدمين يخالفون الشعراء اليونان في نظرهم الى النساء اللواتي اثيرت الحروب من اجلهن. ان مثل هؤلاء النسوة كن لعنة في نظر الشعراء اليونان ، وكن مرذولات منهم . فحرب طروادة استعرتْ نيرانها في سبيل ارجاع هيلانة لزوجها ولم تكن قط في سبيل ارضائها والتقرب منها .

لم يعرف اليونان هذا الحب البطولي بل رذلوه ولعنته آلهتهم ولم يكن مصدراً لاعمال مجيدة عظيمة بل وقف حاجزاً في وجه شعرائهم فلم يروا فيه دافعاً لتمجيد البطولة ! .

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٧ : ١٥١

اما الحب عند العرب فكان في سبيل المرأة نفسها ، في سبيل صونها وحمايتها وهو الذي اذكى الحروب واشعل نيرانها[١] .

« والخلاصة ان عنترة الاسطورة يرتفع حتى ارقى درجات البطولة ويزدان باسمى فضائل الفروسية . يجمع بين الشجاعة وبين عطف المقتدر ، يحنو على الارملة واليتيم ، وينصف المظلوم وينتقم من الظالم . هو مثال اعلى للفارس الكامل . فارس بطل لا تقف بطولته عند حد، لا يهاب جيشاً مهما بلغ عدده ولا يخشى مهالك مهما تنوعت اسبابها ولا يتراجع امام عقبة مهما كان نوعها ، فاذا قاومته الالوف زعق عليها فبددها . واذا صدته الجان اعمل فيها حسامه فصرع افرادها. واذا نبا رمحه عن خرق درع قرنه رمى به الارض وضرب صدر القرن بقبضته فانفذها من ظهره[٢] » .

اما الموت فلم يخشَ بأسه ولم يتهيّب قوته . فقد وافاه الاجل بعد ان عمّر طويلاً ومات ميتة الابطال واليك ذلك :

موت عنترة

ان موت عنترة اسطورة من الاساطير ! لقد حمى قومه في حياته وفي مماته . لقد روى لنا الاغاني[٣] ثلاث روايات عن موت عنترة لم يأخذ بها او باي واحدة منها مؤلفو السيرة . لقد صوروا فيها ما شاء لهم خيالهم الروائي وارادوا ان يجعلوا من موته مجالاً فسيحاً للمجد البطولي والعظمة الحربية . فاماتوه بسهم مسموم من اسهم خصمه اللدود وِزر بن نبهان الملقب بالاسد الرهيص . لقد اكحل عنترة وِزراً هذا واعماه فاراد ان ينتقم لعماه وكان انتقامه هائلاً .

« تعلم رميَ النشاب، وهو اعمى، حتى صار يرمي به على الصوت ، فيصيب الغرض. واذا مر عليه طائر وزعق يرميه على ناحية صوته فيقتله ويأتيه عبده فيأكله[٤]» .

واستطاع وِزر ، في ليلة ليلاء ، ان يُصيب مقتلاً من عنترة بسهمه الحاد المسموم، فيزمجر عنترة عندما يصيبه السهم ويهدد خصمه بابيات من الشعر ، وهو يتألم ، لا يلبث

---

(١) Perron M. A. — Journal Asiatique Dec. 1846.

(٢) فؤاد افرام البستاني — المشرق مج ٢٨ : ٦٣٤

(٣) الاغاني — الاصفهاني ج ٧ : ١٥٢

(٤) سيرة عنترة — ج ٥ : ٢٥٥٤

وزر عندما يسمعها ان يموت من ساعته خوفاً وجزعاً، اعتقاداً منه انعنترة لم يمت لان السهم قد اخطأه ! ويركز عنترة رمحه ، بعد ان يصيبه السهم ويستند عليه ويركب فرسه الابجر ويسير بقومه طالباً منهم ان يدخلوا ديارهم وان يتركوه وشأنه، فهو يريد ان يحميهم في حياته وفي مماته . ويشعر برحيل قوم عنترة الاعداء فيلحق بهم اربعون فارساً مغواراً وهم يقتفون اثر عنترة الى ان وصلوا الى وادي الظبا . « وكان قد عبر الظعن فيه ، وعنترة على ظهر جواده ، مستند على رمحه في بعض نواحيه ، تارة يسير ، واخرى يقف ، الى ان وصل الى فم الوادي والمضيق . فهناك زاد الوجع عليه فوقف واركز رمحه واستند عليه ، فخرجت روحه من بين جنبيه . وكانت العرب من بعيد واقفة تنظر اليه ، ولم يجسر احد ان يقدم عليه لانهم ظنوه في قيد الحياة وانه واقف يطلب قتال من قصده واثاره[1] »

انه لمشهد رهيب حقاً ! انها لوحة من لوحات الفن الخالد ! بل انه تمثال رائع من التماثيل العالمية الخالدة ! ذلك الجسم الاسود الحالك في سواده ، مرتكزاً على رمح من الرماح السمهرية التي طالما اهتزت لهولها النفوس ، والابجر صامد من تحته كأنه قطعة من الليل ، والابطال من على يمينه وشماله يملأون المكان ولا يقتربون !

— هيا تقدم
— يا لك من جبان رعديد !
— ويلكم ايها الابطال ! ارجعوا على اعقابكم والا عدمكم اهلكم واحبابكم !
— انه عنترة حامية بني عبس وفارس كل من طلعت عليه الشمس
— انه حية بطن الواد !
— ولكنه واقف ، هادىء ، لا يُبدي ولا يُعيد !
— هو سكون العاصفة ، واغماضة الموت الزؤام .

ويشاء ربك ان يتحرك الابجر وان يتقدم فيقع جسم عنترة على الارض كانه برج مشيّد او سد من حديد ! .

ان جميع النقّاد، الشرقيين منهم والغربيين، اعجبوا بهذا المشهد الرائع وقد نتعرض لوجه الشبه بينه وبين البطل رولاند في الملحمة المعروفة باسم « اغنية رولاند » . على

---

(١) سيرة عنترة — ج ٥ : ٢٥٦١

اننا نسارع الى القول بان موت عنترة في السيرة هو اروع واجل مشهد فيها . وتنعى الاميرة عنيزة ابنة عنترة، اباها الى جميع قبائل العرب. فيعم الحزن الشديد وتأتي الوفود من اقصى البلاد لتؤدي واجب التعزية بالبطل الكبير الذي رفع اسم العرب عالياً :

فالامير عامر بن الطفيل مع جماعته على الخيول الضوامر

فعمرو بن معدي كرب على رأس وفد من بني زبيد

فالامير هاني بن مسعود على رأس بني شيبان

فبنو نبهان ، فبنو مشاجع ، فبنو مذحج ، فبنو عامل ، فبنو صباح ، فعشرات المئات من القبائل تتلاحق بعضها ببعض حتى تملأ الارض ! ومـــا ان دفن عنترة حتى نحرت على قبره النياق بالمئات والالوف ، واخذ الشعراء والخطباء في رثائـه واخذت الخلائق تنتحب عليه ممزقة ثيابها حزناً وألماً !

واخذت الوفود من غير بلاد العرب ترسل التعازي . فهذا هرقلُ بن قيصر يحضر على رأس وفد من الوفود ويتقدم من قبر عنترة ويتكىء على سيفه ويبكي ويأمر بذبح الف ناقة .

وهذا الملك المنذر ابن النعمان يأتي موفداً من ملك الاكاسرة ، كسرى انوشروان مصحوباً بابن كسرى شهريان الذي يأمر وزيره بزرجمهر ان يذبح الف ناقة وجمل على قبر عنترة !

وهكذا نرى ان مؤلفي السيرة ، عملوا جهدهم ، ليحافظوا على هيبة بطلهم عنترة ، حتى بعد مماته ، فلا تكون خاتمته غير لائقة ببطولته وعظمته عندما كان لا يزال على قيد الحياة !.

عبلة

من صفات عبلة الرئيسية الامانة والاخلاص حتى ما بعد الموت . يظهر ذلك جلياً في اكثر من مكان من السيرة . تستفزها اعمال ابيها ومعاملته لعنترة فتثور في وجهه وتصدمه صدمة عنيفة وترميه باقبح النعوت كالغدر والمكر والخبث[١] .

---

(١) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٢٩

وهي تسهر الليالي الطويلة بانتظار الحبيب المعبود عنترة البطل. وعنترة هو سلاحها الحاد الماضي تهدد به كل من يحاول ان يعتدي عليها[١] . وتتزوج من عامر بن الطفيل إطاعة لامر عنترة بعـد وفاته ولكنها لا تترك فرصة دون ان تذكر زوجها المسكين بمفاخر عنترة ، مفضلة اياه على جميع رجال الارض حتى تستفز زوجهـا وتستثيره فيأمر بخنقها فتموت ضحية حبها وامانتها لعنترة[٢] .

وهي في حبها لعنترة عفيفـة ، شريفة ، طاهرة تفضل الموت الاحمر على ان تلوث عرضها . وليس سبب هذه العفة خوفاً من عنترة الذي « تفزع منـه الجن وتعجز عن مداراته ومراسه الفراعنـة ، والذي يضرب رقبة من يتعرّض لعبلة ، ويخرّب دياره ويقطع آثاره ويفني عساكره » كلا ليس ذلك هو السبب في عفة عبلة وان حاولت هي ان تتظاهر بذلك امام العجوز رسول ازدشير[٣]، بل هو حبها المخلص لعنترة وللفضيلة. انها ثارت في وجه ازدشير بن الملك كسرى كاللبوءة التي فقدت اشبالها ومـا ذلك الا للمحافظة على عرضها وشرفها ولما لم تفلح في ردعه عنها مالأته حتى اذا خلت به اردته بضربة سكين حادة ، فوقع صريعاً يتضرج بدمائه[٤] .

والسيرة تظهر لنا عبلة في مواقف بطولية كثيرة . فكثيراً ما كانت تستقبل عنترة تهنؤه بالسلامة وتقبّله وتساعده في خلع ثيابه وتطلب اليه ان تذهب لتحضر معه مواقعه[٥].

عبلة المرأة الغيورة

ولكن المرأة هي المرأة . لقد كان لها غرورها ولهـا صلفها الذي حملها على مجافاة عنترة وحمله على التزوج من اكثر من امرأة واحدة كما مر معنا الكلام سابقاً ان غرور عبلة كان السبب الذي قرر مصير عنترة . وغيرتها دفعتها الى التصريح بان عنترة ليس عندها «الا بمنزلة العبيد، لا بمنزلة الرجال، ولو انها شاءت لردته الى رعي النوق والجمال[٦]»

---

(١) سيرة عنترة — ج ١ : ٢٣٠

(٢) سيرة عنترة — ج ٦ : ٢٥٧٥

(٣) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤٠٦

(٤) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤١٥

(٥) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٤٥٦

(٦) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٨٠٥

وبلغ بهـا صلفها ان امرت حبيبها عنترة في تقبيل اقدامها في ليلة سكر وعربدة فتركها غاضباً حانقاً وفي قلبه من الشوق ما فيه[١] .

اما حب عبلة لعنترة فقد جعل منه شاعراً فصيحاً وبطلاً مقداماً كما انه كان السبب في ان يموت ضحية عدوه اللدود الاسد الرهيص .

شيبوب

ان شيبوب في السيرة يلفت النظر ويستحق دراسة خاصـة . فهو دماغ عنترة المفكّر ، وهو الحكيم المدبر الذي يخلص اخاه عنترة من جميع الورطات التي يقع فيها. فاذا ما رأى عنترة يسرف في المروءة ويعطف على من لا يستحق العطف قام واعظاً : « ان الاسراف في المروءة يقلع الفروع والاصول[٢] »

واذا ما رأى عنترة غارقاً في بحر ملذاته، يشرب الكأس تلو الكأس ويتذلل امام الاماء والجواري صرخ فيه قائلاً : « يا ابن الاماء ! لقد انهد ركن مجدك وعلاك ، اما تستحي ان تذل لربات القناع ، وقد ذلت لهيبتك السباع[٣] ؟ »

وشيبوب حاضر عند كل طلب « يطلع مثل ريح الهبوب او يطل مثل ذكر النعام» وهو يحمي عنترة كأنه البرق اذا لمع او الشهاب اذا سطع » . لا يقع عنترة في ورطة الا ويصل اليه شيبوب « اسرع من لمح البصر كأنه الثعبان الاغبر » .

وانه لمن المؤسف حقاً ان يموت شيبوب ذبحاً بيد عبد غدّار جاء مستجيراً[٤] .

ان جولدزيهر يرى في شيبوب لعنترة مثل سانكوبوزا لدون كيخوت. اما لامارتين فيدعوه عولوس العرب[٥] L'Ulysse de l'Arabie .

هذه الشخصيات الثلاث، عنترة وعبلة وشيبوب، تكاد تكون محور السيرة فحولها تجري اهم الحوادث وهي تطغى على باقي الشخصيات ، لذلك اكتفينا بدراستها وحدها دون غيرها من شخصيات السيرة .

---

(١) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٥١٣

(٢) سيرة عنترة — ج ٢ : ٥٥٤

(٣) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٥١٣

(٤) سيرة عنترة — ج ٦ : ٢٥٣٥

(٥) Heller — p : 126.

الروح الاسلامي في سيرة عنترة

يلاحظ ان رواة السيرة او بالاحرى جامعيها حاولوا ان يصبغوا بعض حوادثهـا بصابغ الاسلام، وان يجعلوا من ابطالها العظام ابطالاً اسلاميين على بعد زمن السيرة عن الاسلام. فعنترة يبدو لنا مؤمناً بالله الواحد «الحي القيوم، الدائم بلا زوال» الذي خلق الارض من طين وماء « باسط الارض ورافع السماء[١] »

ويذكر الملك زهير « الخالق العظيم » بقوله : « ومن ترى يقدر ان يرث احكام الخالق العظيم[٢] ؟ »

وينظر الى العجم كأنهم « عبّاد النار » اما هو وشعبه فليس توفيقهم الا بالله[٣] .

ويرددون كلمة « الله اكبر » والركن والمقام برب السماء !

فمن هو هذا الله الذي يردُ اسمه في سياق السيرة ؟ هل هو اله اليهود والنصارى ، ام هو اله واحد قادر اخذ يحس بوجوده العرب وقد اقترب مجيء الاسلام ؟

كذلك تتردد على افواه اكثر شخصيات السيرة كلمات : الله اكبر ، والركن والمقام ، ورب السماء ، ورب الخليل ابراهيم ، مما يؤكد ايمانهم بوجود الاله الحقيقي من ناحية ، وكلمات زمزم والحطيم والحجر والبيت العتيق واللات والعزّى والهبل الاكبر مما يؤكد وثنيتهم من ناحية اخرى .

وهم يسجدون امام الاصنام ويقبّلون اركان البيت الحرام ويجأرون من جهة ثالثة الى الله خالق السماء وباسط الارض[٤] .

والذي يبدو لنا ان هناك محاولة من قبـل واضعي السيرة لجعل بعض شخصيات السيرة اسلامية في ايمانها وتفكيرها ، وهي محاولة فاشلة، ظاهرة التصنع، ضعيفة الحجة، عديمة المنطق لان عنترة ، لا يتأتى له ، وقـد عاش جاهلياً ومات جاهلياً ، ان يتصور وجود اله واحد في ذلك الزمن الجاهلي السحيق .

(١) سيرة عنترة — ج ١ : ٣٠٨ و٣٢٨ كذلك ج ٢ : ٤٩٢ و٤٩٣ و٥٢٤

(٢) سيرة عنترة — ج ١ : ٨٣

(٣) سيرة عنترة — ج ١ : ١٢٧ و١٣١

(٤) سيرة عنترة — ج ٢ : ٥٢٧

« ويتعجب من قدرة من يقول للشيء كن فيكون وهو الله الذي لا اله الا هو ، خالق البشر ، ومصور الصور والمخرج الذكر من الانثى والانثى من الذكر[١] » .

وتبدو هذه الروح الاسلامية قوية في السيرة في المواقف التي يتنبأ فيها عنترة وغيره بمجيء النبي العربي الكريم . « فالمجوس تصيبهم زلزلة عظيمة تدل على معجزات النبي المفضال لانهم يوم انكسرت الفرس في ذي قار ، وقتل هاني شيرسان ، انشق الايوان وخمدت بيوت النيران سبعة ايام تمام ، وطلع لها غبار كالدخان ، وانقلبت الدنيا فلم يعرف الليل من النهار ولا الكسوف من الاسفار ، ووقع الهيكل واندثر على معبدهم الاكبر ، وكشفت مشايخ الفرس رؤوسها ، وقد ايقنت بهلاك نفوسها ، وهجروا الطعام ، وحرموا شرب المدام . وخرج الملك الى ظاهر المدينة وضربت له الخيام وايقنوا بالبلا وظنوا ان القيامة قد قامت من السماء . وما سكن الجأش الا حسان بن معبد رأس الحكماء . فانقذ الناس من رعبهم وشدد قلوبهم واخبرهم ان الذي جرى وصار انما هو اشارة على مجيء رسول سعيد له نصر وتأييد من رب السماء ، يظهر في هذه الايام وتكون ولادته في بيت الحرام ومنشأه زمزم والمقام والمشاعر العظام ، يملك الممالك ، ويغير الشرائع ، ويخفي البدائع ، ويظهر الاسلام ويدعو الناس الى عبادة الملك العلام[٢] »

والواضح من السيرة ان النبي قد ظهر في زمن عنترة ولعب دوره فاسلم بين يديه الملك زهير بن قيس ومن تبقى من بني عبس . كذلك فعل عينة بن حصن ومن معه من بني فزارة ، وكانوا اعداء زهير ، فتحالفوا وتصافت القلوب تحت راية الاسلام ، الدين الجديد ، وانزلت الآية في حقهم على ما تدعيه السيرة :

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها[٣] » .

وهناك امور اخرى ، اقل اهمية مما ذكرناه ، تؤيد نظريتنا هذه في اسلامية السيرة منها : ان هاني بن مسعود احد الابطال المشهورين يحلف يميناً انه لا يتزوج ابنة سيّد بني شيبان الا على دين النبي الذي يظهر من آل عدنان[٤] » .

(١) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٥٠٩

(٢) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٣٢١ ـ ١٣٢٢ وص : ١٦٨٤

(٣) سيرة عنترة — ج ٦ : ٢٥٨٣

(٤) سيرة عنترة — ج ٤ : ١٦٨٧

كذلك مسألة القضاء والقدر وبعض المعتقدات الاسلامية الاخرى تظهر جلية في في سياق السيرة : « ان الموت لا يتقدم ولا يتأخر[١] » .

والذي نلاحظه في هذا الموضوع، كما يلاحظ في امور كثيرة غيره تتناولها السيرة، ان الحقائق التاريخية لا قيمة لها في نظر واضعي السيرة . واذا كان هناك كثير من الحوادث التاريخية الجاهلية في هذه القصة فليس معنى ذلك انها رويت على حقيقتها بل جاءت مشوّهة ، فيها الشيء الكثير من المبالغة والتحريف حتى والكذب والخلط . فكيف يمكنك ان تصدق ان عنترة حاول ان يعلّق معلقته على حائط الكعبة بقوته ، وانها كتبت بماء الذهب وعُلقت[٢] ؟ ثم اخذ الناس يسجدون لها[٣] . وكيف يمكنك ان تصدق ان عنترة يبارز طرفة بن العبد لتثبيت قصيدته والتاريخ لم يذكر لنا شيئاً من ذلك .

ومن هو عنترة حتى يكتب الملك النعمان بن المنذر الى الملك زهير في شأنه لخطبة ابنته المتجردة[٤] ؟ وما قيمة هذا الحادث من الناحية التاريخية ؟ وما هي هذه الوفود الكثيرة ، التي يفوق عددها عدد النمل ، والتي تأتي، كلها ، معزية بعنترة[٥] ؟ فكسرى ملك الاعاجم ، وقيصر ملك الروم ، وبزرجمهر وهرقل ورؤساء العشائر والابطال ، كلهم باكٍ ، ملتاع وكلهم ينحني على القبر مودعاً، وهو ينحر عليه النياق ! فاين التاريخ من كل هذه الروايات ؟

وتبدو لنا عبلة شاعرة لا تقل شاعرية عن حبيبها عنترة، فهل عُرف تاريخياً عن عبلة انها كانت شاعرة ؟

ويولي القيصر رجلاً من الروم على دمشق فيعزله عنترة[٦] فمتى كان ذلك ؟ وكيف؟

ويفهم من بعض سياقات السيرة ان المسيحيين كانوا يستوفون الخراج والعداد من اليهود[٧] فهل للتاريخ خبر عن مثل هذا ؟

---

(١) سيرة عنترة — ج ٢ : ٦١٧
(٢) سيرة عنترة — ج ١ : ١٤٣٢
(٣) سيرة عنترة ج ٤ : ١٥٠٤
(٤) سيرة عنترة ج ١ : ٣٨٦ — ٣٨٧
(٥) سيرة عنترة — ج ٦ : ٢٦٢٧
(٦) سيرة عنترة — ج ٦ : ٢٥٤٦
(٧) سيرة عنترة ج ٤ : ١٥٣٩

وانه من اضاعة الوقت ان اعدد المواقف التي يكثر فيها الخلط التاريخي . فهي تشمل السيرة من اولها الى آخرها . ويكفي ان نرجع القارىء الى ما قلناه في مطلع هذا الفصل من ان القصص البطولي كان ملعباً خصباً لخيال الشعراء والرواة القصاصين فرضعوه على هواهم ، مطلقين العنان لمخيّلاتهم غير المحدودة ومغالاتهم الساذجة ! فــلا يمكنا ، والحالة هذه ، ان نركن لاي حادث يروونه او ان نستنتج من روايتهم اي حقيقة تاريخية .

سيرة عنترة ـ منزلتها الادبية

وفقدان العنصر التاريخي الصحيح لا يحط من قيمة السيرة كقصة شعبية بطولية بل ينفي عنها صبغتها التاريخية ، فلا يصح لنا ان نعتبرها كمصدر تاريخي لذلك العصر . ورغم هذه الاخطاء التاريخية ، وطغيان الخيال طغياناً جارفاً على جو السيرة ، ورغم وجود هــذه الحكايات الاسطورية ، فان سيرة عنترة تبقى معرضاً عجيباً ، زاخراً بالصور الصادقة ، والشعور المخلص عن حياة العربي الجاهلي في ذلك الزمن . فبينا تصف لنا الف ليلة وليلة حياة سكان المدن ، تصف لنا سيرة عنترة حياة سكان الصحاري[١]

وهل لدارس الادب العربي غنى عن فهم روحية الشعب الذي اوحى ذلك الادب، والاطلاع على عادات ذلك الشعب وخصائصه الرئيسية واهدافه التي كان يطمح اليها في حياته ؟

ان سيرة عنترة هي في مقدمة الحكايات العربية البطولية ، وهي اطول هــذه الحكايات وان كان طولها سبباً في وجود مثل هـذه الاقاصيص الصبيانية الخارقة التي يعجز العقل البشري عن تصديقها . وبعدُ فما هو هذا العقل الذي لا يقتنع بغير الحقائق الملموسة والبراهين الدامغة ؟ والى اين يمتد سلطانه ؟ وهل يقف عند حد ؟

نرى ان هذا العقل ، قد اخذ في العصر الحديث ، عصر المدنية والنور ، بل عصر العلم والاختراع والابتكار ، عصر الدبابة المدمرة والطيارة المخيفـة والمدفع الهدّام ، والصاروخ المجنون[٢]، قد اخذ يجنح عن هذه المواليد المزعجة، المصمة بضجيجها الصخاب

---

(١) Arbuthnot F. F. — Arabic Authors p: 186.

(٢) كتب هذا البحث ولم تكن القنبلة الذرية ولا القنبلة الهيدروجينية قد ظهرتا بعد

وزمجرتها الخرساء ، الى عالم اهدأ وجو طليق من قيود المادة ومكبلاتها !

ألا ترى ان الانسان ، وقد سد اذنيه الا عن ضجيج هذه الآلية التي ادعى انها ابنة الحقيقة البكر ، يحاول ان يظهر في غير مظهره الصحيح ، وان يعيش حياته عبداً لهذه « الآلية » او طفلاً كبيراً يلعب لعبة خطرة ستؤدي به الى الموت ؟

ألا ترى ان هذه الحقيقة التي تجسمت في الغرب الحديث في غواصة تفجر قلب الاوقيانوسات او في طيارة تشق كبد السماوات ليست سوى بنت الخيال العتيق، خيال الف ليلة وليلة وعفاريت سليمان وجن القصاصين ؟ وان هذا العقل الانساني لم يتوصل الى هذه الحقيقة الا بعد ان تغذى ببساط الريح وقماقم الجن وخاتم لبيك ! .

ان حقيقة الانسان ، هي في قلقه الروحي ، في هذا القلق الذي لا يهدأ ولا يقف لانه ضد الهدوء وضد الوقوف ، هو قلق مستمر، رائع في استمراره ، مدهش في عدم استقراره على حالة من الحالات ، يحتاج الى ما ينمّيه ويغذيه ، ويحتاج الى ما يطرفه ويسليه ، ويحتاج الى ما يرعبه ويخيفه كما يحتاج الى ما يبهجه ويبهره . يتلهف الى تاقف الحقيقة العلمية فان وجدها أو ظن انه وجدها ، تلهف الى الخيال والاسطورة ، يخدّر بهما اعصابه ويعيش فيهما حياته .

الهيجان والثورة والضجيج وغير المعقول والخرافات والاساطير كلها من متطلبات هذا العقل ولا تقل حاجته اليها عنهـا الى الهدوء والطمأنينة والسلام والمعقول والدين والله والحق !

والعقل البشري كان ولا يزال الى الوقت الحاضر ، يعيش هذه الحياة القلقة وكان ولا يزال يجد جماله وحقيقته في مثل هذه الحياة ! اتراه يتدرج نحو الكمال تدرج الطفولة البريئة الساذجة نحو الفتوة العامرة ، النابضة بالحياة ! ولكن رياح الشيخوخة ستهب وتقضي على غضاضة الشباب لتكمل الحياة نفسها فيعود الانسان سيرته الاولى ليعيش حياته الاولى .

ان الانسان في سيرة عنترة هو الانسان في الالياذة وهو الانسان في جميع الكتب الدينية المقدسة وفي جميع الامكنة والازمنة ، ان اختلف في اللون والجنس والقوم فلا يختلف في طبيعته ومزاجه وحياته وقلقه الروحي الدائم المستمر .

ان هذه الحوادث الخارقة في تفاصيلها ، المضحكة في معانيها ، المهيجة في روحها ،

ان هذه الحوادث العجيبة الغريبة في سيرة عنترة هي التي ترفع منزلة الكتاب في نظري واني اعتقد انه كان من الممكن ان تعتبر سيرة عنترة ملحمة جليلة من ملاحم العالم ، لولا تراكم هذه الحوادث تراكماً يسد على القارىء انفاسه . فبمناسبة وبغير مناسبة تطـــير الرؤوس عن الابدان وتلتحم الابطال والفرسان مما يدل على ضعف الحبكة القصصية في هذه السيرة . ولو اردنا ان نضرب على ذلك الامثال لوجدنا الكثير منها . فالقارىء يتعجب من السبب الذي يحمل مالكاً بن قراد ، وهو عم عنـــترة ، على ان يكره ابن اخيه هذا الكره الشديد. ولماذا ؟ ألأنه يطمع في الزواج من عبلة ، وهو عبد وضيع النسب من جهة امه ؟ ولكن هذا العبد محا ببيض فعاله سواد لونه وفرض شخصيته على كثيرين من الابطال حتى اصبحت الملوك تجله وتحترمه وتتمنى له كل خير الا عمه مالك فلم تأخذه عليه شفقة ولم يهزه عطف . ثم يثور الملك زهير على هـذا العم العنيد ويرغمه على تزويج عبلة من ابن عمها فيأبى مالك ذلك دون اي مبرر مما يدل على ان المؤلف لم يوفق في خلق الاعذار لعم عنترة .

وما نقوله عن عدم تبرير هذا الكره وهذه المعارضات لعنترة من قبل عمه نقوله عن الذين اخذوا يعارضونه في تعليق معلقته على استار الكعبة وقبوله كشاعر معروف ، رغم انهم كانوا يسمعون شعره ويتغنون به . قد يكون لهم عذر في موقفهم هذا الموقف وقد يقبل القارىء هذا العذر فيما لو ذكرته السيرة او لمحت اليه على الاقل ولكنها لم تفعل.

ان مجمل الحوادث والمفاجآت ضعيفة في ابتكارها، بسيطة عادية في نتائجها. فالمعركة مثلاً تحدث لاتفه الاسباب ، وتنتهي بسرعة خاطفة ، فلا حبكة في سردها ولا عقدة في سياقها. اما نتائجها فهي معروفة : رؤوس طائرة واجسام مجندلة، وعنترة سالم من كل خطر لم يصبه اي خدش !

الياذة العرب

ورغم هذه الهفوات فان هنالك آراء عديدة وصريحة تعتبر سيرة عنترة «الياذة العرب» فالزيات يقول : « فهي افضل القصص العربية واولاها ان تسمى «الياذة العرب[١]» ويقول زيدان : « ان في قصة عنترة كثيراً من الحوادث التاريخية الجاهلية وهي

(١) الزيّات — تاريخ الادب العربي ص : ٢٤٩

من هذا القبيل تشبه الياذة هوميروس، على اختلاف بينهما باختلاف اخلاق القومين[١]»

ويؤكد هذا الزعم احد الادباء المحدثين في بحث له فيقول :

« ان الملحمة هي رواية شعرية لوقيعة حماسية عجيبة خارقة . والغاية منها تحريك العواطف الشريفة واظهار الفضيلة سعيدة ظافرة والرذيلة شقية مقهورة ....

والملحمة صورة عصر وحياة شعب بوصفها الاخلاق والعقائد وعرضها مشاهد الزمان والمكان. فينبغي لها معرفة واسعة وعلم كثير وخلق كريم وفكر متوقد بالعقيدة الدينية واعجاب بالجمال والصلاح . وكل هذا موجود في عنترة[٢] » .

ولقد سبق ادباءنا المحدثين الى هـــذا القول بعض المستشرقين . فقال ده برسفال المستشرق الفرنسي : « يرى المطالع في سيرة عنترة صورة امينة لحياة عرب الصحراء الذين ، على ما يظهر ، لم تتأثر اخلاقهم بكرور الزمن اقل تأثير . فاكرامهم للضيف، ورغبتهم في الايثار وحبهم وسخاؤهم وحماستهم التي كانت تدفعهم الى الغزو وشغفهم الطبيعي بالشعر ، كل هذه الصفات هي مصورة تصويراً دقيقاً صادقاً وهي هي الروايات الهوميرية عن حروب العرب القديمة ومآتيهم ومآتي ابطالهم الاقدمين قبل محمد . ثم ان الانشاء اللبق، المتنوع ، الذي يرتفع احياناً الى السمو الخيالي، والاخلاق البارزة بقوة والمحددة بطريقة فنية ، كل ذلك يجعل هذه السيرة في مكان سام مرموق فهي ، على الجملة ، الياذة العرب[٣] » .

ولسليمان البستاني معرب اليـــاذة هوميروس ، بحث مطول في الاليـــاذة والشعر العربي يقابل فيه بين انواع الشعر العربي القديمة وتشابهها بالشعر الغربي، ويحاول ان يحدد الملحمة بعد ان يعدد الملاحم العالمية ، فيخلص الى القول : ان العرب عرفوا الملاحم ، وان لم يكن ذلك على الطريقة التي عرفها الافرنج ، فهناك سفر ايوب ، اذا صح ان ايوب كان عربياً ، وهناك منظومات الجاهليين، التي تناشدوها متغنين بحروبهم وايامهم وابطالهم كالمعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبـــات ، والمشوبات والملحمات وغيرها من القصائد التي جمعت مزايا الشعر القصصي ومزايا الشعر الموسيقي كما جمعت الياذة هوميروس بين اطراف المحاسن في الشعر اليوناني .

---

(١) زيدان — الهلال مج ٥ : ٧٣٠

(٢) ابو الفضل الوليد — مجلة الآمالي ص : ١٣٨٠

(٣) Cl. Huart — Littérature Arabe p: 396 Paris 1902

ويتوسع البستاني في تعريف الملاحم فيضع بينها المقامات والقصص التي يمتزج بها الشعر والنثر كقصة عنترة العبسي ورسالة الغفران الخ الخ[1] » .

اما من حيث ادعاؤه ان سيرة عنترة تعتبر ملحمة ، ومن حيث انها تتشابه والياذة هوميروس فلم يقف البستاني عند حد القول بل اظهر في اكثر من مكان هـذا التشابه واشار اليه بشيء من التفصيل . واليك بعض هذه المشاهد :

وصف الجثث يتشابه في شعر عنترة وشعر الالياذة. كذلك هلاك الابطال الخصوم ووقوع الطير والكلاب بجثثهم .

شن الحرب والغارات يكون لخضد شوكة العدو واذلاله في سبيل الغنائم .

قال عنترة معرضاً بحاجة قومه اليه :

سيذكرني قومي اذا الخيل اقبلت　　وفي الليلة الظلماء يفتقد البـــدر

ومثلُ هذا المعنى وارد في الالياذة على لسان اخيل .

تشبيه الابطال بالحصون مشترك في الشعرين اليوناني والعربي .

قال عنترة :

انا الحصن المشيد لآل عبس　　اذا ما شادت الابطال حصنا

للدلالة على علو الهمة بالذود والكفاح .

واخذ بعض النقاد على البطل اخيل بكاءه على حبيبته بريسا ولكن البستاني يجيبهم ان بكاء الابطال يتضمن معنى الشهامة والحب والغيرة، ويضرب الامثلة بعنترة وامرىء القيس وغيرهما من شعراء العرب .

وفي النشيد التاسع من الالياذة قصة مفادها ان اخيل كان عالماً بما قدّر له القضاء والقدر وذلك : اما ان يعيش عمراً مديداً في سعة ورفاء وخمول ذكر ، واما ان يهلك في عنفوان الصبا ويعيش في شقاء ونصب ، ويخلد ذكره . فاختار قصر الحياة مع المجد الاثيل ، غير طامع في طويل العمر ورغد العيش .

ومثل هذا فعل العبسي :

---

(١) سليمان البستاني — الياذة هوميروس ص : ١٦٨ ـ ١٧٥

لا تسقني كأس الحياة بذلة   بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
كأس الحياة بذلة كجهنم   وجهنم بالعز اطيب منزل[١]

ولا ارى من الفائدة ان اعدد جميع هذه المشاهد مفصلة بل اكتفي بذكر بعضها مثل : حنين الابطال الى القتال ، تشبيه سرايا الجيش بعصائب الطير . طرب الابطال لصليل السلاح . تعظيم الحسناء . تشبيه الجيش بماء البحر . تشبيه السيوف بالبروق . وصف تصادم الجيشين . تشبيه الغبار بالليل والمجد بالاقدام والذل بالاحجام . تشبيه الفرس بالريح . محاورة الحصان وصف القتلى . حماية الجار ورعاية الضيف وكلها مشاهد تكاد تكون واحدة في تشابهها بعضها ببعض . ومن الخير مراجعتها في اماكنها[٢] .

اما برنار هلر المستشرق الالماني فيبقى في مقدمة الذين بحثوا في سيرة عنترة . فكتابه المشار اليه سابقاً هو خير ما وضع في هذا الموضوع . وهو لا يقتصر على درس سيرة عنترة من حيث فنها القصصي ، بل يحاول ان يبين قيمة هذا الاثر الادبي بين الحكايات البطولية الكثيرة وخاصة أغنية رولاند . فهو يدّعي ان سيرة عنترة واغنية رولاند تتشابهان في اكثر من موضع وتتفقان في اكثر من مشهد . اما هذا التشابه وهذا الاتفاق فليسا لاي سرقة ادبية او نقل ما ، بل هما نتيجة اتباع الملحمتين قواعد ادبية واحدة هي قواعد الملاحم القديمة . ثم يعدد هلر هذه المشاهد التي تتشابه في الكتابين وهي :

١ – ضرب الصخرة بالسيف وشقّها .

٢ اعتراض العامود السحري لبطلي الحكايتين .

٣ – تشابه الأبجر وبايو وهما فرسا عنترة وورولاند .

٤ – اجتماع عنترة بربيعة شبيه باجتماع رولاند باوليفيه كما ان هناك تشابهاً عظيماً بين الاحلام في الحكايتين وكذلك خاتمة كل منهما تتشابه بالاخرى[٣] .

ومما لا شك فيه ان في جميع ما يقوله هؤلاء النقاد شيئاً كبيراً من الصحة يستحق الدرس والتمحيص . وها انا اكرر هنا ما قلته سابقاً من ان مثل هذه الدراسة تحتاج

---

(١) سليمان البستاني — الياذة هوميروس ص : ٢٣١

(٢) سليمان البستاني — الياذة هوميروس ص : ١١٨٣ ـ ١١٨٤

(٣) Heller B. — Die Bedentung... pp. 99.

وحدها ، لكتاب مستقل ككتاب هلر . وحبذا لو قام من يترجم هـذا الكتاب الى اللغة العربية اذاً لاستطعنا ان نطلع على رأي مفصل في هذه السيرة ولعرفنا منزلتها في ادب المقارنة وخاصة بين الآداب الملحمية !

اما هذه الآراء التي ذكرت سابقاً فهي ، وان كانت على جانب كبير من الصحة ، لا تكفي لان تجعل من سيرة عنترة ملحمة من ملاحم العالم . اما انهـا تتبع في بعض سياقاتها قانون الملاحم فتتفق مع بعض هـــذه الكتب الملحمية وتلتقي اشخاصها في اخلاقهم ونفسياتهم بابطال الملاحم العالمية ، وانها تبقى، بعد كل ذلك سجلاً ضخماً لمآثر العرب في العصر الجاهلي وحروبهم وانتصاراتهم ، فهذا حق صريح ، لا جدل فيه ولا مراء ، وهي في ذلك اعظم القصص البطولية واطولها واكثرها شيوعاً . وهي ، في ذلك ، الياذة العرب .

الفصل الثالث

القصص الديني

١ – تعريفه

٢ – اول قاصّ في الاسلام

٣ – مادة القصص الديني

٤ – قصة آدم
- ا – صفة آدم
- ب – آدم في الجنة
- ج – توبة آدم
- د – وفاة آدم
- هـ – آدم في القرآن وفي التوراة

٥ – قصة نوح
- ا – سفينة نوح
- ب – قصة نوح في الكتب الدينية

٦ – قصة ابراهيم
- ا – ولادته
- ب – ابراهيم والاصنام
- ج – ابراهيم والنمرود

٧ – قصة يوسف
- ا – رؤيا يوسف
- ب – يوسف وامرأة العزيز
- ج – يوسف يسجن ثم يطلق سراحه

٨ – قصة عيسى
- ا – عجائب عيسى
- ب – عيسى في القصص الديني

٩ – قصة محمد
- ا – ولادته
- ب – محمد وسائر الانبياء
- ج – موت محمد

١٠ – مزايا القصص الديني
- ا – الصبغة الاسلامية
  - تفضيل محمد
  - تقديس يوم الجمعة
- ب – الخوارق
- ج – اثر التوراة
- د – المغزى
  - ١ – الاجتماعي
  - ٢ – الديني الاخلاقي
- ه – روعة الوصف وغرابته

١١ – رأي خاص

ما هو القصص الديني ؟

عنينا بالقصص الديني كل حكاية كان موضوعها الاساسي الدين والرسل والانبياء . وهـذا القصص قديم في الاسلام قدم الاسلام نفسه . ففي القرآن الكريم حكايات عن الامم الغابرة والشعوب القديمة التيسبقت الاسلام وهي تختلف في طولها وقصرها . جاء في سورة يوسف : « نحن نقص عليك احسن القصص[١] » . وفي مكان آخر : « لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب[٢] » .

وجاء في سورة الكهف ، واهل الكهف كانوا مادة طيبة للقصص والحكاية ، ما يلي : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدًى[٣] » .

وفي سورة الاعراف : « ... فاقصص القصص لعلهم يتفكّرون[٤] » وفي سورة مريم ويوسف والانبياء وغيرها ما يوحي القصة بكل ما في هذه الكلمة من معنى القصة .

اول قاص في الاسلام

تكاد تجمع المصادر على ان اول قاص في الاسلام هو تميم الداري . جاء عن ابن شهاب : « اول من قص في مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تميم الداري . استأذن عمر ان يذكر الناس فابى عليه حتى كان آخر ولايته فاذن له ان يذكّر في يوم الجمعة قبل ان يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، في ذلك ، فاذن له ان يذكر يومين في الجمعة . فكان تميم يفعل ذلك[٥] » . وقيل ان النبي حدّث عن تميم حديث الجساسة وهو حديث صحيح[٦] . وحديث الجساسة ، فيما يذكرون ، ان تميماً حدث انه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، ثم أرفئوا الى جزيرة في البحر ، حين مغرب الشمس ، فجلسوا في

---

(١) القرآن — سورة ١٢ آية ٣
(٢) القرآن — سورة ١٢ آية ١١١
(٣) القرآن — سورة ١٨ آية ١٢
(٤) القرآن — سورة ٧ آية ١٧٥
(٥) المقريزي — الخطط والآثار ج ٢ : ٢٥٣
(٦) ابن الاثير — اسد الغابة في معرفة الصحابة ص : ٢١٥

اقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة اهلب، كثيرة الشعر، فقالوا : ويلك ما انت؟ فقالت : انا الجساسة. وسميت الجساسة لانها تتجسس الاخبار فتأتي بها الدجال[١].

ويروى عن تميم هذا وكان نصرانياً فاسلم ، انه كان كثير التهجد ، وان روح بن زنباع زاره مرة فوجده ينقي شعيراً لفرسه ، وحوله اهله . فقال له روح : اما كان في هؤلاء من يكفيك ؟ قال : بلى ولكني سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول: «ما من امرىء مسلم ينقي لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه الا كتب الله له بكل حبة حسنة[٢]»

واهتم بعض الرجال المسؤولين من الدولة الاموية، بالقصاص فكانوا يعينون بعضهم لوعظ الناس وسرد الحكايات الدينية عليهم في المساجد ، كما ان بعض القضاة كانوا يجمعون الى القضاء وظيفة القاص كسليم بن عتر التجيبي. فقد روى الكندي في كتابه : « الولاة و كتاب القضاة » وهو يترجم لسُليم قال : « لقد ولي القضاء بها (اي بمصر) سليم بن عتر التُجيبي سنة اربعين من قبل معاوية وكان قبل القضاء قاصاً فجمعا له » . وسليم هو اول من قص بمصر ، كان يقص على الناس ، وهو قائم ، وكان يرفع يديه في قصصه ، ولقد بعث يزيد بن معاوية سليم بن عتر هذا مع بعض اصحابه الى عبدالله بن عمرو ، وكان قد كره مبايعة يزيد بالخلافة ، ليعظوه في البيعة فقال عبدالله :

« ... واما انت يا سُليم بن عتر فكنت قاصاً . فكان معك ملكان يفتيانك ويذكرانك . ثم صرت قاضياً فمعك شيطان[٣] يزيغانك عن الحق ويفتنانك[٤] » .

والمقول ان السبب في وجود مثل هذا النوع الرسمي من القصص ان علياً لما رجع من صفين قنت فدعا على من خالفه ، فبلغ ذلك معاوية فامر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب ان يدعو له ولاهل الشام ، وكتب بذلك الى الامصار[٥] .

وقسّموا هذا القصص الى نوعين : قصص العامة وقصص الخاصة . وقصص العامة مكروه لمن سمعه ولمن فعله ، وهو ان يجتمع القاص بنفر من الناس فيعظهم ويذكرهم .

---

(١) احمد امين — فجر الاسلام : ١٩٠ و١٩١ وراجع ايضاً : تاج العروس مادة الجساسة
(٢) ابن الاثير — اسد الغابة ص : ٢١٥
(٣) كذا في الاصل
(٤) الكندي — كتاب الولاة والقضاة ص : ٣٠٣ - ٣١١
(٥) الكندي — كتاب الولاة والقضاة ص ٣٠٤ الهامش عدد ١ كذلك المقريزي — الخطط ج ٢ : ٢٥٣

اما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية : « ولى رجلاً على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله ، عز وجل ، وحمده ومجده وصلى على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولاهل ولايته ولحشمه وجنوده ودعا على اهل حربه وعلى المشركين كافة[١] » .

وكان القصاص اصنافاً وانواعاً. فمنهم الرواة الذين يخلطون بين الحقيقة والاسطورة ومنهم الذين يتحرون الحقيقة فيتحرجون عن رواية غير الحق والصواب . فمن الرواة الذين قرأوا الكتب الكثيرة ورووا الروايات المختلفة وشك المؤرخون في رواياتهم : وهب بن منبه وكعب الاحبار وسيأتي الكلام عنهما فيما بعد. ومن القصاص الذين كانوا يعتمدون على الآيات القرآنية وحث الناس على التوبة والموعظة الحسن البصري .

وكان للقصاص عادة في رفع ايديهم وهم يقصون وهي عادة مقتبسة عن عبد الملك بن مروان . فقد قيل ان هذا الخليفة شكا الى العلماء ما انتشر عليه من امور رعيته وتخوفه من كل وجه فاشار عليه ابو حبيب الحمصي القاضي بان يستنصر عليهم برفع يديه الى الله قال ، فكان عبدالملك يدعو ويرفع يديه وكتب بذلك الى القصاص فكانوا يرفعون ايديهم بالغداة والعشي[٢] .

ولقد مر معنا ، ونحن نتحدث عن سليم بن عتر ، اول قاص في مصر ان هذا القاص كان يرفع يديه في قصصه وذلك في زمن يزيد بن معاوية قبل عبد الملك بن مروان . فكيف نستطيع التوفيق بين هذين القولين ؟

نرى من كل ما تقدم ذكره ان القصص نشأ في اول عهده حول الدين والرسل والانبياء . روايات وحكايات ، واحاديث ووقائع ينشرها بين الناس جماعة من الناس وهبوا مقدرة على الكلام وزلاقة في اللسان فراحوا يبثون هذه الاحاديث ، تارة في سبيل الوعظ والارشاد وطوراً للتهديد والترغيب !

مادة القصص الديني

وارتقى القصص الديني وخطا خطوة كبيرة على يد المؤرخين والمحدثين وشرّاح القرآن الكريم . فذكر الطبري والزمخشري وغيرهما من الشراح عشرات الحكايات

(١) المقريزي — الخطط ج ٢ : ٢٥٣
(٢) المقريزي — الخطط ج ٢ : ٢٥٤

ومئات الروايات ليستعينوا بها على شرح الآيات القرآنية .

وقام من يجمع هذه الحكايات ، وهي تروى على السنة الرواة ، بين دفتي كتاب في العصر العباسي ، كما ان بعض الادباء العباسيين ، راح يقص حكايات الانبياء سارداً تاريخ حياتهم ، حاثاً على اقتفائهم والاقتداء بهم فكان لنا من كل ذلك الكتب التالية:

١ – كتاب قصص الانبياء المسمى بالعرائس للثعالبي سنة ٤٢٧هـ ٤٣٧ هـ ؟
٢ – كتاب قصص الانبياء للكسائي من مواليد القرن الخامس الهجري
٣ – قصة اهل الكهف
٤ – قصة شمشون النبي للينسابوري سنة ٤٢٧ هـ . وهي قصة تاريخية ضمن مجموعة طبعت في القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .
٥ – قصة سيدنا عيسى وامه مريم . ضمن مجموعة مخطوطة
٦ – قصة سيدنا موسى الكليم ابن عمران – مخطوطة
٧ – قصة سيدنا يعقوب ابن سيدنا ابراهيم
٨ – قصة سيدنا يوسف الصديق طبعت سنة ١٢٧٩ هـ .

هذه بعض الكتب القصصية الدينية التي استطعنا ان نعثر عليهـا في بحثنا . ولسنا بحاجة الى القول اننا لم نستطع ان نراها جميعها لان بعضها ، كما يبدو ، لم يُطبع بعد ، ولان البعض الآخر ليس موجوداً في مكاتبنا العربية .

على ان اعظم هذه الكتب القصصية الدينية واطولها، والصقها بالفن القصصي الديني هما كتابان : كتاب الثعالبي وكتاب الكسائي . وسنحاول ان ندرس القصص الديني من خلال هذين الكتابين لانهما اجمع المصادر لهذا القصص واشملها .

قصص الانبياء – للكسائي : في المجلد الاول من قصص الانبياء يتحدث الكسائي عن اللوح والقلم وخلق المـاء والعرش والارض والسماوات والشمس والقمر والجنة والنار . ويصف جهنم وكيف خُلق آدم وكيفية دخول الروح في جسده ، ويروي حديث الطاووس والحية مع ابليس وكيف أُخرج آدم من الجنة . ثم يأخذ بسرد تاريخ حياة الانبياء الذين جاءوا بعد آدم كأدريس ونوح وحام وهود وصالح وثمود وابراهيم واسماعيل ولوط واسحق ويعقوب وعيسو ويوسف مع اخوته ثم ايوب النبي

وشعيب ومنشى.. الخ. وفي المجلد الثاني يتناول المؤلف حديث يوشع بن نون ويوسافس بن كالب، ولاميزار وشمويل وداؤد وابسالوم وسليمان ويونس وعيسى بن مريم الخ..

ولقد ذكر المؤلف في مقدمة كتابه « انه جمع في هذا الكتاب المنبهات في خلق السماوات والارضين وخلق الجن والانس واحوال النبيين، على قدر ما بلغنا من احوالهم واخبارهم بعد ما اجتهدت فيه وجربت ما قرب وما بعد مما وافق الحق، فهو الذي وضعته وما كان منها بخلاف الحق فأثمه على من وضعه[1] ».

العرائس الثعلبي

ولا يختلف كتاب الثعلبي في جوهره عن كتاب الكسائي. فكلاهما ينهج نهجا واحداً ويتناول موضوعاً واحداً وان اختلفا في الاسلوب وطريقة العرض. ويرى الثعلبي في مقدمة كتابه ان الحكماء ذكروا ان الله قص على النبي محمد القصص لخمسة امور:

١) لاظهار نبوته وللدلالة على رسالته
٢) للاقتداء بمكارم اخلاق الرسل والانبياء المتقدمين والاولياء الصالحين
٣) تثبيتاً للنبي محمد واعلاء شرفه وشرف امته
٤) تأديباً وتهذيباً لأمته ـ لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب
٥) احياء لذكرى الماضين وآثارهم[2].

والمستنتج من اكثر هذه الحكايات الدينية انها وضعت لأعطاء العظة والحكمة. وهي تعتمد على القرآن واقوال المفسرين والمحدثين. وتعتمد ايضاً على اخبار الاولين من حكايات واساطير وروايات وخرافات واسرائيليات « لا يمكن ان تصدق ولا تكذّب » على حد تعبير ابن كثير[3].

وينقل مؤلفو هذا النوع من القصص عن اليهود والنصارى وعن العهدين القديم والجديد، اخباراً وردت صحيحة في هذه الكتب واخرى لا صحة لها ولا اثر كما سنرى

ولقد تناول هذا القصص، فيما تناوله، حياة الانبياء والاولياء والرسل، معتمداً

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٦
(٢) الثعلبي — العرائس ص : ٢ و٣
(٣) عبد الوهّاب النجار — قصص الانبياء ص : ٤١١ الهامش.

على المصادر التي مر ذكرها فجاء فناً قصصياً قائماً بذاته ، تختلط فيه الحقيقة بالخيال ، ويمتزج فيه الدين بالاسطورة فيقف القارىء منه موقف المصدّق تارة والمكذب تارة اخرى.

على اننا سنعرض لحياة بعض الانبياء والرسل والاولياء الذين وردت اسماؤهم في هذا القصص وسندرس بشيء من التروي والتعمق قيمة هذا القصص الادبية الفنية . فنلم بامور كثيرة اهمها : تأثر هذا القصص بالتوراة ، وما جاء فيه من روايات عجيبة وخوارق يصعب على العقل والمنطق هضمها وتصديقها. ثم نمرّ بالعبر والدروس الاخلاقية التي يمكن للدارس ان يستنتجها . ولنبدأ بآدم ابي البشر .

قصة آدم

قبل ان نذكر كيف خلق الله آدم لا بد لنا من ذكر كلمة عن الارض ومن كان يعيش عليها قبل آدم . قيل : «كانت السماء تفتخر على الارض وتقول لها : ربي رفعني فوقك ، فانا الخلق الاعلى ، واني مسكن الملائكة ، وفيّ العرش والكرسي ، والقلم والشمس والقمر والنجوم ، وفيّ خزائن الرحمة ومني ينزل الوحي اليك ».

وقالت الارض : « الهي بسطتني ارضاً واستودعتني بنبت الاشجار والنبات والعيون ، وارسيت على ظهري الجبال ، وخلقت علي انواع الثمار ، وهذه السماء تفتخر علي بما خلقت فيها من الملائكة يسبحونك . وقد اخذتني الوحشة اذ ليس علي خلق يذكرونك . فنوديت الارض : اسكني فانا خالق من اديمك صورة لا مثل لها في الحسن وارزقها العقل واللسان، واعلمها من علمي ، وانزل عليها من ملائكتي، ثم املىء منها بطنك وظهرك وشرقك وغربك فافتخري يا ارض على سمائي بذلك . فاستقرت الارض وهي ، مع ذلك ، بيضاء نقية كانها الفضة البيضاء. فاشرفت الجان والى ما فيها من الوحش والسباع والهوام . فسألت الله ان يهبطها اليها فاذن الله لهم في ذلك ، على ان يعبدوه ولا يعصوه . فاعطوه العهد على ذلك ، وهم سبعون الف قبيلة ، فعبدوا الله تعالى حق عبادته دهراً طويلاً ثم اخذوا في المعاصي وسفك الدماء حتى استغاثت منهم الارض وقالت : الهي ، ان خلوي احب الي من ان يكون على ظهري من يعصيك . فاوحى الله تعالى الى الارض ان اسكني فانني باعث اليهم رسولاً[١] . » وقد ارسل الله

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٢١ و٢٢

للجان ثمانمائة نبي في ثمانمائة سنة فقتلوهم جميعاً بعد ان كذبوا دعوتهم. فما كان من الله الا ان امر ابناء الجن الذين في السماء ، وعلى رأسهم ابليس ، بالنزول لمقاتلة جان الارض فقاتلوهم وكان الفوز لابليس . فرفعه الله اليه . وكان ابليس يتنقل من سماء الى سماء يقضي السبت في السماء الدنيا والاحد في السماء الثانية فالثالثة فالرابعة الى السابعة . حتى حسدته الملائكة على تقدير العلي له ، وفي مقدمتهم جبريل وميكائيل .

هكذا كانت الارض قبل آدم .

ويمر دهر طويل بعد ذلك، فيأمر الله جبريل ان يهبط الى الارض ويقبض قبضة من شرقيها وغربيها وسهلها وجبالها ليخلق منها خلقاً جديداً يجعله افضل المخلوقات جميعها . ولكن ابليس العابد ، وهو رأس الزاهدين ، ينصح الارض لـكي تقسم على جبريل الا يقبض منها شيئاً لئلا تكون سبباً في اعطاء الحياة لمخلوق يعصى الله فيعذب بالنار. ويرتعد جبريل من قسم الارض ويرجع الى الله دون ان يأخذ من الارض شيئاً فيرسل الله ميكائيل ليأتيه بالقبضة فتفعل الارض معه ما فعلته بجبريل فيطيعها . عندئذ بعث الله عزرائيل ملك الموت ، فلما همّ ان يقبض من الارض قبضة اقسمت عليه مثلما اقسمت على جبرائيل وميكائيل فقال لها: « وعزّة ربي وجلاله لا اعصيه امراً امرني به ثم قبض منها قبضة من جميع بقاعها ، عذبها وحلوها ، ومالحها ومرها ، وطيبها وحمله الى الله بعد ان اخبره بما جرى له مع الارض . فقال الله : « وعزتي وجلالي لاخلقن مما جئت بـه خلقاً ولاسلطنك على قبض ارواحهم ، لقلة رحمتك . فجعل الله نصف تلك القبضة في الجنة ونصفها في النار[١] » .

وخلق الله آدم ، كما خلق كل بني البشر من تلك القبضة ، ورأس آدم من الارض الاولى ، وعنقه من الثانية ، وصدره من الثالثة ويداه من الرابعة ، وبطنه وظهره من الخامسة ، وفخذاه وعجزه من السادسة ، وساقاه وقدماه من السابعة[٢] .

هذا ما حدث به وهب بن منبّه . اما ابن عباس فقال : « خلق الله آدم من اقاليم الدنيا . فراشه من تربة الكعبة ، وصدره من تربة الدهناء ، وبطنه وظهره من تربـة الهند ، ويداه من تربة المشرق ، ورجلاه من تربة المغرب[٣] .

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٢٣

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٢٤

(٣) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٢٤

صفة آدم

فآدم اذاً مخلوق عظيم لم يسبق ان شهدت الملائكة او اي المخلوقات قبله نظيراً له. وتنظر الملائكة الى هذا المخلوق الجديد « كأنه الفضة البيضاء[١] » كيف البسه الله من لباس الجنه وزيّنه بانواع الزينة ، ورفعه على سرير وحمله على اكتافهم وقال لهم : طوفوا به في سماواتي ليرى عجائبها وما فيها[٢] .

ولم يستنكف جبريل ان يأخذ بلجام الميمون وهو الفرس الذي خلقه الله من المسك الاذفر بجناحين من الدر والجواهر ليركبه آدم في طوافه في السماء . كذلك كان ميكائيل عن يمينه واسرافيل عن شماله. بينما كان يطوف جميع السماوات . وقد اصطفت حوله الملائكة وضُربت له في الصفح الاعلى قباب من الياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر. فكان يمر بالملائكة يحييهم وعليه ثياب سندس في رقاقة الهواء وله صفرتان مرصعتان بالجواهر محشوتان بالمسك والعنبر ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجواهر له اربعة اركان في كل ركن منها درة عظيمة يغلب ضوءها ضوء الشمس والقمر وفي اصابعه خاتم الكرامة ، وفي وسطه منطقة الرضوان ، وله نور ساطع في كل غرفة في الجنة .

بهذه الزينة التي تدهش اهل الارض والسماء وقف آدم خطيباً في الملائكة فحمد الله وتحدى الملائكة ليخبروه باسماء المخلوقات فما استطاعوا فجعل يخبرهم باسم كل شيء خلقه الله في البر والبحر حتى الدرة والبعوضة .

آدم في الجنة

وخلق الله حواء على طول آدم وعلى حسنه وجماله ولهـــا سبعمائة ضفيرة مرّصعة باليواقيت ، محشوة بالمسك ، وزوّجه اياها بابهـة وعظمة . فوُضع لآدم كرسي من جوهر وجلس عليه وكان الخاطب جبريل والشهود الملائكة فنثروا على العروسين نثار الجنة وقال الله تعالى لآدم :

حواء أمتي وانت عبدي . يا آدم ! ما خلقت من هو اكرم علي منكما اذ انتما

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٢٧

(٢) الثعلبي — العرائس ص : ١٨

اطعتماني . وقد خلقت لكما داراً وسميتها جنتي . فمن دخلهـــا كان ولي حقاً ومن لم يدخلها كان عدوي حقاً[١] » .

ويأمر الله جبريل ليأمر رضوان حارس الجنة باحضار ميمون فرس آدم الذي خلقه الله خمسمائة سنة قبل ان يخلق آدم ، ذلك الفرس المخلوق من مسك الجنة ممزوجاً بماء الحيوان ، ذلك الفرس الذي عرفه من المرجان وناصيته من الياقوت وحوافره من الزُبُرجد واجنحته من الجواهر . فيصدع رضوان بالامر ويفتح ابواب الجنان وينادي الميمون فيقبل بالتسبيح والتقديس والتهليل حتى يقف بين يدي جبريل فيوقفه بين يدي آدم فيستوي على ظهره ويأخذ جبريل بركابه . وجيء لحواء بناقة فاستوت عليها ودخل الاثنان وحولها الملائكة صفوفاً صفوفاً الى ان بلغوا باب الجنة .

ولما توسط آدم وحواء الجنة ، جنة عدن ، نظر فاذا هو بسرير من جوهر له سبعمائة قائمـــة من انواع الجواهر ، وله شرافات كثيرة ، وعلى السرير فرش من السندس والاستبرق . وبين الفرش كثبان المسك والعنبر ، وعلى السرير اربع قباب : قبة الرضوان ، وقبة الغفران ، وقبة الخلد ، وقبة الكرم . وكان عن يمين السرير جبل من مسك وعن يساره جبل من عنبر وشجرة طوبى . وبقي آدم مع حواء في الجنة خمسمائة عام من اعوام الدنيا في اتم سرور وانعم الاحوال . وكان آدم يتمشى في ميادين الجنة وحواء خلفه تسحب سندسها ، وكلما تقدما من قصر الى قصر نثرت عليهما الملائكة من نثار الجنة حتى يرجعا الى سريرهما .

وقضى آدم مع حواء خمسمائة سنة في الجنة في اتم سرور وانعم بال الى ان وقع في الخطيئة ، بعد ان طغاه ابليس بان احتال على الحيـــة ودخل معها الجنة وهو مختبيء بين انيابها .

وأُخرج آدم من الجنة . وحُجبت عنه حواء . وكانت الملائكة تخافه وهي تنظر اليه عريان . واهبط الى بلاد الهند ، على جبل من جبالها يقال له سرنديد[٢] واخذ في البكاء حتى بكى مئة عام ليلاً ونهاراً ، وهو لا يرفع رأسه الى السماء حتى انبت الله من

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٣١ و٣٢

(٢) كذا في الاصل وهو في جزيرة سرنديب . جاء في معجم البلدان لياقوت مج ٣ : ٨٢ ما يلي : «وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم يقال له الرَّهون وهو ذاهب في السماء يراه البحريون من مسافة ايام كثيرة . »

دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل والكافور والغرغر والقماري وانواع الطيب كله ، ولهذا السبب يعزون كثرة المسك الى بلاد الهنـــد . . وكانت الطيور والسباع والهوام والوحوش تشرب من دموع آدم لغزارتهـا . وبكت حواء فانبت الله من دموعها القرنفل والافارغة. ولقد استطاع آدم ان يتكلم وحواء عن بعد سحيق. كانت الريح تحمل كلام آدم الى حواء وكلام حواء الى آدم فيظن كل واحد منهما انه قريب من صاحبه . وبينهما البلاد البعيدة !

ولقـــد القى هبوط آدم الى الارض الرعب في روع الحيوانات من برية وبحرية . فالنسر يحمل الخبر الى الحوت ويستعيذان من هذا المخلوق الجديد قائلين : الويل لاهل البر والبحر من هذا الانسان !

توبة آدم

قيل ان آدم بكى على فراقه الجنة، بكاء لو وضع في كفة ووضع في الكفة الاخرى بكاء يعقوب على يوسف وبكاء داود على خطيئتـه ، مع بكاء جميع الخلق لرجح بكاء آدم على بكائهم !

وقيل انه قام على بكائه ثلاثمائة عام لا يرفع رأسـه الى السماء وهو يقول : اللهم باي وجه انظر الى السماء وانا نزلت منها عريان عاصياً ؟

وسمع الله نداء آدم وقبل توبته فارسل ملاكه جبريل ليحييه وليمسح دموعه ويعلمه الكلمات ، فصدع جبريل بالامر وحمل الكلمات ونشر جناحيه فامرّهما على وجـــه آدم فهدأ بكاؤه فقال له : يا آدم : لقد غفر الله خطيئتك وقبِلَ توبتك ، ولقـد ابكيت اهل السماوات والارض فاليك الكلمات وهي كلمات الرحمة والغفران . واما هـــذه الكلمات فسيأتي الحديث عنها . وشكر الله آدم وطلب المغفرة لنفسه ولأولاده من بعده . فانتشر صوته في الآفاق وضجت الارض والجبـال والشجر من ذلك الصوت الرهيب . ثم رفع رأسه فرفع له حجاب النور وفتحت له ابواب السماوات وحاول ان يقوم فلم يقدر لان رجليه كانتا راسختين في الارض كعروق الشجر فاقتلعه جبريل اقتلاعاً صاح آدم على اثره من شدة الالم . فقال له جبريل: هكذا تفعل الخطيئة باهلها.

واخذ آدم يعمل وامرأته حواء في الارض، يحرث ويزرع ويحفر الآبار. ولم تنقطع

عنه الملائكة بل كانت تعلمه كيف يتصرف في شؤونه ويداري اموره ويداوي جوعه وعطشه . فكانت الكباش تأتيه من الجنة وهو يذبحها ليأكل لحمها ثم يجز صوفها ويغزله مع زوجته لينسجاه لهما ثياباً .

وفاة آدم

وبعد ان عمرت الارض كلها وذلك بفضل آدم وعمله المستمر واهتمامه الشديد بغرس الاشجار والحرث والزراعة استوفى مدته . فاوحى الله اليه : يا آدم قد قرب اجلك . فخاف آدم من الموت وخاصة عند ما عرّفه الله بان الموت « هو اشد مرارة من السم القاتل وانه يذهب بالنضارة من الوجه والكلام مع الحسن والجمال حتى يعود الجسم كما كان[1] » .

ولكنّ آدم عاد ففهم ان الموت هو الختم الذي كتبه الله على جميع خلقه وان الملائكة قيام في السماء قد نشروا اجنحتهم وفي ايديهم الوية الكرامة ينتظرونه ليستقبلوه استقبالاً عظيماً ، وان الله لو خلّد احداً في الدنيا لكان خلد آدم . لذلك صدع بالامر امر الخالق العظيم واجاب ملك الموت : « اني سميع مطيع لامر ربي » . فناوله ملك الموت شراب الفراق فشربه وفارق الدنيا وعمره الف سنة . فلم يبق على وجه الارض والسماوات شيء الا وبكى على آدم . بكت عليه الوحوش والسباع والطيور والهوام وكسفت الشمس . وعندما علمت حواء بموت زوجها ، وكان آدم قد امر بالا تخبر زوجته بوفاته الا بعد دفنه ، صاحت صيحة عظيمة ومزقت ثوبها ولطمت وجهها ودقت على صدرها ، ولزمت قبره لا تأكل ولا تشرب الى ان حان حينها ففارقت الدنيا وكفنت كآدم في كفن من الجنة ودفنت الى جنب زوجها ، رأسها على رأسه ورجلاها عند رجليه .

آدم في القرآن والتوراة

يرى القارىء مما تقدم ان هذا القصص الديني يتناول حياة ابي البشر بشيء كثير من التفصيل والتزويق اللذين لا اثر لهما في القرآن او في التوراة . ولقد سبق القول ان هذا القصص وُضع اول ما وضع ، في سبيل تفسير القرآن وخدمة لفهم آياته . ولكن

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٧٣

واضعيه اشتطوا عن الطريق القويم واستسلموا لمخيلاتهم فابتكروا الخوارق وابتدعوا العجائب فجاء قصصهم ملوناً بالف لون لا يمت بصلة الى اي كتاب من الكتب الدينية. وتصديقاً لادعائي هذا فقد راجعت حياة آدم في الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم فلم اعثر على شيء من هذه الاخبار الخارقة التي مرت بنا والى القارىء نتفاً عن حياة الانسان الاول كما وردت في القرآن :

هناك آيات تدل على ان الانسان خلق من طين[١] .

هو الذي خلقكم من طين . ولقد خلقنا الانسان من طين . الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مَهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه . اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقَعُوا له ساجدين . وليس في القرآن الكريم تفصيل لخلق آدم بل هو يزيد على ما تقدم قوله :

ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله احسن الخالقين .

فانت ترى ان القرآن الكريم يوجز ايجازاً كلياً في خلق آدم كما انه لا يشير الى موته ، على ما نرى ، ولكن في هذا الايجاز مجالاً كبيراً للتفكير وللشرح والتأويل . وقد استغلّ القصاص هذا الايجاز فجاءوا بقصصهم الذي نحن بصدده .

ولو رجعنا الى التوراة لوجدنا ان قصة آدم مذكورة في سفر التكوين في الاصحاحين الثاني والثالث وهي لا تختلف عنها في القرآن اختلافاً جوهرياً وان جاءت اكثر تفصيلاً في بعض الامور :

« وجبل الرب الاله آدم تراباً من الارض . ونفخَ في انفه نسمة حياة . فصار آدم نفساً حية . وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله. وانبت الرب الاله من الارض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل . وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر[٢] » .

---

(١) سورة الانعام آية ٢ . سورة الاعراف آية ١١ . سورة المؤمنين آية ١٢ . سورة السجدة آية ٦ و٧ و٨ . سورة ص آية ٧١ و٧٧

(٢) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٢ : ٧ و٨ و٩

ثم تشير التوراة الى وصف هذه الجنة والى وصية الله آدم ليأكل من جميع اشجار الجنة الا من شجرة معرفة الخير والشر ثم الى خلق حواء من اضلاع آدم وحياتهما معاً سعيدين هنيئين الى ان استطاعت الحية ان تحتال على حواء وتخدعها فتحملها على اكل الثمرة المحرمة واطعام آدم منها فيقعان في الخطيئة ويبدو لهما عريهما فيختبئان من وجه الرب الاله في وسط الجنة . ثم تذكر التوراة مخاطبة الله لآدم وحواء وفرض القصاص عليهما . وتذكر ايضاً ان ادم توفي وله من العمر تسع مائة وثلاثون سنة[١] .

بين التوراة والقرآن

وليس الاختلاف بيّناً في قصة آدم وحواء كما وردت في الكتابين الكريمين الا في بعض مسائل طفيفة :

اولاً : ان الذي اغرى آدم وحواء للوقوع في الخطيئة هو ابليس على حد قول القرآن وهو الحية على قول التوراة .

ثانياً : ان القرآن يذكر الحوار بين الله وبين ملائكته عن عزمه على خلق ادم وعن وجوب سجودهم له . وليس شيء مثل هذا في التوراة .

ونحن نلاحظ ان واضعي القصص الديني متأثرون الى حد بعيد بالتوراة ولكنهم وقعوا في اخطاء كثيرة ، وهم ينقلون هذه الاخبار . وسنبرهن على خطأهم فيما بعد .

هذه هي حكاية خلق ادم كما رواها رواة القصص الديني مستندين على القرآن تارة وعلى الاسرائيليات طوراً وها اننا موردون هنا نتفاً من حكايات بعض الرسل والانبياء لاعطاء القارىء صورة صحيحة عن هذا القصص ، متوخين من ذلك دراسة هذا القصص واستجلاء ما فيه من عناصر التشويق واللذة والفن .

وسنتناول ، بايجاز كلي بعض النقاط في حياة كل من نوح وابراهيم ويوسف وعيسى ومحمد .

---

(١) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٥ : ٥

نوح

هبط جبريل بامر الله وبشّر نوحاً بالنبوة والرسالة وارسله لينذر قومه الكفرة اولئك القوم الذين كانوا يخرجون في يوم عيدهم ، جميع اصنامهم ينصبونها على اسرتها وكراسيها ويقرّبون القرابين بين ايديها ويشربون الخمور ويضربون بالصنوج ويرقصون ويأتون الفواحش على احط انواعها . وكان نوح يقف بين هؤلاء الناس الفجّار واعظاً ويدعوهم الى عبادة الله الواحد القهّار فلا يسمع له احد منهم الا امرأة اسمها عمورة وهي التي تزوج منها واولدها ثلاثة بنين: سام وحام ويافث وثلاث بنات: حصورة وميشورة ومحبورة . واتهم نوح بالجنون والكذب وكانوا يجرونه برجله فيلقونه على المزابل فيغشى عليه وهو صابر على اعمالهم المنكرة يذكر لهم عجائب الله فلا يسمعون له بل يضعون اصابعهم في اذانهم ولا يزدادون الا عتواً .

ومضى على نوح ستة قرون (والقرن مئة سنة) وهو يعظهم فلا يتعظون ويأتي اصنامهم في الليل ويسفهها منادياً باعلى صوته : « يا قوم قولوا لا اله الا الله واني نوح نبي الله ورسوله » . فيتهمونه بالجنون ويضربونه ضرباً مبرحاً ويدوسون في بطنه الى ان اوصى الله اليه ان اصنع الفلك فعلم نوح ان الله سيغرق القوم الفجار بالطوفان .

سفينة نوح

وضع نوح السفينة بمساعدة اولاده « فجعل رأسها كرأس الطاووس وعنقها كعنق النسر ووجهها كوجه الحمامة وكوثلها كذنب الديك ومنارها كمنقار الباز واجنحتها كأجنحة العقاب[١] .

اما طولها فيبلغ الف ذراع وعرضها خمسمائة وسمكها ثلاثمائة . هذا على رواية الكسائي[٢] . اما في العرائس فيبلغ طولها ١٢٠٠ ذراع وعرضها ستمائة[٢] .

ووضع نوح في السفينة طبقات طبقات خص بعضها بالدواب والوحوش وبعضها بالطير واجناسها والهوام الطائرة وغير الطائرة . ووضع في الباب الاول الرجال وجسد ادم وهو غض لم يتغير منه الا اظافره .

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ج ١ : ٩٢

(٢) الثعلبي — العرائس ص : ٣٧

وامر الله السفينة ان تطوف بنوح اقطار الارض والدنيا فطافت باهلها الارض كلها في ستة اشهر لا تستقر على شيء حتى بلغت بيت المقدس فوقفت ونطقت واخبرت نوح بان هذا المكان هو الذي ستسكنه الانبياء من بعد نوح . ثم سارت الى الكعبة ونطقت بالتلبية !

واستوت السفينة بعد هذا التطواف الطويل على جبل الجودي « وهو جبل حصين من ارض الموصل[١] » فخرج نوح ومن معه من السفينة واتخذ من ارض الجزيرة موضعاً وابتنى هناك قرية سموها سوق ثمانين لانه كان ابتنى فيها لمن آمن معه وهم ثمانون. وتوفي نوح وله من العمر تسعمائة وخمسون سنة . قيل له: كيف وجدت الدنيا ؟ قال: كبيت له بابان دخلت من احدهما وخرجت من الآخر .

قصة نوح في الكتب الدينية

ولا حاجة بي الى القول بان حكاية نوح ، كغيرها من القصص الديني الذي نحن بصدده ، مبنية على بعض الآيات القرآنية . ولكنها تخالف القرآن مخالفة كبيرة في هذه التفاصيل الخرافية وهذه الحوادث الخارقة التي تشوه وجه الحقيقة تشويهاً ظاهراً .

نوح في القرآن

لقد ورد ذكر النبي نوح في القرآن في أكثر من اربعين موضعاً وذكرت قصته مفصلة في عدة سور « كالاعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح » . ومفادها ان الله ارسل نوحاً الى قومه ليعظهم ويرشدهم بعد ان تمادوا في غيّهم وضلالهم فكفروا بدعوته ورذلوه ولم يصدقوه . فيئس نوح من هداية قومه ودعا ربه عليهم قائلاً :

« رب لا تَذَرْ على الارض من الكافرين ديّاراً. انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً[٢] » .

---

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٣٧ جاء في معجم البلدان مج ٢ : ١٤٤ ما يلي : الجودي هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من اعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح.

(٢) القرآن — سورة نوح آية ٢٥ و٢٦

نوح في التوراة

وذكرت قصة نوح في التوراة بشيء من الاختلاف عما هي عليه في القرآن وذلك في بعض امور نبينها فيما يلي :

ذكرت التوراة انه في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفجرت طاقات السماء وكان المطر على الارض أربعين يوماً واربعين ليلة. في ذلك اليوم عينه دخل نوح واولاده سام وحام ويافث وامرأته وثلاث نساء بنيه الى الفلك. . وتعاظمت المياه على الارض مائة وخمسين يوماً . . واستقر الفلك في السابع عشر من الشهر على جبال اراراط . . وكلم الله نوحاً قائلاً: اخرج من الفلك انت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك[١].

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة . فكانت كل ايامه تسعمائة وخمسين سنة ومات .

وجاء في سفر التكوين عن حجم السفينة ما يلي :

« اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من خارج وداخل بالقار . وهكذا تصنعه ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك ، وخمسون ذراعاً عرضه ، وثلاثون ذراعاً ارتفاعه[٢]» .

وهناك اشارة واضحة في التوراة الى اغراق جميع من كان على وجه البسيطة من الاحياء حتى الحيوانات :

« وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الارض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال فمات كل ذي جسد كان يدب على الارض من الطيور والبهائم والوحوش. وكل الزحافات التي كانت تزحف على الارض وجميع الناس، كل ما في انفه نسمة روح حيوة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الارض : الناس والبهائم والدبات وطيور السماء فانمحت من الارض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط[٣]» .

---

(١) الكتاب المقدس — سفر التكوين اصحاح ٧ و٨ و٩

(٢) الكتاب المقدس — سفر التكوين اصحاح ١٤ و١٥

(٣) الكتاب المقدس — سفر التكوين اصحاح ٧

فنحن نرى ان قصة نوح كما رويت في هذا القصص الديني فيها الشيء الكثير مما لم يروَ لا في التوراة ولا في القرآن وفيها هذه المبالغات الفاحشة في كل شيء وهذه التفاصيل التي اوحت بها مخيلة الرواة .

ولعلنا لو قارنا بين حجم سفينة نوح كما ورد في القصص الديني وهو يبلغ الف ذراع طولاً وخمسمائة ذراع عرضاً وثلاثمائة ذراع سمكاً وبين حجمها كما ورد في التوراة ، لأتضحت امامنا هذه المبالغات الفاحشة ولاستطاع القارىء ان يكون لنفسه فكرة عن هؤلاء الرواة .

اما القرآن فلم يذكر شيئاً عن حجم السفينة ولكنه ذكر عن ابن لنوح عصى اباه ولم يشأ ان يدخل السفينة فهلك مع الهالكين مع ان التوراة لا تذكر شيئاً من ذلك.

كذلك هناك مسئلة زوج نوح وقد ذكرت في التوراة انها رافقت زوجها الى السفينة وكانت بجانبه هي وبنوها ونساء بنيها . اما في القرآن فامرأة نوح كانت كافرة وهلكت مع القوم الهالكين . وليس شيء من جميع هذه الامور مذكوراً في هذا القصص الديني الذي بين ايدينا وان ذكر شيء فبطريقة خيالية بعيدة كل البعد عن العلم والحقيقة المجردة .

هذه هي حكاية نوح وهذا ما عنّ لنا ان نعلقه عليها . ولا بد من الرجوع الى بعض تفاصيلها عندما نبحث في بعض مزايا هذا القصص الديني . والى القارىء قصة ابراهيم :

قصة ابراهيم

ولادته

ولد ابراهيم بالسوس[١] من ارض الاهواز بعرف البعض وفي بابـــل من ارض السواد[٢] بناحية يقال لها كوثا بعرف البعض الآخر . وهناك من يقول انـــه ولد بالوركاء[٣] في حدود كسكر او في بحران[٤] . هذا ما جاء في القصص الديني اما في الكتب المقدسة فلم يذكر شيء من ذلك . وترافق ولادته اسطورة مفادها ان الكعبة عند ولادتـه ، خرّت ساجدة وقالت : لا اله الا الله وحده ، لا شريك له . والاصنام كلها اصبحت منكوسة وضربت السباع باذنابها الارض لحمـــل ابراهيم وطلع نجمه وله طرفان احدهما بالمشرق والآخر بالمغرب . وكان له ضياء كضوء الشمس والقمر[٥]

وكان ابراهيم ، وهو لا يزال طفلاً ، يمص اصابعه الخمس فتدر له الابهام عسلاً والسبابة خمراً والوسطى لبناً والبنصر زبداً والخنصر ماء ! .

ابراهيم والاصنام

وكان ابو ابراهيم تارح يصنع الاصنام ويعطيها لابنه ليبيعها فيذهب بهـــا ابراهيم وينادي : من يشتري ما يضر ولا ينفع ؟ فلا يشتري احد منه . فاذا بارت عليه ذهب بها الى نهر وضرب رؤوسها وقال لها : اشربي .. كسدتِ .

---

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت مج ٣ : ١٨٨ - ١٨٩ ما يلي : السوس بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي . والسوس ايضاً بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية . وفتحت الاهواز في ايام عمر بن الخطاب على يد ابي موسى الاشعري وكان آخر ما فتح منها السوس .

(٢) « السواد موضعان ، احدهما نواحي قرب البلقاء . والثاني يراد بها رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب » معجم البلدان مج ٣ : ١٧٤

(٣) « الوركاء بالفتح ثم السكون . موضع بناحية الروابي ولد به ابراهيم الخليل ، وهو من حدود كسكر » معجم البلدان مج ٤ : ٩٢٢

(٤) الثعلبي — العرائس ص : ٤٦

(٥) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٢٩

ابراهيم والنمرود

ويذكر هذا القصص ان النمرود كان الملك الحاكم في زمن ابراهيم وانه كان معبود الشعب والههم وله مملكته الارض ، شرقها وغربها . وكان نمرود هذا اسود ، احول ، افطس يهابه الشعب ويرتعد منه فرَقاً عند ذكر اسمه ويسجدون له بكرة وعشياً الا ابراهيم فقد خالف الجميع وعصى اوامر النمرود وكذّبه بين جمهور الناس وسفّهه وهزىء منه ومن اصنامه واخذ يعظه قائلاً : « من اياتي ان ادعو الاسود والافيلة والكلاب واسلطها عليك وامر سريرك فيسقطك عنه وامر تاجك ويطير عن رأسك، وامر قصرك ويقع عليك ، انما الله لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير[1] » .

فكان النمرود يغتاظ لمثل هذه الاقوال واخذ يعذب ابراهيم . فامر به فقيدوه وادخلوه الحبس تحت الارض . فكانت الملائكة تأتيه بطعام وشراب من الجنة . واجترح ابراهيم العجائب الغريبة ليحمل النمرود على الايمان فلم يؤمن . لقد استطاع ان يجمع بين اربعة اخوة من ابناء العرب ، كان الملك قد غضب عليهم فحبسهم واحداً في السجن وكان مع ابراهيم ، وواحداً بالمشرق والثالث بالمغرب ، والرابع باليمن . فعل ابراهيم كل ذلك بعد ان صلى ركعتين مع ان السحرة عجزوا ، رغم كل ما اوتوا من مهارة ، ان يقوموا بشيء مما قام به نبي الله[2] !

ومن الطريف حقاً ان نذكر باختصار هذه الحرب الشعواء التي شنها النمرود على نبي الله ابراهيم وعلى اتباعه الذين رأوا اعماله فآمنوا بعجائبه . ساء النمرود ان يتجبر ابراهيم عليه وان يعصي اوامره وينفّر قلوب الشعب من حوله فأمر بحفر حفرة واسعة، وامر بجمع الحطب الكثير على الدواب والبغال مدة اربع سنين . ثم أضرمت هذه النار فالتهبت وعلا دخانها حتى انتهى مقدار اربعمائة ذراع ورموا بابراهيم في هذه النار وهو عريان فلم يصبه اذىً من حرها . واتاه جبريل بسرير من ذهب والبسه لباساً اخضر من الجنة واحاطت به الملائكة بمقدار مئة الف !

النمرود يحاول الانتقام من اله ابراهيم

وتبلغ الحماقة بالنمرود وقد رأى ان النار لا تؤثر في ابراهيم ان يتخذ له تابوتاً مربعاً

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٣٤

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٣٥

يكون له بابان ، باب الى السماء ، وباب الى الارض . ويسمر في اركان التابوت عمودين من حديد يربط اليهما اوساط اربعة من النسور . فتطير بالتابوت في الجو وفيه النمرود يحمل قوساً ونشاباً وهو يصعد الى مقاتلة اله ابراهيم !

الملاك ينصح النمرود

ويتلقاه ملك في الهواء ويقول له : ويلك يا نمرود الى اين تريد ? فيقول : انا اريد اله ابراهيم لاحاربه . فكم بقي بيني وبينه ? وعندما يسمع النمرود ان بين الارض والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام وان سمك السماء كذلك ، وهي سبع سماوات ، وبين كل سماء كما بين السماء والارض ، غضب واخذ القوس ووضع فيه سهماً ورمى به في الفضاء محاولاً ان يقتل اله ابراهيم . فارتد اليه السهم ملطوخاً بالدماء على ما يقال[1] . ولكن جبريل لم يطق صبراً على مثل هذه التهجمات تصدر عن ملك عات متمرد نحو العزة الالهية فضرب بريشة من ريشه التابوت والقاه في البحر بمن فيه ولكن الامواج قذفته الى الساحل فخرج النمرود منه وقد ابيضت لحيته ورأسه . وانتهت حياة النمرود انتهاء مفجعاً اذ اقبلت اليه بعوضة فقعدت على لحيته ، فهمّ بقتلها، فدخلت في احد منخريه ، وصعدت الى دماغه واكلت اللحم والمخّ والدم وجعلت تسبح الله حتى مر اربعون يوماً والنمرود لا ينام ولا يأكل ولا يشرب . واخيراً اتخذ له عصاً من حديد وامر اعوانه ان يضربوا بها رأسه لكي تسكن البعوضة في الداخل . واخيراً ضربه احد وزرائه ، وكان ذا بأس شديد فشق رأسه نصفين وخرجت البعوضة ، وهي « كفرخ الحمام » وهي تقول : لا اله الا الله ، ابراهيم رسول الله وخليله ! وكان من الطبيعي ان يموت النمرود بعد كل هذا .

والحقيقة ان هذه الاسطورة تلفت نظر القارىء وتستوقفه وتستدعيه الى التساؤل: من اين اتى جامعو هذا القصص بها ? وعلى ماذا استندوا في سردها ? وللجواب على ذلك رجعنا الى القرآن الكريم نستعرض جميع الآيات التي ورد فيها ذكر لابراهيم فلم نجد ذكراً للنمرود ولكن في بعض الآيات اشارة الى ملك تجري بينه وبين ابراهيم محاورة شبيهة بالمحاورة التي جرت بين ابراهيم والنمرود .

« ألم ترَ الى الذي حاجّ ابراهيم في ربه ان اتاه الله الملك اذ قال ابراهيم: ربي الذي

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٤٠

يحيي ويميت . قال : انا أُحيي وأُميت. قال ابراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب، فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين[١] ». والذي حاج ابراهيم في ربه واتي الملك ليس غير النمرود في عرف جامعي هذا القصص .فهم يذكرون ذلك بوضوح وجلاء، لا يقبلان الشك عندما يسردون حياة ابراهيم في تفاصيلها، وعندما يحاولون ان يروا اصولها في القرآن .

ومن المرجّح ان يكون اصل هذه الاسطورة قد نقل عن اليهود فلو اجرينا مقابلة بسيطة بين هذه الحكاية كما جاءت في هذا القصص العربي وبين طريقة سردها كما وردت في الفصل السادس عشر من كتاب : Midrâsh Rabbâ . وهو تعليق على التلمود ، لاتضح لنا التشابه ولظهر لنا النقل ظهوراً واضحاً . هذا ما يقول به القس تيسدال في كتابه « اصول القرآن[٢] » .

ويذكر المؤرخ المعروف ابو الفدا (٦٧٢ م) هذه الحكاية باختصار كلي مؤكداً اتصال ابراهيم « بالنمرود بن كوش الذي كان ملك تلك البـــلاد » . ويحاول القس تيسدال المذكور، بعد ان يقارن بين مختلف هذه الروايات ان يؤكد ان قصة النمرود ووضعه ابراهيم في النار ليست الا من مخترعات الخيـال ومبتكرات القصاص اليهود الاقدمين . وان المؤرخين العرب وقصاصيهم نقلوها الى اللغة العربية دون فهم او تمحيص .لاسيما وان التوراة تذكر النمرود وتذكر انه عاش قبل ابراهيم بزمن طويل.

هذا ما خطر لنا حول هذه الاسطورة . بقي ان نقول ان ابراهيم امتثالاً لاوامر الله اخذ ابنه اسحق ليقدمه قرباناً « فقال الرب يكلم عبده ابراهيم : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه (اسحق) واذهب الى ارض الموريا[٣] واصعد محرقة على احد الجبال الذي اقول لك[٤] . هذا ما جاء في التوراة . ويتصدى الى تكذيب هـذا القول شيخ من شيوخ الاسلام في كتاب ضخم هو كتاب: قصص الانبياء لعبد الوهاب النجار. فيقول معلقاً على قول التوراة المار ذكره : « وفي رأيي ان مسئلة الذبح كانت قبـل ولادة

---

(١) القرآن — سورة البقرة آية ٢٦٠

(٢) Tisdall, W. St Clair – The Original Sources of the Qur'an p: 66

(٣) جبل الموريا هو الذي عليه مدينة اورشليم

(٤) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٢٢

اسحق وان ابراهيم اسكن اسماعيل وامه مكان مكة قبل مسئلة الذبح وانها حصلت بنواحي مكة لا في جبل الموريا[١] » . ثم يتهم اهل التوراة بتحريف كتابهم وبانهم مشهورون بذلك ومن شاء شيئاً من ذلك فليراجع ما كتبه كتّاب المسلمين في هذا الشأن . يفعل النجار كل ذلك ليجعل الذبيح اسماعيل بدل اسحق اذ كيف يكون اسحق هو الذبيح وهو ابو اليهود ولا يكون اسماعيـــل وهو ابو العرب ؟ ويتكلف عبد الوهاب النجار بحثاً طويلاً محاولا ان يؤكد ادعاءه، مستنداً على التوراة نفسها مع ان نص التوراة اوضح من ان يقبل شرحاً او تأويلاً .

ولسنا في موقف الدفاع عن التوراة. وليس في مقدور من كان مثلي ولا من رأيه ان يثير مثل هذه البحوث وان يرد على القسس والمشايخ ولكني اعيد الحقائق من ان تصبح تحت اقلام بعض الكتاب عرضة للذم والتحقير خاصة متى كانت هـذه الحقائق واردة في الكتب الدينية اياً كان نوعها .

هـذه هي تعليقاتنا على قصة ابراهيم كما جاءت في الكتب الدينية وكما زوّقتها مخيلة القصاص . وليس قصدنا ان ندرس جميع الانبياء وان نحلل حياتهم واحداً واحداً كما يظهرون في هذا القصص . انما نكتفي بدراسة حكاية يوسف الصديق من انبياء التوراة ففيها امور غريبة كثيرة وهي قصة مشهورة ذكرت في جميع الكتب المقدسة حتى قيل فيها : « ما بعث الله نبياً الا وقص عليه قصة يوسف كما قصها على النبي محمد[٢] » .

على انه لا بد من التعرض لحياة عيسى ومحمد كما وردت في هذا القصص الذي ندرسه لاسيما وان لهما شأناً كبيراً يختلف في تأثيره واهميته عن اي نبي من الانبياء الذين مر ذكرهم .

---

(١) عبدالوهاب النجار — قصص الانبياء ص : ١٣٥
(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٧٩

قصة يوسف

قصة يوسف اطرف الحكايات الدينية واشدها انتشاراً بين العامة والخاصة. زد على ذلك انها كانت نواة صالحة للأدباء رأوا فيها مادة غزيرة للقول والشرح والتأليف. ولن احاول ان اسرد هذه الحكاية في تفاصيلها كما وصلتنا من مصادرها المختلفة لان ذلك باستطاعة من يشاء الرجوع الى تلك المصادر والاطلاع عليها، ولكني ذاكر بعض حوادثها الرئيسية كما وردت في الكتب الدينية ثم موقف هذا القصص الديني من تلك الحوادث . وهل يتفق معها ؟ والى اي حد ؟

من هو يوسف ؟

هو يوسف بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحق بن ابراهيم. وكان جميل الصورة، فطناً ذكياً ، يفضله ابوه على سائر اخوته .

رؤيا يوسف

رأى يوسف ، يوماً ، في منامه ان احد عشر كوكباً سجدوا له . كذلك حلم حلماً آخر وقصه على اخوته قائلاً : « ها نحن حازمون حزماً في الحقل ، واذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي[1] » . فابغضه اخوته واضمروا له الشر حتى اذا سنحت لهم الفرصة واجتمعوا به في البرية ، وهم يرعون المواشي تآمروا عليه ورموه في الجب . ثم مرت بهم قافلة من الاسماعيليين تقصد مصر وقافلة أخرى من المديانيين فسحبوا يوسف من الجب وباعوه للأسماعيليين. واشاع اخوة يوسف ان وحشاً قد افترسه وحملوا الى والدهم قميص اخيهم ملطخاً بالدم . فمزّق الوالد الحزين ثيابه وابى ان يتعزى لهذه المصيبة الفادحة تحل بابنه الحبيب وقال : « اني انزل الى ابني نائحاً الى الهاوية[2] » .

ولنقف هنا لنقابل ما قدمناه ، وهو مستقى من التوراة والقرآن معاً ، بما جاء في

---

(١) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٣٧
(٢) الكتاب المقدس — سفر التكوين الاصحاح ٣٧

القصص الديني الذي ندرسه فنرى « ان الله كان قد اهدى الى ابراهيم خمسة اشياء صارت كلها الى يوسف . وهن : عمامة اهديت اليه يوم بُعث الى نمرود . وقميص الحلّة اهدي اليه يوم اتخذه الله خليلاً ، ومنطقة النصر والرضوان تمنطق بها يوم القي في النار ، وخاتم النبوة ، وقضيب النار الذي كان له خمس شعب مكتوب على الاولى : ابراهيم خليل الله وعلى الثانية اسحق ذبيح الله ، وعلى الثالثة اسماعيل صفي الله ، وعلى الرابعة يعقوب اسرائيلي الله ، وعلى الخامسة يوسف صديق الله[١] » .

ونرى كذلك ان الله ما سمح ان يجري ليوسف ما سمح به الا لان يعقوب اباه جاءه يوماً فقير وشم رائحة طعامه فلم يطعمه !

ونلاحظ ان الرواة همهم التأثير في القارىء لذلك فلا يتركون سانحة تسنح دون ان يستغلوها ويقصوها بطريقة محزنة ، مؤثرة . فهم يذكرون ان اخوة يوسف عذبوه قبل ان رموه بالجب . ولم يسقوه بعد ان اجهده التعب والعطش بل كسر اخوه شمعون الكوز وقال له : « قل لاحلامك الكاذبة تسقيك[٢] » ثم تقدم منه ولطمه على وجهه !

ونرى ان الجب في نظر هؤلاء ضيق ولكنه عميق وهو على قارعة الطريق ، وان ماءه مالح . وقد حفره سام بن نوح وقد كتب عليه : هذا جب الاحزان !

حتى طريقة انزال يوسف في الجب طريقة تستوعي الانتباه ويلعب فيها خيال القصاص دوراً . فبعد ان نزع الاخوة ثياب اخيهم ، شدوا وسطه بالحبل وادلوه . ولما قرب من وسط البئر اطلقوا الحبل من ايديهم كي يقع ويموت . ولكن جبريل كان هناك فأخذه بين يديه قبل ان يصل الى قعر الجب . وبسط على وجه الماء صخرة عظيمة كانت في قعر الجب[٣] فاجلس يوسف عليها واتاه بطعام ، وشراب من الجنة فاكل وشرب . وعندما يعلم يعقوب ابو يوسف بفقد ولده يحرّم الضحك والفرح على نفسه وعلى السباع الضارة والوحوش الشاردة . ويبقى يوسف في الجب ثلاثة ايام ! اما الذي انتشله منه فهو مالك بن دعر الخزاعي . هذا ما يقوله القصص الديني ! .

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٥٦ و١٥٧

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٥٨

(٣) مر معنا القول في التوراة ان البئر كان فارغاً من الماء

يوسف وامرأة العزيز

ولنعد الى سياق القصة كما جاءت في التوراة وفي القرآن ثم نقارنها بما جــاء في هذا القصص .

قيـل ان يوسف بيع الى فوطيفار في مصر وهو خصي فرعون ورئيس الشرط . فأكرمه اكراماً عظيماً ورأى على وجهه الخير والسعادة والبركة فلم يمنعه عن شيء ممـا كان يملكه . وكان يوسف ، كما مر معنا ، جميل الخلقة ، حسن الصورة والمنظر ، فاحبته امرأة سيده وجاءت تلاطفه وتراوده عن نفسه فامتنع يوسف عن اجابتها الى طلبها وهو المؤمن الذي يحفظ الجميل .

اما في القصص الذي ندرسه فالقصاص يتوسعون في شرح الآية : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله . انـه ربي احسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون. ولقد همّت به وهمّ بها لولا ان رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنـه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ، واستبقَ الباب وقدت قميصه من دُبُرٍ والفيا سيدها لدى الباب[1] » .

فيقولون ان امرأة العزيز بنت لنفسها بيتاً حسناً مزيناً بكل زينة سمته بيت الفرح والسرور وزيّنت نفسها وقعدت على سريرها ودعت بيوسف واجلسته على الكرسي وغلقت الابواب وارختِ الستور . ثم قالت . يا يوسف ، هيتِ لك معناه انا لك . . واخـــذت تحاوره باعذب الاحاديث وتحثّه على ارتكاب الاثم والمنكر حتى اذا بقي مصراً على امتناعه هددته بقتل نفسها اذ اخذت سكيناً وهمّت انـ تضرب بها نفسها فاقترب يوسف منها ليأخذ السكين من يدها وليرميها جانباً فألقت نفسها عليه . وكاد يوسف ان يقع في الخطيئة لولا ان هبط جبريل وتمثل له بصورة ابيه يعقوب وهو عاض على انامله . وهذا تفسير لقول الآية المار ذكرها :

« وهمّت به وهمّ بها ، لولا ان رأى برهان ربه » .

---

(١) القرآن — سورة يوسف آية ٢٤

يوسف يسجن ثم يطلق سراحه

ليس في ادخال يوسف السجن واخراجه منه ما يلفت النظر من حيث الاختلاف سواء كان في التوراة او في القرآن او في اقوال المفسرين، اللهم الا بعض ذيول وحواش لا تخلو منها حكايات المفسرين . من ذلك ان فرعون عندما اناب يوسف خليفة عنه وولاه على اهل مملكته ، اخذ يوسف ، بما له من حكمة وحنكة ، يجمع الغلال ويخزنها مدة السنين السبع الخصبة حتى اذا وافت سنو الجوع السبع اخذ يبيع الشعب « في السنة الاولى بالدنانير ، وفي السنة الثانية بالحلي والجواهر ، وفي السنة الثالثة بالبعير والخيل ، وفي السنة الرابعة بالدور والمنازل ، وفي السنة الخامسة بالبساتين والازراع ، وفي السنة السادسة بانفسهم حتى صاروا عبيداً له . ثم اطعمهم في السنة السابعة لانهم كانوا عبيده[١] » .

وهناك اشارة الى ان يوسف ، رأى بين الجموع التي كانت تتزاحم في طلب الغلال امرأة العزيز فلم يعرفها ، بعد ان هزلت من الجوع. فسألها عن نفسها فاخبرته وذكرت حاجتها الى الطعام . فبكى يوسف وارجعها الى ماضي عزّها سيدة مصونة محترمة . ثم تزوج منها بشهادة الملك ريّان بن الوليد ، وبحضرة ملوك مصر . ودخل بها فوجدها لا تزال بكراً فولدت له ولدين افرائم ومنشا .

وليس لي ان اعلق على مثل هذه الروايات وقد مر القارىء بالكثير مثلها ، فهي ضعيفة الثقة لا تقوم على شيء من الحقيقة. ولا بد من الاشارة هنا الى ما جاء في الاصحاح الحادي والاربعين من التوراة بهذا الشأن فيرى القارىء الفرق ويحكم :

« ودعا فرعون اسم يوسف (صفنات فَعْنيح) واعطاه بنتَ فوطيْ فارَعْ كاهن أون زوجة . وولد ليوسف ابنان قبل ان تأتي سنة الجوع . ولدتهما له اسنات بنت فوطي فارع كاهن اون. ودعى يوسف اسم البكر منسى قائلاً لان الله انساني كل تعبي وكل بيت ابي ودعا اسم الثاني افرايم قائلاً لان الله جعلني مثمراً في ارض مذلتي[٢] » .

اما كيف تتحول اسنات ابنة فوطيفارع كاهن اون وزوجة يوسف الى زليخا

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٦٧

(٢) الكتاب المقدس — سفر التكوين اصحاح ٤١

امرأة العزيز ويتحول ابوها فوطيفارع الى فوطيفار زوج زليخا فهذا ما لا نعرفه ولا نستطيع ان نجيب عليه . فالقصاص وحدهم هم المسؤولون عن ذلك !

وليس في ما تبقى من هذه الحكاية ما يهمنا درسه لان سياقها واحد في جميع المصادر سوى بعض المحاورات الطريفة التي يذكرها الكسائي وغيره من القصاص ، وقد جرت بين يوسف واخوته عندما اقبلوا مع المقبلين يطلبون من فرعون مصر ، غلة لهم ولعيالهم . قال لهم يوسف :

« يا اولاد يعقوب ! ان من العجب ان يأكل الذئب اخاكم وفيكم من يصيح بالاسد فيخرّ ميتاً ، وفيكم من يأخذ برجل الذئب فيشقه نصفين ، وفيكم من اذا صاح وضعت الحوامل ما في بطنها ، وفيكم من يقلع الشجرة من اصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقها » . قالوا :

« نعم ايها العزيز وفينا من يفعل اكثر من ذلك ، لكن اذا جاء القضاء عمي البصر ، وضعفت القوة[١] » .

ويتحادث يوسف مع اخيه الصغير بنيامين وهما يأكلان معاً على مائدة واحدة فيقول يوسف لاخيه :

« هل تزوّجت ؟ قال : نعم ورزقت ثلاثة اولاد ذكور . قال : وما اسماؤهم ؟ فقال : اسم اكبرهم ذئب لان اخوتي زعموا ان اخي يوسف اكله الذئب . واسم الثاني دم لان اخوتي جاءوا بقميص اخي يوسف ملطخاً بالدم واسم الثالث يوسف كاسم اخي » .

وامثال هذه المحاورات كثير لا اثر له لا في التوراة ولا في القرآن .

اما يوسف فقد مات وعمره مئة وعشر سنوات بحسب قول التوراة ، فحنطوه ووضعوه في تابوت بمصر .

---

(٣) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٧٠ و١٧١

قصة عيسى

كنت أود لو تناولت بالبحث قصة سليمان ، لولا ضيق المقام. ففي هذه القصة يتسع مجال القول وينفسح المدى امام خيال الرواة والقصاص . فتعليم الله نبيّه سليمان منطق الطير ، وتسخير الرياح له، وانتقال العرش من مكان الى مكان وتسخير الجن، وبلقيس ملكة سبا وزيارتها لسليمان واسئلتها العديدة بصورة الاحاجي ، كل ذلك يجعل هذه القصة فريدة في بابهـــا من حيث الادب والفن . ولكننا نرى ان الرسالة قد طالت والموضوع قد تشعّب وتنوّع . وليس بمستبعد ان نعود ، عاجلاً او آجلاً ، الى كثير من هذه الموضوعات التي حملنا على اختصارها حملاً فندرسها درساً عميقاً ونحللها تحليلاً ادبياً ما وسعنا الحظ الى ذلك سبيلاً . اما الآن فنحن مضطرون الى تناول حياة السيد المسيح كما رآها هؤلاء القصاص وكما وردت في القرآن الكريم ثم نختم البحث بذكر نتفٍ عن النبي محمد نذّيلها ببعض الآراء الخاصة في هذا القصص .

يظهر ان عيسى القصاص هو غير عيسى الانجيل لان امه مريم دامت مدة حبلها به ثمانية اشهر على قول البعض ، وستة اشهر على قول البعض الآخر وثلاث ساعات او ساعة واحدة على قول البعض الثالث[١] .

ويولد عيسى من غير ابٍ اذ ينفخ الملاك جبريل في جيب درع مريم . وولادتـه كانت حدثاً تاريخياً عظيماً اقام الشياطين واقعدهم فعقدوا الاجتماع تلو الاجتماع وتشاوروا مع ابليس (وهو على عرشه في لجة خضراء) واخبروه ان امراً عظيماً حل بالاصنام فنكّس رؤوسها الى الارض . وهم ابليس ان يكتشف الامر فطار (واحصى الارض كلها في ثلاث ساعات مشرقها ومغربها ، برها وبحرهـــا ، والخافقين والجو) حتى مر بالمكان الذي ولد فيه عيسى واذا به يجده محاطاً بالملائكة يسهرون عليه من كل حدب وصوب . فرجع خائباً واخبر جماعته بالامر قائلاً : « ما اشتمل رحِمٌ انثى على ولد الا بعلمي ولا وضعته الا وانا حاضرها . وما كان نبي اشد علي وعليكم من هذا المولود[٢] .

ويشاء القصاص ان يذهب عيسى الى الكتّاب ليتعلم، وكان عمره تسعة اشهر، فاذا بالمؤدب يسأله ان يقول : باسم الله الرحمن الرحيم واذ بعيسى يردد هذه الجملة كلمة كلمة.

---

(١) العرائس — التعلبي ص : ٢٢٧

(٢) التعلبي — العرائس ص : ٢٢٨

ويتشجّع المؤدب ويسأله ان يقول : (ابجد) فيرفع عيسى رأسه ويقول لاستاذه: هل تدري ما ابجد ؟ ولما لم يستطع المؤدب ان يعرف الجواب الصحيح اخذ عيسى يشرح له كلمة ابجد هكذا :

« اما ابجد : فانها اربعة احرف : الالف الله (أو لا اله الا الله) والباء : بهاء الله (او بهجة الله) والجيم : جلال الله ، والدال : دين الله .

هوّز : الهاء هو الله (او جهنم وهي الهاوية) والواو : ويلة للمكذبين (او ويل لاهل النار) والزاي : زبانية للكافرين (او زفير اهل جهنم)

حطي : الحطّة للخاطئين (او حطة الخطايا عن المستغفرين) والطاء : شجرة طوبى للمؤمنين . والياء : يد الله على خلقه اجمعين .

كلمن : الكاف كلام الله (او كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته) واللام: لقاء الله ، والميم : مالك يوم الدين ، والنون : نور الله

سعفص : السين : سنّة الله (او صاع بصاع والجزاء بالجزاء) والعين : علم الله . والفاء : فعل الله . والصاد : صدق الله في وعده .

قرشت : القاف : قدرة الله (او تقرشهم حين تحشرهم اي تجمعهم) . والراء : ربوبية الله . والشين : مشيئة الله . والتاء : تعلى الله عما يشكرون[١] » .

فما كاد المؤدب يسمع بهذا الشرح العجيب الغريب حتى أخذته الدهشة من علم عيسى وسعة اطلاعه فأخذه لامه وقال لها: خذي ولدك انه لا يحتاج الى معلم. وفي هذه القصة وغيرها كثير تظهر سذاجة القصاص وفقرهم الشديد الى التمحيص العلمي التاريخي وميلهم لكل عجيب غريب حتى ولو كان مما لا يقبله العقل ولا يقر به المنطق .

عجائب السيد المسيح

لقد قال القرآن الكريم بعجائب المسيح او ببعضها كما جاءت في الاناجيل[٢] . فلمَ لا يقول بهذه العجائب رواة القصص؟ بل لماذا لا يعمدون الى اكثر من ذلك فينسبون

---

(١) الكسائي — ص : ٣٠٦ والثعلبي ص : ٢٢٩ ما بين الملايين للثعلبي

(٢) القرآن — سورة آل عمران آية ٤٨ و٤٩ و٥٠ . وسورة المائدة آية ١٠٩ . وسورة الزخرف آية ٦٢ و٦٣

الى السيد المسيح عجائب ومعجزات غير مذكورة لا في الاناجيل ولا في القرآن . من ذلك ان عيسى استطاع ان يعرف صفات ابن الملك قبل ان ولد فقال لابيه : « ان في بطن زوجتك غلاماً جميلاً احدى اذنيه اطول من الاخرى ، وعلى صدره خال اسود ، وعلى بطنه شامة بيضاء[1] » ... الخ .

وهو يستطيع ان يحول الوان الاصباغ ساعة يشاء ، الى ما يشاء . كالسحرة. تماماً !

وتصديقاً الى انه يحيي الموتى فلقد احيا سام بن نوح فوثب من قبره وكان قد مضى على موته اربعة آلاف سنة . ولقد تكلم سام بعد قيامه من الموت وقال : لما سمعت صيحة عيسى ظننت انها صيحة القيامة فابيضت لحيتي ورأسي من هولها .

ويذكر الثعلبي في كتاب العرائس كثيراً من مثل هذه الحكايات والاخبار لا نرى فائدة في سردها وتعدادها وكلها على غط واحد واسلوب واحد .

وهذه العجائب والمعجزات ، يأتي بها القصاص ، مقتبسة في اكثرها ، عن الاناجيل او عن الرواة اليهود الذين اسلموا ولهم المام بالدين المسيحي واليهودي . وها اننا موردون معجزة اقامة لعازر من القبر كما وردت في هذا القصص وفي الانجيل لنرى وجه التشابه ومقدار الاقتباس . جاء في العرائس ما يلي :

واحيي (اي عيسى) امواتاً منهم لعازر ، وكان صديقاً له . فأرسلت اخته الى عيسى ان اخاك العازر يموت فاتاه ، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة ايام . فاتاه هو واصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة ايام، فقالوا لاخته: انطلقي بنا الى قبره، فانطلقت معهم الى قبره ، وهو في صخرة مطبقة . فقال عيسى : اللهم ! ربّ السماوات السبع . انك ارسلتني الى بني اسرائيل ادعوهم الى دينك واخبرتهم اني احيي الموتى باذنك فاحيي العازر . فقام العازر وخرج من قبره وبقي ، ووُلد له[2] » .

وجاء في انجيل يوحنا في الاصحاح الحادي عشر :

« وكان انسان مريضاً وهو لعازر من بيت عنيا من قرية مريم ومرتا اختها . وكانت مريم ، التي كان لعازر اخوها مريضاً ، هي التي دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها . فارسلت الاختان اليه قائلتين : يا سيد ، هو الذي تحبه مريض .

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٣٠٥

(٢) الثعلبي — العرائس ص : ٢٣٣

فلما سمع انه مريض مكث حينئذٍ في الموضع الذي كان فيه يومين . ثم بعد ذلك قال لتلاميذه : ... لعازر حبيبنا قد نام . لكني اذهب لاوقظه . فقال تلاميذه يا سيد ان كان قد نام فهو يشفى. وكان يسوع يقول عن موته . وهم ظنوا انه يقول عن رقاد النوم . فقال لهم يسوع حينئذٍ علانية : لعازر مات ! .

وذهب يسوع مع تلاميذه فوجدوا انه قد مضى على مدته اربعة أيام. فجاء يسوع الى القبر وكان مغارة وقد وُضع عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر . قالت له مرتا اخت الميت : يا سيد ، قد انتن لانه له اربعة ايام . قال لها يسوع : الم اقل لك ان آمنت ترين مجد الله . فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعـاً ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : ايها الآب اشكرك لانك سمعت لي وانا علمت انك في كل حين تسمع لي . ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ، ليؤمنوا انك ارسلتني . ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلم خارجاً . فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات باقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب[1] .

فلو قارنا ولو مقارنة بسيطة بين الروايتين لرأينا شبهاً كبيراً اولاً في سياق الحادثتين وثانياً في اتفاقها حتى في بعض التعابير والكلمات مما يدل على ان الاقتباس موجود . وقل كذلك في كثير من الروايات والحكايات .

ونحن نرى ان المسيح في القصص الديني الذي ندرسه يجترح العجائب ، صغيرها وكبيرها ، فهو يخلق الطير من الطين ويبرىء الاكمه والابرص ويشفي العمي ويحيي الموتى ، ويعلم الغيب ، ويخبر الناس بما يأكلون وما يشربون وما يدخرون في بيوتهم وهو يمشي على الماء ، يفعل كل ذلك بامر من الله وباذن منه .

« يروى ان عيسى خرج في بعض سياحته ومعه رجل من اصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى . فلما انتهى عيسى الى البحر قال : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء . فداخله العجب فقال : هذا عيسى روح الله يمشي على الماء ! وانا امشي على الماء . قال : فانغمس في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله عيسى من الماء واخرجه وقال له : ما قلت يا قصير ؟ فاخبره بما خامر خاطره فقال عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه . فمقتك الله على ما قلت فتبْ الى الله مما قلت ،

---

(١) الكتاب المقدس — يوحنا اصحاح ١١

فتاب الرجل وعاد الى مرتبته التي وضعه الله فيها[١] » .

فهذه الرواية ليست الا صدًى لما جاء في انجيل متى في الاصحاح الرابع عشر :

« وللوقت الزم يسوع تلاميذه ان يدخلوا السفينة ويسبقوه الى العبر حتى يصرف الجموع ، وبعد ما صرف الجموع صعد الى الجبل منفرداً ليصلي ، ولمـــا صار كان هناك وحده . واما السفينة فكانت قد صارت في وسط البحر ، معذبة من الامواج ، لان الريح مضادة . وفي الهزيع الرابع من الليــل مضى اليهم يسوع ماشياً على البحر فلما ابصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين : انه خيال . ومن الخوف صرخوا . فللوقت كلمهم يسوع قائلاً : تشجعوا انا هو لا تخافوا . فاجابه بطرس وقال : يا سيد ان كنت انت فمرني ان آتي اليك على الماء وذهب ليأتي الى يسوع . ولكن لما رأى الريح شديدة خاف واذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً : يا رب نجني . ففي الحال مد يسوع يده وامسك به وقال له : يا قليل الايمان لماذا شككت ؟ ولمـا دخلا السفينة سكنت الريح والذين في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين : بالحقيقة انت ابن الله[٢] » .

والذي يظهر بارزاً في هذه المعجزة ، وهو الذي حمل القصاص على نقلها في زعمنا ، هو عنصر الشك الذي لمجرد تسربه الى ضمير المؤمن يفسد ايمانه . نقول ذلك خاصة بعد ان نقرأ لواضعي هذا القصص مثل هذا الحديث عن النبي . قيل :

« حدّثنا ابو منصور الحمشاوي باسناده الامام، عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذي ليس بعده جهل . ومـا بلغ ذلك احد قط . قالوا : ولا انت يا رسول الله ؟ قال : ولا انا . قالوا : يا رسول الله قد بلغنا ان عيسى بن مريم مشى على الماء . قال نعم ولو ازداد خوفاً ويقيناً لمشى على الهوى. قالوا: يا رسول الله ما كنا نرى ان الرسل تقصر فقال : ان الله تعالى ابلغ شأناً من ان يبلغ احد شأنه[٣] » .

عيسى في القصص الديني

والحقيقة ان عيسى في هذا القصص فيه من كل شيء . فيه من لون الانجيل وفيـه

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٢٣٤

(٢) الكتاب المقدس — متى الاصحاح الرابع عشر

(٣) الثعلبي — العرائس ص : ٢٣٤

من لون القرآن وفيه فوق هذا وذاك من لون القصاص الذين اغرموا بكل طريف غريب وكل اسطورة وخرافة . فبينما ترى خبراً من أخبار السيد المسيح يسرد كما هو معروف في الانجيل يدل على حنو المسيح وحبه للبشر وعطفه عليهم اذا بك تقرأ أنه يقوم بغزوة يغزو بها بني اسرائيل ويقتل منهم خلقاً كثيراً !

وعيسى البسه الله ثوب الهيبة واعطاه ما رجاه وطهره ورفعه اليه وكساه الريش والبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب فهو يطير مع الملائكة حول العرش لانه انسي وملكي ، وارضي وسماوي .

وعيسى هو كلمة الله « لان الله قال له : من غير اب كن فكان ، فوقع عليه اسم الكلمة لانه بها وجد[1] » . اما مدلول « الكلمة » والمقصود منها ، او تفسيرها الديني ، فليس شيء من ذلك مذكوراً في كل هذا القصص .

واراد القصاص ان يزيدوا في هيبة المسيح وتكريمه فجاءوا باحاديث نسبوها الى النبي العربي الكريم تؤيد نظريتهم . قالوا : « حدّث الحسين بن احمد بن محمد بن علي باسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « كيف يهلك الله امة انا في اولها ، وعيسى في آخرها . والمهدي من اهل بيتي في وسطها » !

وقيل : اخبر محمد بن القاسم الفارسي باسناده عن ابن هريرة قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « اذا اهبط الله المسيح عيسى يعيش في هذه الامة ما يعيش ، ثم يموت في مدينتي هذه ويدفن الى جنب قبر عمر . فطوبى لابي بكر وعمر يحشران بين نبيين » .

وايضاً : اخبرنا ابو صالح شعيب . قال رسول الله : الانبياء اخوة لعَلاّت[2] امهاتهم شتى . ودينهم واحد . وراني اولى الناس بعيسى بن مريم عليهما السلام لانه لم يكن بيني وبينه نبي . ويوشك ان ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً وانه نازل على امتي وخليفتي

---

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٢٢١

(٢) جاء في الحديث : « الانبياء بنو عَلاّت » اي انهم لامهات مختلفة ودينهم واحد . (المعاجم)
وجاء في كتاب النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير ج ٣ : ١٢٤ ما يلي :
الانبياء اولاد علّات ، اولاد العلات الذين امهاتهم مختلفة وابوهم واحد ، اراد ان ايمانهم واحد وشرائعهم مختلفة
النهاية في غريب الحديث والاثر مجد الدين ابي السعادات المبارك ابن محمد بن محمد الجزري المعروف بابن الاثير سنة ١٢١١

عليهم فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع ، الخلق الى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه يقطر ولم يصبه بلل ، ينزل بين مخصرتين فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ، ويهل من الروحاء حاجاً او معتمراً او ملبياً بهما جميعاً ، ويقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك في زمانه الملل كلها غير الاسلام وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجـــال ، وتقع الآمنـة في الارض حتى ترتع الاسود مع الابل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضاً. ثم يلبث في الارض اربعين سنة ويتزوج ويولد ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه في المدينة بجنب عمر[١] » .

وكان هذا الحديث كافياً ليستغله الرواة ويكتبوا عنه ما شاء لهم خيالهم ان يفعلوا فيقول الكسائي متكلماً عن السيد المسيح :

« ... ثم رفعه الله اليه وهو باق حياً في السماء ، الى ان يأذن له بالنزول لقتال الدّجال فيقتله فتملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . ثم يتزوج بامرأة من العرب وتولد له ويحجج ويعمر ثم يموت، ثم يخرج ياجوج وماجوج وهي من كل حدب ينسلون فتملأ الارض منهم حتى لم يبق للوحوش والهوام موضع تستقر فيه ثم يتوجهون الى بيت المقدس لقتال عيسى... الخ الخ[٢] » . وهنا يرخى القاص لخياله العنان فيصنّف هذه الخلائق التي تقاتل عيسى الى اصناف منهم من هم كالنخل الشاهق بطولهم وعرضهم يأكلون الاشجار والاثمار .

ومنهم من طولهم ذراع واحد وعرضهم ذراع واحد وهم يأكلون النبات ! ومنهم من طوله شبر واذنه ذراع ، يفرشون اذنـــاً تحتهم واخرى فوقهم ، ويشربون جميع المياه ! ولكن عيسى يدعو عليهم فيرسل الله عليهم عفاريت الجن فيهلكونهم عن آخرهم حتى اذا اكمل عيسى اربعين عاماً ارسل الله اليه ملك الموت ليقبض روحه فاتى جبريل ومعه مسك من الجنة ليرفعه الى عيسى. فأخذه عيسى وشمه فطارت روحه فيه ثم نزلت الملائكة اليه يغسلونه ويحنطونه ويدفنونه الى جانب قبر النبي محمد .

هذه هي الصورة التي تعلق بذهن القارىء عن السيد المسيح في هذا القصص. وهي

---

(١) التعلبي — العرائس ص : ٢٤٠

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص ٣٠٧ و٣٠٨

صورة سوداء مشوّهة الى آخر حدود التشويه . ومن المضحك حقاً ان يعتقد القارىء ان باستطاعة هؤلاء القصاص ان يرسموا صورة صحيحة للسيد المسيح ، خاصة وان المؤهلات لذلك تعوزهم اشد العوز. فلقد رأينا قلة اعتمادهم على التاريخ عامة وعلى تاريخ المسيحية بصورة خاصة . فهذه المعلومات التي وصلتهم عن الدين المسيحي وعن انبياء التوراة لم تصلهم الا على يد بعض اليهود الذين اشتهروا بالكذب وقلة التمحيص العلمي.

وهناك فقر هؤلاء القصاص في العلوم الفلسفية والفقهية التي يحتاجها كل من اراد ان يدرس نبياً وان يحلل تعاليمه تحليلاً فلسفياً . خاصة وان هذه التعاليم مبنية في اساسها على الروح كتعاليم الديانة المسيحية .

ونحن نظلم هؤلاء الرواة في بحثنا هذا ونحرج موقفهم احراجاً كبيراً. فليس هناك من يدعي انهم قاموا بشيء من كل ما ذكرناه ، او انهم ، وقد احاطت بهم الظروف التي مر ذكرها ، كانوا اهلاً لحمل مثل هذا العبء الثقيل . وليس لمؤمن ، مسلماً كان ام مسيحياً ، ان يرى في هذا القصص حقيقة دينية ، دون الرجوع الى الكتب الدينية وكتب التفسير المعروفة . ورب معترض يقول : ولكن هذه الحكايات وضعت اول وضعها لتفسير آيات القرآن واسهبت في شرح حياة الرسل والانبياء مستندة على القرآن وانها تحمل لوناً قرآنياً وتصطبغ بالصبغة الاسلامية فكيف تحذّر المسلمين من الاخذ بها واعتبار حقائقها ؟ جواباً على هذا سأعرض امام القارىء صورة للنبي محمد كما يظهر في هذا القصص ثم اشفعها ببعض الامثلة التي تلون هذه الحكايات بالروح الاسلامية فيرى القارىء في ذلك ما لا يطمئن اليه عقل العالم ولا روح المؤمن !.

النبي محمد في القصص الديني

يقسم هذا القصص الديني من حيث مادة الموضوع الى قسمين رئيسيين : في القسم الاول يتناول حياة النبيين والمرسلين الذين جاءوا قبل النبي محمد . وفي القسم الثاني يتناول حياة النبي محمد ويتوسع في شرح الآيات القرآنية كما مر معنا الحديث . فمن الطبيعي ان يذكر محمد في القسم الثاني لانه هو النواة التي يدور القصص عليها في هذا القسم . اما الذي يلفت النظر حقاً فهو ورود ذكر النبي محمد في سياق الحكايات حول الانبياء الاقدمين مثلا على ذلك حديثه عن آدم بعد طرده من الجنة وكيف ان الله وعده بولد اسمه شيث ولما وضعته حواء رأته على صورة هابيل وكان على وجهه نور النبي محمد[١] .

ولادة محمد

امتاز الاسلام بمزايا كثيرة جعلته ديناً سماوياً خاصاً له مزاياه الخاصة وتقاليده الخاصة ككل دين سماوي آخر. وابرز هذه الصفات في نظري هي البساطة والوضوح. فكلنا نعرف ان محمداً ولد كما يولد كل طفل آخر ، وانه نشأ وترعرع بطريقة معلومة ندرسها في كتب التاريخ وهي هي لا تتغير ولا تتبدل. اما ولادة محمد في نظر القصاص فليست كذلك والى القارىء شيئاً من ذلك :

« لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ارتجس (ارتجف) ايوان كسرى، وسقطت منه اربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بالف عام ، وغاضت بحيرة ساوه[٢] ، ورأى الموبذان[٣] ابلاً صعاباً (غير منقادة) تقود خيلاً عِراباً (عربية منسوبة الى العرب) قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها[٤] .

وفي سياق الحديث عن خلق الله لادم ان الله آمر ملاكه جبريل ليأخذ قبضة من الارض، فصدع جبريل بالأمر وصعد بالتراب الى الله تعالى فأمره انيجعل التراب طيناً

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٧٣

(٢) مدينة بين الري وهمذان ـ راجع ياقوت ـ معجم البلدان ج ٣ : ٢٤

(٣) الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين .

(٤) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج ٢ : ١٠٨ والطبري — تاريخ الامم ٢ : ١٣١

وان يخمره ويعجنه بالماء المر والعذب والملح. ثم امر الله ملاكه جبريل ان يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الارض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمداً. فهبط جبريل في ملائكة الفردوس المقربين وقبض قبضة من موضع قبر النبي وهي، يومئذٍ بيضاء نقية فعجنت بماء التسنيم[١] ورعرعت حتى صارت كالدرة البيضاء، ثم غمست في انهار الجنة كلها. فلما اخرجت من الانهار نظر الحق سبحانه وتعالى، الى تلك الدرة الطاهرة، فانتفضت من خشية الله، فقطر منها مائة الف قطرة، واربعة وعشرون الف قطرة. فخلق الله من كل قطرة نبياً، فكل الانبياء من نور محمد خلقوا. ثم طيف بالقبضة في السماوات والارض فعرفت الملائكة حينئذٍ محمداً قبل ان تعرف آدم[٢].

محمد وسائر الانبياء

يلاحظ اذن ان النبي محمد يختلف عن جميع الانبياء. فاذا كان جميع الانبياء قد خافوا من الموت فمحمد اقبل عليه هاشاً باشاً. ومحمد قد رأى الملك جبريل وتحدثا معاً اكثر من مرة. ولقد رأى الملاك جبريل محمداً يبكي فبكى معه الى ان ناداهما الله من السماء قائلاً: «يا جبريل ويا محمد! ان الله تعالى قد آمنكما من غضبه فلا يعذبكما[٣]».

اما فضل النبي محمد على سائر الانبياء فكفضل جبريل على سائر الملائكة. وهو اول نبي جاء في الميثاق والوحي ولقد جاء نوح بعده ونوح سينتظره ليدخل الجنة قبله وهو يدعوه: حبيبي محمد. ويوم البعث هو اول من تنشق عنه الارض[٤].

ولقد تنبأ بمجيء النبي محمد كثير من الانبياء الذين ذكرهم القرآن. فموسى يمشي على البحر ويجد الواحاً من الذهب مكتوباً عليها: باسم الله الرحمن الرحيم. لا اله الا الله، محمد رسول الله[٥].

وسليمان يركب الهواء ويمر بمدينة النبي محمد ويقول عنها: هذه دار هجرة نبي، وهو سيد المرسلين. فطوبى لمن رآه وآمن به! ويمر بمكة ويقول: هذا مولد ذلك النبي،

---

(١) التسنيم هو ماء في الجنة يجري فوق الغرف والقصور وقيل: هو ارفع شراب اهل الجنة (المعاجم)

(٢) الثعلبي — العرائس ص: ١٧

(٣) الكسائي — قصص الانبياء ص: ٢٨٥

(٤) الثعلبي — العرائس ص: ٣٨

(٥) الكسائي — قصص الانبياء ص: ٢٣٣

وفضل هذا البلد (اي مكة) على سائر البلدان كفضل محمد على سائر الانبياء[١] .

وشيت يبني المدن والمنائر ينادي عليها : لا اله الا الله ، آدم صفوة الله ، ومحمد حبيب الله[٢] .

اما آدم والجنة والنار فلم تخلق لولا محمد . عن قتادة عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس قال : اوصى الله تعالى الى عيسى عليه السلام : يا عيسى: آمن بمحمد وأأمر امتك ان يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه : لا اله الا الله محمد رسول الله[٣] فسكن .

كذلك سفينة نوح التي مر ذكرها، لم تصحّ ولم تستطع ان تقاوم الامواج وصخب المياه الا بعد ان سمّر نوح فيها اربعة مسامير ، عليها اسماء اصحاب محمد[٤] .

وهناك في موضع سيرة « الحماليق » حيث يقطر من الورق ماء كحمرة الدم يوجد قبر هود ، دخله احد الناس ورأى هود ولمس بدنه . ولم يعد يعمل فيه البلاء بعد شيئاً ورأى عند رأسه صخرة مثل اللوح مكتوباً عليها بالهندية ثلاثة اسطر :

اولها : لا اله الا الله ـ محمد رسول الله

الثاني : وقضى الله الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً[٥] .

موت النبي محمد

وكما قبض الله روح نبيه آدم هكذا فعل بمحمد. لقد هبط ملك الموت لقبض روح آدم بامر من الخالق العظيم ، بصورة لا ينزل بها على احد الا على محمد[٦] .

فنحن نرى ان في جميع هذه الاوصاف شيئاً من النبي محمد ولكنها جميعها لا تعطينا صورة النبي كما ترتسم امامنا من كتب التاريخ او كتب السير . ذلك ان الرواة لم يقصدوا الى تحري الحقائق بقدر اهتمامهم في اثارة فضول القارىء وذلك بعرضهم امامه حوادث عديدة ومفاجآت مدهشة ونوادر مضحكة ساذجة ، ان استلذتها العاطفة وقتاً، فلا يستسيغها العقل ولا يقبلها المنطق السليم .

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٢٨٥

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٨٠

(٣) الثعلبي — العرائس ص : ١٦

(٤) الكسائي — ص : ٩٣

(٥) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٠٩ و١١٠

(٦) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٧٧

مزايا القصص الديني

١ – الصبغة الاسلامية
- ا – تمجيد نبوة محمد
- ب – تقديس يوم الجمعة
- ج – تفسير آيات القرآن

٢ – الخوارق

٣ – روعة الوصف وغرابته

٤ – العظة
- ا – الدينية
- ب – الاجتماعية

واخيراً نرى ان لهذا القصص مزايا خاصة به، وهي تظهر بارزة كما هي مدوّنة اعلاه واليك بعض الامثلة :

الصبغة الاسلامية

تبدو الصبغة الاسلامية في هـــذه الحكايات بوجوه متعددة اهمها تمجيد نبوة محمد وتقديمه على جميع الانبياء وذكره بين انبياء التوراة وقد مر معنا امثلة كثيرة تؤيد ما ذهبنا اليه من ان هذا القصص وضع لرفع شأن النبي العربي وآله ودينه . وليس لي ان

اضيف الى الامثلة السابقة الا اسطورة حمل الرياح للنبي وذهابه لزيارة اهل الكهف[١].

وتبدو الصبغة الاسلامية واضحة في ذكر الآيات التي يستدعي وجودهـا سياق الحكاية مما يدل على ان الحكاية وُضعت خاصة لتفسير الآيات القرآنية . وهي كثيرة تملأ تضاعيف الحكايات ، لا نرى فائدة من ذكر الامثلة عليها .

تقديس يوم الجمعة

وللصبغة الاسلامية ، في القصص الديني ، لون بارز في ذكر يوم الجمعة كأنه اعظم الايام لان فيه تجري اعظم الامور واهم الاحداث .

ففي يوم الجمعة استتمت الروح في جسد آدم خمسمائة عام عند زوال الشمس[٢] .

وسجد جميع الملائكة لآدم في يوم الجمعة . وبقوا في سجودهم الى العصر فجعل الله ذلك اليوم عيداً لآدم ولأولاده الى يوم القيامة[٢] وكما يخلق الله آدم يوم الجمعة فهو يقبض روحه في يوم جمعة ايضاً[٣] .

ويأمر الله الملائكة ان تحمل البيت الحرام الى السماء وذلك في يوم الجمعة . وفي يوم الجمعة يولد اكثر الانبياء كابراهيم واسحق وغيرهما .

ويرى يوسف رؤياه في ليلة الجمعة ، وعندما يعلم ابوه يعقوب بوجود ابنه يوسف في ارض مصر يأتي اليه مع كل آله ويدخلون ارض مصر يوم الجمعة[٤] .

وموسى يتأفف من الموت ، ثم يعود فيرضى به على ان يطلعه ربه على الساعة التي يقبض فيها روحه فيخبره بانه متوفاه في يوم جمعة[٥] .

ويدخل يشوع بن نون مدينة اريحا مع جيشه يوم الجمعة[٥] . وبكلمة واحدة تقوم الساعة وقت الضحى يوم الجمعة[٦]

---

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٢٤١
(٢) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٢٧
(٣) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٧٧
(٤) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٥٧
(٥) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٢٤٠
(٦) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٣٠٩

فانت ترى ان العالم كله وُجد يوم الجمعة ، وان العالم كله سيزول في يوم جمعة !

وهناك تفاصيل كثيرة غير التي مر ذكرها تبين ، بجلاء ووضوح اصطباغ هذا القصص بالروح الاسلامي حتى ولو كان الحديث عن الزمن الذي سبق ظهور الاسلام .

فزيد بن عمرو يتلمّس الدين الصحيح فلا يجده لا في اليهودية ولا في النصرانية بل في الدين الحنيف ، دين ابراهيم . مع ان زيداً يموت سنة ١٧ ق. هـ.[١] .

وعندما قبل الله توبة آدم ارسل الملاك جبريل قائلا : اذهب وحيه مني بالاسلام . ويحمل جبريل الكلمات من الله لآدم فاذا هي بعض الآيات القرآنية[٢] .

اما انبياء العهد القديم كابراهيم واسحق وداود وسليمان فهم كلهم مسلمون . كذلك هي امرأة ايوب ابنة افرائم بن يوسف كان اسمها رحمة وكانت مسلمة[٣] .

والنبي اسحق يخرّ ساجداً لله ويرفع يديه الى السماء باشارة التوحيد وهي اشارة الاسلام[٤] .

وعندما رفع عيسى الى السماء حُجِبَ ابليس عن اربع شهوات اما عندما رُفع محمد فحجب عن جميعها[٥] .

وعندما امر فرعون بقتل امرأته الصالحة هبط الملاك جبريل ليبشرها بالجنة وان الله قد زوجها بالبشير النذير ، السراج المنير محمد[٦] .

ومكة هي بيت الله الخاص زارها آدم وفيها قبره

اما الكعبة فلقد تم بناؤها على زمن آدم ! وهي مبنية من خمسة اجبل : طورسينا وطورزينا ولبنان والجودي[٧] والحجر الاسود وجد مقدساً منذ كانت الخليقة . فلقد رفع الله البيت الذي كان يحج اليه آدم صيانة له من الغرق في الطوفان كما ان جبريل

(١) ابو الفرج الاصفهاني — الاغاني ٣ : ١٢٦
(٢) الكسائي — ص : ٥٥
(٣) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٧٩
(٤) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٥٠
(٥) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٨٠
(٦) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٢١٧
(٧) الثعلبي — العرائس ص : ٥٢

خبّأ الحجر الاسود في جبل ابي قبيس صيانة له من الطوفان ايضاً[١] .

وقد وردت قصة اهل الكهف ضمن هذه الحكايات الدينية وفيها تعزيز للاسلام حتى ان الرواة جعلوا بعض شخصياتها شخصيات مسلمة ، مع ان المعروف ان هـذه القصة حدثت لفتية مسيحيين على زمن الملك داقيوس والقصة شائعة في الآداب السريانية[٢] .

والحقيقة التي تبدو لنا من كل ما تقدم ان كلمة مسلم تفيد معنى خاصاً في هـــذه الروايات المذكورة وفي القرآن الكريم . فعند ما جاء يوسف يشكر الله تعالى ، معلناً نعمته عليه ، دعى الله تعالى ان يتولاه في الدنيا والآخرة وان يتوفاه مسلماً اي مطيعاً لله ، غير عاصٍ ولا آثم[٣] .

كذلك هم الحواريون، اصحاب المسيح الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه وهم: سمعان بطرس ، اندراوس ، يعقوب بن زبدى ، يوحنا اخو يعقوب ، فيلبس ، برتولماوس ، توما ، متى العشار ، يعقوب بن حلفى ، لباوس ، سمعان ، يهوذا الاسخريوطي كل هؤلاء كانوا مسلمين !

اقرأ هذه الآية :

« فلما احس عيسى منهم الكفر قال: من انصاري الى الله ؟ قال الحواريون : نحن انصار الله ، آمنا بالله واشهد بانا مسلمون[٤] .

وهذه :

« واذ اوصيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا: آمنا واشهد باننا مسلمون[٥]»

فيتضح من هذه الآيات ومن كثير غيرها ان رواة القصص كانوا ، وهم يتحدثون عن اسلام الانبياء الاقدمين ، يستندون الى مثل هـــذه الآيات الواردة في القرآن الكريم ويعتمدون على الفكرة العامة التي تقول بان الاسلام انما يبتدىء بالنبي ابراهيم .

---

(١) الثعلبي — ص : ٣٥ و٥٢

(٢) انيس فريحه — مجلة الابحاث السنة ١ ج ٣

(٣) النجار — قصص الانبياء ص : ١٧٣

(٤) القرآن — سورة آل عمران آية ٥١

(٥) القرآن — سورة المائدة آية ١١٠

الخوارق في القصص الديني

قلنا ان مزايا هذا القصص كثرة الخوارق التي يصعب تصديقها حتى عـــلى السذج من الناس .

فمن وصفه للملائكة جبريل واسرافيل وعزرائيل ،

الى وصف السماء والجحيم ، الى خلق الارض بطريقة خارقة ، الى خلق الجن ، الى صفة النار ، الى صفة ابليس العابد، وابليس المتمرّد ، الى ذكر اساطير بلقيس ملكة سبأ ، الى كيفية دخول الروح في آدم وعدد السنين التي تقضيها في هذا الدخول ،

الى الطاووس العجيب الذي له جناحان يغطي بهما سدرة المنتهى ،

الى نوم صالح مدة اربعين سنة ،

الى اغراق ابليس نفسه في البحر الاعظم سبعين يوماً ، الى مركبة سليمان الهوائية يطير عليها من مكان الى مكان الى ولادة ابراهيم وكيف درّت له اصابعه اللبن والعسل والزبدة والخمرة والماء ،

الى البقرة الحسناء الجميلة التي تحـاول ان تنطح نمرود لعتوه وعبادته الاوثان فيذبحها ثم يعيدها الله الى الحياة وينبت لها جناحين لتطير في الهواء ،

الى نمرود يغزو الله في تابوت تحمله النسور فينطلق في الجو في سفرة خيالية يخر على اثرها مصعوقاً ويبقى مختبئاً في قعر البحر اياماً طويلة،

الى كبش المذبحة الذي يحسن الكلام ويدعي انه رعى في مروج الجنة اربعين خريفاً،
الى عصا موسى السحرية الى حية مثل الجمـــل ، تقطّع الصخور وتبتلع كل شيء وتتكلم باعلى صوتها مع فرعون ،
الى الحجارة والعواميد التي تتكلم ،
الى الاطفال الذين ينطقون بالحق وهم لا يتجاوزون الستة اشهر ،
الى الريح التي تحمل رائحة قميص يوسف الى ابيه يعقوب من مسيرة عشرة ايام ،
الى تفسير ابجد هوز تفسيراً عجيباً غريباً مر ذكره ،
الى النار التي تكلم آدم ،

الى هذه السبعمائة لغة التي يتكلمها آدم ،
الى قابيل الذي يتزوج بجنيّة وهابيل الذي يتزوج بحوراء ،
الى الزهرة المرأة الفاتنة الجميلة التي طغت هاروت وماروت فمسخت كوكباً ! .
الى ... الى ما شاء القارىء من مثل هذه الروايات وفيها الطريف المسلي وفيها الساحر الفتان ، وفيها الساذج السخيف !

ولن اقف طويلاً عند هذه الروايات الخارقة ، والخرافات الكثيرة ، والمبالغات الخيالية بعد ان ابديت رأياً فيها[1] على انني اسرع فاضيف الى ما قلته سابقاً ان هذه المبالغات وهذه الخرافات ليست وقفاً على امة دون اخرى بل هي ، على الارجح ، وليدة العصور القديمة، يتساوى في ذلك العرب وغير العرب من الشعوب القديمة. وهذه الياذة هوميروس ومثلها جحيم دانتي وكثير غيرها من الملاحم القديمة ، كلها مشحون بالحوادث العجيبة والاقاصيص الغريبة. وقد نقل المؤرخ جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية رسوماً عن اصول خطية ترجع الى القرن الثالث عشر للميلاد، وهي تمثّل الاسكندر المقدوني يحارب اقواماً رؤوسهم وحشية واقواماً آخرين متوحشين لكل منهم ست أيدٍ[2] .

وهذه المبالغات لا تلفت النظر لمخالفتها العقل والمنطق فحسب بل في انها تخالف النواميس الطبيعية ايضاً . وهي كما ذكرنا سابقاً ، وليدة البيئة والعصر اكثر مما هي خاصة بشعب معين من الشعوب .

والذي يثير العجب في هذه الخوارق ويدعو الى التساؤل حقاً هو اعمار بعض الانبياء وعدد السنين التي يعيشها كل منهم . . فآدم عمّر نحو الف سنة ونوح ٩٥٠ سنة وشيت ٩٢٠سنة وعوج بلغ ٢٠٠ سنة وكان طوله نحو ٣٣٠٠ ذراع! وهارون بلغ١٢٧ سنة وابراهيم ١٧٥ سنه واسحق ١٠٠ سنه وموسى ١٦٠ سنه وهكذا قل في بقية الرسل والانبياء . فما معنى هذه السنين ؟ وهل كانت تعني لهم ما تعنيه لنا اليوم؟ واذا كان كذلك فكيف نفسر هذه الاعمار الطويلة في ذلك الزمن بينما اكثر اعمار ابناء اليوم لا تبلغ الثمانين او التسعين ؟

والحقيقة انه ليس لدينا جواب قاطع على هذا السؤال ولن نتعدى في ردنا ما قاله

---

(١) راجع هذه الرسالة ص : ١١٤ - ١١٦
(٢) زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ : ٢٩٧

بعض الذين حاولوا ان يدرسوا هذه الظاهرة وهاك بعض آرائهم :

ان الانبياء الاولين والذين عاشوا في زمنهم استطاعوا ان يعمروا طويلاً لخلوّ اجسامهم من الامراض الفتاكة والمتاعب ، والصعوبات التي تنهك الجسم البشري في الوقت الحاضر .

فلا يستطيع جيلنا ان يعمّر كالاجيال الغابرة .

ولولا هذه الحياة الضنكة ، تستنفد قوانا وجميع ما ندّخره من عناصر الحيـــاة والنشاط لاستطاع الواحد منا ان يعيش نحو المئتي والثلاثمائة سنة. هذا هو رأي بعض العلماء الغربيين .

وهناك رأي آخر وهو ان العام في نظر ابناء الماضي لم يكن يعتبر اكثر من شهر من شهورنا فالف سنة من سنيهم تساوي الف شهر من شهورنا . وهـــذا ما عناه ابو العلاء في قوله :

ورووا للمعمرين اموراً لست ادري ما هن في المشهور
أتراهم ، فيما تقضى من الايام عدوا سنيهم بالشهور ؟
كلما لاح للعيون هلال كان عاماً لديهم في الدهور
هكذا ينبغي والا فان العقل يثني في حالة المبهور[١]

وهناك من يشير الى ان المغالاة ظاهرة في هذه الروايات لانه يستحيل على الانسان ان يعيش خمسة قرون واحياناً عشرة، اذا صدقنا هذه الروايات ، مهما خلا جسمه من الامراض ومهما ابتعدت عنه الهموم والهواجس ! ويستشهد اصحاب هذا القول ببعض المعمرين في وقتنا الحاضر. فاذا ما سألت احدهم عن عمره الحقيقي اجابك فوراً: عمري طويل ، طويل جداً يبلغ المئة فما فوق . وتكون الحقيقة دون ذلك بكثير . وربما كان القصاص يتبعون هذه الطريقة فلا يأبهون للارقام ولا يهتمون بالاعداد[٢] ولكن اذا صح هذا القول على رواية الرواة وقصص القصاص فهل يصح اطلاقه وتطبيقه على التوراة والقرآن وفي كليهما ذكر لهذه الارقام الضخمة ؟ بقي ان نعود الى كتب التفسير

(١) عبد القادر النجار — قصص الانبياء ص : ٦٨

(٢) الهمداني — كتاب الاكليل ج ٨: ٢٠٣ راي لناشر الكتاب الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي

المختلفة عن اسفار التوراة . والحقيقة ان في بعض تلك الكتب محاولات لشرح هذه الارقام ولكنها محاولات تبقى في حيز التخمين لا يطمئن اليها الباحث اطمئناناً علمياً[١].

اثر التوراة في القصص الديني

لقد بيّنا اثر التوراة ، وهو بارز واضح ، في هذا القصص الديني وهنا نشير الى مقدار هذا الاثر والطرق التي تسرب منها الى هذا القصص .

يرجع ذكر التوراة الى القرآن الكريم ككتاب من الكتب المنزلة « انا انزلنا التوراة فيها هدًى ونور[٢] » . فكان من الطبيعي ان ينظر اليها علماء المسلمين نظرة اجلال واحترام وان يتأثر بها الرواة والمؤرخون وخاصة في بحثهم حياة الرسل والانبياء.

والمظنون ان التوراة ترجمت الى اللغة العربية قبل الاسلام وقد شاعت بين الادباء العرب يومذاك ولكنها فقدت. اما الترجمة العربية للتوراة فقد ظهرت في العصر العباسي الثاني[٣] . ويذكر ابن النديم ان احد علماء اليهود المتمكنين من اللغة العربية واسمه سعيد الفيومي وقد ترجم التوراة وان له عدة مؤلفات دينية اخرى[٤] .

ويذكر ابن النديم ترجمة اخرى لاحمد بن عبدالله بن سلام . ولقد تأثر كثير من ادباء العرب ورواتهم في الاعصر العباسية بالتوراة وغيرها من كتب اليهود الدينية ولكن معلوماتهم تلك كثيراً ما كان يشوبها الخلط التاريخي فتأتي مشوّهة ، مليئة بالاساطير والخرافات ، بعيدة عن الحقيقة والمنطق ذلك انهم كانوا يستقون من منبع واحد ، لا يصح الاعتماد عليه ولا يركن اليه الا وهو : كعب الاحبار ووهب بن منبه.

كعب الاحبار

اما كعب فهو اقدم اخباري في الاسرائيليات وقصص الانبياء، يهودي الاصل من اليمن، اعتنق الاسلام في خلافة ابي بكر او عمر على الاغلب. عاصر النبي ولكنه لم يره.

---

(١) S. R. Driver — The Book of Genesis — London p: 79

(١) J. Skinner — Genesis -- Edinburgh, 1910 p: 127

(٢) القرآن — سورة المائدة الآية ٤٨

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية — زيدان ج ٢ : ١٥٥

(٤) ابن النديم — الفهرست ص : ٢٣

وهب بن منبه

اما وهب فقاص من اليمن ، مشهور في اخباره عن اهل الكتاب ، فارسي الاصل يذكر الفهرست انه من اهل الكتاب ويزعم ابن خلدون انه يهودي والاغلب انه ولد مسلماً .

اخباره عن اهل الكتاب منتشرة في اكثر المصادر العربية وتزعم هذه المصادر انه قرأ نحو سبعين كتاباً من كتبهم المقدسة مما لا يستطاع تصديقه لان اكثر اخباره منقولة شفاهاً عن اهل الكتاب .

وهناك غير هذين الاخباريين ممن كان يهودياً فاسلم فحمل معه الى الاسلام هذه الاخبار الكثيرة منقولة عن التوراة وهذه المنقولات هي التي سميت بالاسرائيليات . ولقد شاعت هذه الروايات وانتشرت انتشاراً كبيراً حتى مُلئتْ بها كتب القصص الديني واهمها الكتابان اللذان ندرسهما وهما كتابا الثعلبي والكسائي .

ولم يقف تأثير هؤلاء الرواة على القصص الديني الذي ندرسه بل تأثر الاسلام بنظريات عديدة تسربت اليه عن طريق هؤلاء الرواة منها : اهتمام مؤرخي المسلمين كالطبري وابن الاثير وابن قتيبة بنقل تاريخ بني اسرائيل ومحاولة البحث في جواز نسخ القرآن ، جرياً على بحث اليهود في نسخ التوراة ، والقول بخلق القرآن كما قال بعض اليهود بخلق التوراة من قبل ، وكثير من الامور الكلامية التي تسربت عن طرق متعددة اهمها الرواة اليهود .

فجميع هذه الروايات وجميع هذه الاحاديث كوّنت ثقافة يهودية كان لها اثرها البين في الثقافة الاسلامية العربية في العصر العباسي عامة وفي القصص الديني بصورة خاصة .

والذي لا بد من ذكره هنا هو ان هذه الثقافة لم تكن كلها صحيحة علمياً لانها لم تؤخذ كلها عن مصادرها الصحيحة كما ذكرنا سابقاً. فبعضها وصل الى المسلمين عن العلماء الموثوق بكلامهم ، وبعضها اخذ عن الرواة الذين لم يتورعوا عن ذكر روايات كثيرة هي بالاساطير اشبه منها بالحقائق الدينية .

وما قلناه عن تأثير هذا القصص الديني بالثقافة اليهودية عامة وببعض اقوال التوراة

خاصة نقوله عن تأثره بالثقافة المسيحية . فلقد رأينا هذا القصص يتعرض لحياة السيد المسيح ويرويها كما فهمها هؤلاء الرواة . كذلك هو يتعرض لحياة زكريا ويحي ابنه (او يوحنا) ومريم وغيرهم كثيرين .

قيمة القصص الديني

١) العبرة — سبق القول ان الغاية الاساسية التي وضع هذا القصص من اجلها هي دينية ، اخلاقية ، اجتماعية . وانه ليبدو من السهولة بمكان ان يستجلي القارىء العبرة الاخلاقية والعظة الدينية من كل حكاية يقرؤها .

فلقد ادعى رواة هذا القصص ان الله سبحانه وتعالى ، ابتلى حواء وبنات جنسها بخمس عشرة خصلة لانها خالفت وصية الله فأكلت من شجرة الخير والشر واطعمت زوجها آدم . وهذه الخصال تؤلف دستور المرأة الاجتماعي بعرف هؤلاء الرواة[١] .

وفي جواب ابليس على سؤال وجهه اليه سليمان الحكيم: « اي الاعمال احب اليك؟» عظة ودرسٌ اجتماعي . قال ابليس مجيباً سليمان :

لولا منزلتك عند الله تعالى ما اخبرتك اني لست اعلم شيئاً احب الي وابغض الى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة[٢] .

وقيل ان آدم وهب من عمره ستين سنة لابن له اسمه داود فلما حان اجل آدم جاء ملاك الموت لقبض روحه ، فطالبه آدم بالاربعين سنة ، فذكره الملاك بانه وهبها لابنه داود فانكر آدم ذلك ، فانزل الله عند ذاك الكتاب واقام الملائكة شهوداً[٣] .

وهناك كثير من الصفات الحميدة التي يمكن اكتسابها من هذا القصص منها :

سعة الصدر ، وعدم مقابلة الشر بالشر، وعمل الخير لوجه الله تعالى، والايمان القوي بالله وبملائكته، ورقة القلب، ورسوخ العقيدة واستهانة الصعائب في سبيل خدمة الحق ودحض الباطل ، والصدق في الوعد ، والاخلاص في الاعمال وما شاكل هذه الصفات التي تحلى بها جميع الرسل والانبياء .

---

(١) الثعلبي — العرائس ص : ٢١ و٢٢
(٢) الثعلبي — العرائس ص : ٢٧
(٣) الثعلبي — العرائس ص : ٣٠

ويكفي ان نذكر ابراهيم وما قام به من رائع الاعمال في سبيل الاله الحق ، وابنه اسحق وقبوله ، دون اقل تأفف او جدل ، ان يقدم ذبيحة الى الرب ، ويوسف وما لاقاه من عذاب شديد وآلام مبرحة من اخوته، وصبره على كل ذلك ثم عفوه عنهم ، وموسى وما قابله به بنو اسرائيل من اضطهاد وجحود ونكران جميل واحتماله كل ذلك ، يكفي ان نذكر كل هذا لنتذكر قول القرآن الكريم : لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب[1] » .

٢) الوصف الغريب – ولهذا القصص جماله الخاص ولونه الخاص وهما يظهران في الوصف الغريب الذي يحمل القارىء الى عوالم فوق هذا العالم ودنياوات غير هـــذه الدنيا . وليس لي ان اخص هذا الوصف بمدح او استهجان لما فيه من روعـة الخيال وسذاجة التفكير ولكنني عارض بعض النموذجات امام القارىء ليكوّن حكمه الخاص بعد ان يطلع عليها .

ان الباحث في هذا القصص ليحتار في الاختيار ، اختيار الامثلة التي قـد تسترعي انتباه القارىء . ايضع امام عينيه وصف ناقة صالح وكيفية ولادتها من الصخرة ؟ ام وصف نمرود الطاغية الجبار وقتله النساء والاطفال؟ ام وصف السماء والجحيم؟ ام خلق الجن من النار وصفة النار ؟ ام كيف اهلك الملائكة مدائن لوط عندما قالت له امرأته : يا لوط ! الى اين تخرج ؟ هل لربك قدرة ان يهلك هذه المدائن كلها ؟ فاتاها حجر من حجارة السجيل ووقع على رأسها واهلكها . فقيل انها بقيت ممسوخة حجراً اسود عشرين سنة ، ثم خسفت بها بطن الارض ، ثم بسط جبريل جناح الغضب واسرافيل جمع اطراف المدن ، وميكائيل جعل جناحه تحت تخوم الارض السابعـــة السفلى ، وعزرائيل تهيأ لقبض ارواحهم بكلاليب من نار . فلما برق عمود الصبح ، قلع جبريل هذه المدن من آخرها حتى بلغ الى الماء الاسود ، ثم رفعها بجبالهـــا ودورها واشجارها وانهارها حتى انتهى الى البحر الذي في الهواء، ثم قلّبها وجعل عاليها سافلها . فسمعت الملائكة الذين في السماء الدنيا لتسبيح الديوك ونباح الكلاب فقالوا : من هؤلاء المغضوب عليهم؟ فقيل لهم : هؤلاء هم قوم لوط ، فضجّت بالتسبيح والتقديس لله ! فنودي جبريل يا جبريل اضرب المدائن التي على جناحك بعضها ببعض وامطر عليها حجارة من سجيل

(١) سورة يوسف — الآية ١١١

فاستيقظ القوم وهم يهوون في الهواء والنـار من تحتهم ، والملائكة يرجمونهم بالحجارة المسومة ، فجعل يخرج من تحت تلك المدن دخان اسود ، منتن لا يقدر احد ان يشمه. وبقيت آثار المدائن ليعتبر بها كل من رآها[١] !

وتبدو سذاجة هذا القصص في الحوار التالي يجري بين ذي القرنين وجبل قاف :
« وخلق الله تعالى جبلاً عظيماً من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف. وهو الذي اقسم الله به فقال ق القرآن المجيد . وقال وهب : ان ذا القرنين اتى على جبل قاف فرأى حوله جبالاً صغاراً. فقال له من انت ؟ قال: انا قاف . قال: فاخبرني ما هذه الجبال التي حولك ؟ فقال : هي عروقي . فاذا اراد الله ان يزلزل ارضاً أمرني فحرّكت عرقاً من عروقي فتتزلزل الارض المتصلة به . فقال: يا قاف : اخبرني بشيء من عظمة الله تعالى . فقال : ان شأن ربنا لعظيم تقصر عنه الصفات وتنقضي دونـــه الاوهام . قال : فاخبرني بادنى ما يوصف منها ؟ قال : ان ورائي لارضاً مسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضاً . ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها ، لولا ذلك الثلج والبرد لاحترقت الدنيا من حر جهنم[٢] .

واليك صفة داود النبي وصفة صوته الذي لم يسمع السامعون مثله :

« روي ان بني اسرائيل تفرّقوا واشتغلوا بملاهي الشيطان . فمنهم من لها بالعيدان ومنهم من لها بالطنابير والمزامير والزنوج[٣] ومـا يشبه ذلك حتى بعث الله داود نبياً وانزل عليه ستين سطراً من الزبور واعطاه من الصوت ما كان يزيد على سبعين لحناً يترسل ويترتل، لم يسمع السامعون مثله خفضاً ورفعاً. وكان يحكي في مزاميره اصوات الرعد وصفير الطيور وحنين الوحوش . وكان يأتي في المزامير بكل صوت طيب في الدنيا فتركوا (كذا) بنو اسرائيل لهوهم ولعبهم واقبلوا نحو محرابه يسمعون منـه اصواته . وكان اذا سبّح سبّحت الجبال معه والطيور والوحوش . وكان داود يوم عبادته ، يذهب الى الهيكل ويدعو باسفار الزبور ، ويأخذ في ترجيع الحانه ، فكان لا يتلو شيئاً من مزاميره الا كانت الوحوش والطيور تجئه (كذا) عند ترجيعه. واستأذنت الملائكة ربها في زيارة داود فنزلت حتى احاطت حول محرابه . فكانوا ينقلون عنـه

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ١٤٩
(٢) الثعلبي — العرائس ص : ٤
(٣) لعلها الصنوج

وترفرف عليه الطيور وتسبّح معه الجبال وتقدس معه الوحوش والسباع الخ[1] .

ولعله من المستحسن ان نختار بعض المقاطع من قصة سليمان وما منحه الله من خصائص جعلته فوق البشر . قيل : « لما توفي داود هبط جبريل على سليمان وقال له : ان الله يقول لك : ايّما احب اليك ؟ الملك او العلم ؟ فخر سليمان ساجداً لله وقال : يا رب : العلم احب الي من الملك . فاوحى الله الى سليمان اني اعطيتك الملك والعلم والعقل وكمال الخلق .

ثم اقبلت الرياح الاربع ووقفت بين يديه وقالت : يا نبي الله ! ان الله قد سخّرنا لك فاركبنا الى اي موضع اردت . ثم اقبلت الوحوش والسباع والطيور وقالت : ان الله قد امرنا بطاعتك لتصنع بنا ما شئت .

ثم اقبل جبريل ومعه خاتم الخلافة الذي اخذه من الجنة يضيء كالكوكب الدري وله لمعان واربعة اركان . مكتوب على الركن الاول : لا اله الا الله ! ومكتوب على الثاني : كل شيء هالك الا وجهه ! وعلى الركن الثالث : له الملك والكبرياء والسلطان وعلى الركن الرابع : تبارك الله احسن الخالقين[2] !

وامر سليمان بني اسرائيل باتخاذ السلاح والسيوف. وكان عنده اثنا عشر الف درع من عمل ابيه داود . فاجابوه الى ذلك باجمعهم .

ثم ان جبريل نشر احد جناحيه بالمشرق والآخر بالمغرب فحشر الجن والشياطين من كل فج وجانب يسوقها سوق الراعي لغنمه ، حتى صارت بين سليمان ، وهم يومئذ اربعمائة وعشرون فرقة ، كل فرقة على غير دين الأخرى . ثم امر الله سليمان ان يبني بيت المقدس عند صخرة المعراج. فجمع سليمان مردة الشياطين وعفاريت الجن وحكماء الانس، وفرّق الشياطين في قطع الصخور ونشر الرخام وغير ذلك. فأمر بحفر الاساس حتى بلغ الماء وأمر ببنيانه فغلب الماء على الاساس . فصنع الجن افلاكاً من نحاس ورصاص وكتبوا عليها : لا اله الا الله ! فثبت الاساس وارتفع البنيان !

... وبنى سليمان البيت المقدس بانواع الجواهر ووضع فيه الف عمود من الرخام ووضع على كل عمود مناراً من الذهب الاحمر ، حتى اذا فرغ من بنائه في مدة اربعين

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٢٥٨ و٢٥٩

(٢) الكسائي — قصص الانبياء ج ٢ : ٢٧٨

يوماً ، لانه كان يعمل فيه كل يوم الف عفريت والف شيطان والف بناء من الانس ، علّق فيه الف قنديل من الذهب الاحمر ، سلاسلها من الفضة البيضاء . ثم قرّب فيه قرباناً عظيماً وقال : الهي وسيدي ! انك البستني لباس النبوة واعطيتني الملك العظيم . اسألك ان تعطيني في بناء بيتك المقدس ما اعطيت ابراهيم الخليل في بناء الكعبة ! .

واستأذنت الملائكة ربها في زيارة البيت فاذن لها . وسمعت الملوك بالبيت المقدس من اطراف الاقاليم فجاءوا لزيارته فتعجبوا من حسنه وصنعته . ثم اتخذ سليمان اثني عشر الف كرسي من العاج والابنوس . واتخذ لنفسه كرسياً من عظام الفيلة ، قوائمه من الذهب ، وضع فيه تماثيل الوحوش والسباع والطيور . وكان مرصعاً باللؤلؤ ، كل لؤلؤة على قدر بيض النعام . وكان في الدرجة الاولى منه كرمة الذهب ، اوراقها من الزبرجد ، وعناقيدها من الجواهر على مثال العنب . وركّب على يمين الكرسي وشماله نخلاً من الذهب وعلى النخل طواويس وطيور وعقبان مجوفة مرصعة بالجواهر تدخل الرياح في اجوافها فتصفر صفيراً لم يسمع السامعون مثله ! .

وركّب على الدرجة الثانية اسدين عظيمين !

وعلى الدرجة الثالثة طيوراً وطواويس ونسوراً !

فكان سليمان اذا صعد الدرجة الاولى ترفرف العقبان والطيور اجنحتها وتنشر عليه المسك .

واذا صعد الدرجة الثانية تصيح الوحوش والسباع ، ويسمع صوتاً وراءه : يا ابن داود اشكر الله على ما اعطاك من هذا الملك العظيم . واذا صعد الدرجة الخامسة سمع نداء يقول : انه بما تعمل بصير . واذا صعد الدرجة السابعة دار الكرسي بما عليه ثم سكن فيجلس عليه فتنشر الطيور عليه المسك والعنبر[1] .

رأي خاص

وليس لي ان ازيد على ما ذكرته من امثلة فكلها تكاد تتشابه معنىً ومبنىً . على اننا نلاحظ على هذا القصص بعض ملاحظات لا بد من ذكرها اتماماً للفائدة .

نرى ان هؤلاء القصاص قد حكموا خيالهم في هذا القصص الى حد بعيد وارخوا له

---

(١) الكسائي — قصص الانبياء ص : ٢٧٨ ـ ٢٨٣

العنان فما وقفوا عند حد ولم يوفقوا ان يصوروا مـا يلذ للعين والاذن والقلب معاً . ورب معترض يقول : ان الخيال من مزايا الاديب القاص التي يحتاجها حاجته الى اي عنصر آخر من عناصر الكتابة ، فنجيب بان خيال الرواة في هذا القصص كان من نوع خاص . هو خيال مكبوت ، محدود لا يسمو بـــك الى فوق حتى يصدمك بالمحسوس الملموس ! وهو خيال واحد ، لا يتغير ولا يتنوع ، يقودك ابداً ودائماً الى هدف واحد وغاية واحدة : هي المادة المجسمة ! وهنا لا بد من الوقوف لنشير الى هذه المادية تجابهك في هذا القصص . فالمسك والعنبر ينتشران عليك من كل حدب وصوب .

وبيت المقدس ، كما رأيت ، يبنيـــه الجن والعفاريت بامر سليمان بانواع الجواهر والرخام والذهب .

والكراسي التي يجلس عليها الانبياء هي من العاج والابنوس وعظام الفيلة .

واللؤلؤ والزبرجد ، على الوانه الجميلة المختلفة ، هي الحجارة الكريمة التي منها تكون الارض والجبال وغير ذلك .

وليس في هـذا القصص شيء من التحليل النفساني او التعليل المنطقي . فلقد رأينا الامثلة العديدة التي لا علاقة بين مختلف اجزائها ولا ارتباط . فقد تجابهك حكاية قائمـة بنفسها ، بينما انت تقرأ حكاية ثانية اخرى ، دون ان يكون للواحدة علاقة بالاخرى .

اما الاخبار العجيبة والمفاجآت الغريبة البعيدة عن التصديق ، الخالية من كل منطق فهي اكثر من ان تحصى ولقد مر معنا امثلة كثيرة عنها .

ونرى ان التسلسل الفكري غير منسجم بل يكاد يكون مفقوداً في بعض الحكايات وبكلمة لم ينظر الراوية او القاص الى الاحداث التي وصفها والحكايات التي قصّهـــا ككل يبحثه او يعلله ويحلله كما يفعل العالم النفساني ، بل كان يطوف هنا وهناك فيرى هنا زهرة وهناك وردة ، ويعثر ، وهو يتخبط ، بدرة او بلؤلؤة ، فيجمع كل ذلك ، ويحمله بين يديه ، فرحاً به ، تماماً كما يحمل الطفل العابه الجميلة ، وهو لا يستطيع ان يجمع بعضها الى بعض او ان يصيغ منها وحدة تلذ للقلب والروح كما تلذ للعين والنظر .

ولقد وصل الينا هذا القصص ، كغيره من الالوان القصصية التي مر ذكرها على

السنة الرواة ففقدت القصة الواحدة بذلك كثيراً من الترابط والتماسك بين اجزائها المختلفة وضاعت الغاية التي وضع من اجلها او كادت .

ولعل ابرز ميزة في هذا القصص، انك لا تجد فيه شخصية لمؤلف او راوية مهما كان هذا المؤلف شهيراً في عالم الادب .

واخيراً لا بد لي، بعد هذا البحث الطويل من التساؤل مع المتسائلين عن غاية هذا القصص او الفلسفة من وضعه ؟ ما هي ؟ وكيف ظهرت فيه ؟ هل صوّر عصره تصويراً صحيحاً، فاظهر لنا العصر العباسي بفسقه وفجوره، ببطشه واحزابه ؟ بامرائه وخلفائه ؟ بعلمائه وادبائه ؟

ما علاقة هذا القصص بعلوم عصره وهل افاد منها او الم بها على مختلف الوانها واسمائها كالطب والفلك والحرب والسياسة والدين والنقش والغناء والموسيقى والتصوير والعرافة والعيافة والكهانة وتفسير الاحلام وعلم الانساب والتاريخ والجغرافيا والادب والشعر وغير ذلك من انواع العلوم والفنون التي عرفت في ذلك العصر ؟

على اي وتر من اوتار العقل او القلب ينقر هذا القصص ؟ هل مزج الحقيقة بالخيال فوحّد بينهما ام هل جرّب ان يسبر اعماق النفس البشرية فيظهر ما فيها ؟

هل مزج الخير بالشر والضعف بالقوة ليعطينا درساً في الحياة مفيداً ؟

وهل استطاع القصاص العرب ان يحيوا الرواية التافهة والاقصوصة الساذجة بانطاق ابطالها امامنا ؟ وهل استطاعوا احياء ابطالهم فوصفوهم وصفاً نفسانياً موفقاً ؟ هل استطاعوا ان يرونا عظمة الزمان القديم وابّهته ، فرحه وترحه ، باسلوب معجب اخّاذ ؟

والمرأة ؟ هل كان لها في قصصهم مكان لائق بها فدرسوها وحللوا نفسها ورأوا فيها انساناً يحس ويشعر ، يفرح ويحزن ، يضحك ويبكي ، تسر الروح به ويسكن الفؤاد اليه ؟ ام عرفوها متعة للجسد وشهوة محرقة للنظر ؟

واخيراً هل ظهرت نفسية العربي في هذا القصص ؟ وما هي هذه النفسية ؟ وما لونها ؟ وهل انفرد العرب بهذا اللون من القصص ام عرفته امم اخرى غيرهم ؟ وهل تساوى العرب في معرفتهم هذا القصص بغيرهم من الشعوب ام قصروا عنهم ؟ ام سبقوهم ؟ ولماذا ؟

كل هذه الاسئلة (وغيرها كثير) نطرحها امام القارىء لينعم فيها نظره ويجيب

نفسه عليها ، بعد ان يقرأ هذا الكتاب . اما لماذا لا نجيب عليها نحن الآن فلسببين :

اولاً : لان بعضها وربما اكثرها قد تناولنا الجواب عليه في سياق بحوثنا المختلفة في هذه الرسالة .

ثانياً : لاننا نعتقد ان الجواب الشافي على بعضها الآخر يتطلب رسالة اخرى لا تقل ضخامة عن هذا الكتاب الذي بين ايدينا .

ولكن ذلك لا يمنعنا من القول بان هذه الالوان القصصية الثلاثة ، وقد اخترناها من ضمن خمسة انواع[1] تمثل القصة العباسية العربية اتم واصدق تمثيل ، وتصور نفسية العربي ومجتمعه احسن وابدع تصوير .



(١) راجع هذه الرسالة — مقدمة البحث — ص : ١٧

مصادر البحث حسب ترتيبها التاريخي

الكتاب المقدس

القرآن

الطبري (٣١٠ هـ) – تاريخ الرسل والملوك لابي جعفر محمد بن جرير الطبري
ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١ م

ابن عبد ربه (٣٢٨) – العقد الفريد لاحمد بن محمد بن عبد ربه . المطبعة الاميرية
مصر سنة ١٢٩٣ هـ

الهمداني (٣٣٤) – الاكليل تأليف ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف
بن داود المشهور بالهمداني – نشر الكرملي بغداد ١٩٣١ م

المسعودي (٣٤٦) – مروج الذهب ومعادن الجوهر لابي علي بن الحسين بن علي
المسعودي . باريس ١٨٦١ – ١٨٧٦ م

الكندي (٣٥٥) – كتاب الولاة وكتاب القضاة لابي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب
الكندي

الاصفهاني (٣٥٦) – كتاب الاغاني لابي الفرج علي بن الحسين الاصفهاني. بولاق مصر
١٢٨٥ هـ والجزء ٢١ ليدن ١٣٠ هـ

ابن النديم (٣٨٥) – كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق الوراق المعروف بابن النديم
ليبزك ١٨٧١ م

الخوارزمي (٣٨٧) – كتاب مفاتيح العلوم لابي عبدالله بن احمد يوسف الخوارزمي
مطبعة الشرق ١٣٤٢ هـ

الثعلبي (٤٢٧) عرائس المجالس في قصص الانبياء تأليف ابن اسحق احمد بن محمد
بن ابراهيم الثعلبي. مصر مطبعة مصطفى محمد ١٣٠١ هـ

الحصري (٤٥٣) – زهر الآداب وثمر الالباب لابي اسحق الحصري القيرواني .
المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥ م

ابن رشيق (٤٥٦ هـ) – كتاب العمدة لابي العباس الحسن بن رشيق القيرواني مصر
١٩٢٥ م مطبعة امين هندية

الكسائي ؟ قصص الانبياء للشيخ الامام محمد بن عبدالله الكسائي ليدن ١٩٢٢م

ياقوت (٦٢٦ هـ) – معجم البلدان للشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي . ليبزك ١٨٦٦ – ١٨٧٠ م

ابن الاثير (٦٠٦ هـ) – النهاية في غريب الحديث والاثر في خمسة مجلدات. مجد الدين ابن العادات المبارك محمد بن الجزري – المطبعة العثمانية بمصر ١٣١١هـ

ابن الاثير (٦٣٠ هـ) – الكامل في التاريخ لابي الحسن عز الدين المعروف بابن الاثير المطبعة العامرة . مصر ١٢٩٠ هـ

ابن الاثير (٦٣٧ هـ) – المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر لابي الفتح نصر الله بن ابي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الاثير مصر ١٢٨٢هـ

القفطي (٦٤٦ هـ) – اخبار العلماء باخبار الحكماء لجمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي مصر ١٣٢٦ هـ

ابن ابي اصيبعة (٦٦٨ هـ) – عيون الانباء في طبقات الاطباء لموفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم

ابن خلكان (٦٨١ هـ) – وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لشمس الدين احمد بن محمد بن خلكان مصر ١٢٧٥ هـ

النويري (٧٣٢ هـ) – نهاية الارب في فنون الادب لشهاب الدين احمد بن عبدالوهاب بن احمد البكري النويري مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٣ – ١٩٣٣ م

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) – كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر لابي زيد عبد الرحمن بن خلدون بيروت ١٩٠٠ م

المقريزي (٨٤٥ هـ) – كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لابي العباس تقي الدين المقريزي

المقري (١٠٤١ هـ) – نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب مصر ١٢٧٩ هـ

الحاجي خليفه (١٠٦٨هـ) – كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبدالله كاتب جلبي – ليبزك ١٨٣٥ – ١٨٥٨ فلوجل

؟ سيرة عنترة بن شداد – بيروت المطبعة الادبية سنة ١٨٨٤ م

؟ سيرة فارس اليمن الملك سيف ابن ذي يزن . مصر . المطبعة السعيدية

المصادر الحديثة

اسكندر آغا ابكاريوس – منية النفس في اشعار عنتر عبس
سليمان البستاني – الياذة هوميروس
عبد الوهاب عزام – الشاهنامه . مصر مطبعة دار الكتب ١٩٣٢ م
جرجي زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية مطبعة الهلال ١٩١٤ م
احمد حسن الزيات – تاريخ الأدب العربي مطبعة الاعتماد مصر ١٩١٤ م
احمد امين { فجر الاسلام مصر ١٩٢٨ / ضحى الاسلام مصر ١٩٣٣
زكي مبارك – النثر الفني في القرن الرابع – دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ م
محمود تيمور – نشوء القصة وتطورها . المكتبة السلفية ١٩٣٦ م
ارنولد وجيوم – تراث الاسلام ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم مصر ١٩٣٦م
محمد صابر – ادب الفراعنة . القاهرة ١٩٣٧ م
عبدالله غانم – كتاب الاجيال . بكفيا ١٩٣٨ م
ده بور – تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة ابوريده القاهرة ١٩٣٨م
عبد العزيز البشري – المختار . مطبعة المعارف . مصر ١٩٣٧ م
فؤاد افرام البستاني – مجلة المشرق مج ٢٨
توفيق الحكيم – تحت شمس الفكر . مطبعة التوكيل القاهرة ١٩٤١ م
? – مجلة العروة الوثقى عدد كانون الثاني سنة ١٩٣٩ م
? – كليلة ودمنة . مطبعة المعارف القاهرة ١٩٤١ م المقدمة
جرجي زيدان الهلال مج ١٤
محمد احمد جاد المولى / علي محمد البجاوي / محمد ابو الفضل ابراهيم } قصص العرب مصر ١٩٣٩

ابو الفضل الوليد — مجلة الآمالي
؟ — المكشوف مج ٢
جورج ديهامال — دفاع عن الادب ترجمة محمد مندور القاهرة ١٩٤٢ م
؟ — مجلة المقتطف مج ٢٩
كامل الكيلاني — حي بن يقظان . مطبعة المعارف . مصر ١٩٣٥ م
عبد الوهاب نجار — قصص الانبياء . مصر مطبعة النصر ١٩٣٦ م
الدكاترة حسن وغيره — كتاب نواحٍ مجيدة من الثقافة الاسلامية ١٩٣٨ م
انيس فريحه — مجلة الابحاث السنة ١

المصادر الاجنبية

1 — Carra de Vaux. — Penseurs de l'Islam, Paris 1921 - 26.

2 — Chauvin V. — Bibliographie des Ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes, Liège 1892.

3 — O'leary De lacy — Arabic Thought and its place in History, London 1922.

4 — Lane Pole, Stanley — The Moors in Spain, London 1920.

5 — Ribera, J. — Music in Ancient Arabia and in Spain, London 1929.

6 — Arbuthnot F. F. — Arabic Authors, London 1890.

7 — Ampère M. J. J. — La Revue des deux Mondes, Février 1898.

8 — Alphonse de Lamartine — Voyage en Orient, Paris 1910.

9 — Tisdall, N. St Clair — The Original Sources of the Qur'ân, London 1905.

10 — Driver, S. R. — The Book of Genesis, London 1907.

11 — Skinner J. — Genesis, Edinburg 1910.

12 — Heller B. — Die Bedentung des Arabischen'Antar - Romans Für Die Vergleichende Litteraturkunde, Leipzig 1931.

13 — Bédier J. — La Chanson de Roland, Paris 1937.

14 — Journal Asiatique — 9me série.

15 — Farmer H. G. — A History of Arabian Music to the XIII Century London 1929.

16 — Encyclopedia Britannica — Epic.

17 — Encyclopedy of Islam — Vol. IV.

18 — Huart Cl. — Littérature Arabe.

فهرست الكتاب

فهرست مفصّل للموضوعات

٨٠–٨٦ تعريف القصص البطولي . لماذا سميناه بهذا الاسم ؟ مـــا هي اشهر الكتب القصصية التي وصلتنا في هذا الموضوع ؟ قصة بكر وتغلب . قصة البرّاق . قصة سيف بن ذي يزن . سيرة بني هلال . العنصر التاريخي في هذه السيرة . اقسامها الرئيسية . مصادرها . ماذا قال ابن الاثير في بني هلال؟ رأي بعض المستشرقين في حكايات بني هلال . هل من تشابه بين سيرة بني هلال والشاهنامه؟

٨٧–٩٦ سيرة عنترة بن شداد كمثال عن القصص البطولي وعلى ماذا تقوم شهرتها ؟ ما هي هذه السيرة ؟ هل لها مؤلف معروف ؟ لمـاذا لا نستطيع ان نصل الى مؤلفها الحقيقي ؟ طبعاتها وترجماتها . بحوث المستشرقين فيها وترجمتهم بعض اجزائها . اقسامها الرئيسية . موضوعها .

٩٧–١٠٣ بحث في بعض شخصيات السيرة ودرس صفاتها. عنترة في حبه العنيف. لماذا يتحمل كل هذه المخاطر ؟ لماذا يثير حبه لابنة عمـه نقمة الناس عليه ؟ عنترة البطل . صفات هذه البطولة . عنترة والشعراء . الشعر صفة مكملة للبطولة. عنترة والدهاء السياسي . « كان يقدم موضع الاقدام ويحجم موضع الاحجام»

١٠٤–١٠٥ اخلاق عنترة . من مزاياه عزة النفس ، العفة ، الترّفع عن الدنايا ، سهولة العشرة ، دماثة الخلق ، الكرم ، الحلم ، المحافظة على الشرف الخ .

١٠٦–١٠٧ عبلة بطلة السيرة تثور من اجل حبها . هي امينة مخلصة لعنترة رغم تزويجها قسراً من غيره . وهي في حبها عفيفة ، شريفة ، طاهرة ولكنها تغار غيرة جنونية .

١١٠ شيبوب من الشخصيات المحببة في السيرة . لا يقع عنترة في ورطـة الا ويصل اليه شيبوب « اسرع من لمح البصر كأنه الثعبان الاغبر » .

١١١–١١٣ الروح الاسلامي في سيرة عنترة . في السيرة محاولات من قبـل جامعيها لصبغها بصبغة الاسلام على بعد الزمن بين حوادثها وعصر الاسلام .

١١٤ منزلة السيرة الادبية . هل تعتبر مصدراً تاريخياً ؟ هي معرض لحياة العرب في الجاهلية وهي في مقدمة الحكايات العربية البطولية .

١١٥ ان حوادثها الخارقة من الاسباب التي ترفع منزلتها

١١٦ هل يصح ان ندعوها « بالياذة العرب » ؟ رأي زيدان والزيات وغيرهما من الباحثين في ذلك .

١١٧ يؤيد هذا القول المستشرق الفرنسي ده برسفال .

١١٨ اين هي عناصر الملحمة في سيرة عنترة ؟

١١٩ هل تتشابه واغنية رولاند الملحمة الفرنسية ؟ هناك اربعة مشاهد تحمل على المقارنة . في كتاب هلر الالماني بحث مطول في هذه السيرة ومنزلتها في ادب المقارنة .

١٢٠ ليست سيرة عنترة ملحمة بالمعنى الصحيح ولكنها سجل لمآثر العرب في العصر الجاهلي وحروبهم وانتصاراتهم وبذلك هي « الياذة العرب » .

١٢١—١٢٢ القصص الديني . تعريفه . اول قاص في الاسلام مادة القصص الديني . امثلة منه .

١٢٣—١٢٤ ما هو القصص الديني ؟ متى عرف هذا القصص في الاسلام ؟

١٢٥—١٢٧ الكتب القصصية الدينية التي وصلتنا وفي مقدمتها كتابان : قصص الانبياء للكسائي والعرائس للثعلبي

١٢٨—١٢٩ قصة آدم كمثال عن هذا القصص الديني . حالة الارض قبل ان خلق الله آدم . كيف خلق الله آدم ؟ حديث وهب بن منبّه في ذلك .

١٣٠—١٣٣ صفات آدم . ركوب فرسه الميمون وطوفانه في السماء . كيف تم زواج آدم بحواء . آدم وحواء يسكنان الجنة قبل ان يقعا في الخطيئة . هبوط آدم من السماء الى بلاد الهند بعد الخطيئة . بكاء آدم وندمه على فعلته . قبول الله توبته . كيف توفي الله آدم . حزن حواء عليه وتمزيق ثيابها لفقده .

١٣٣—١٣٥ مقارنة بين ما جاء في التوراة والقرآن عن آدم بما ذكر عنه في هذا القصص الديني . هل من اختلاف في حياة آدم كما وردت في التوراة عنها في القرآن

١٣٦—١٣٧ قصة نوح كمثال ثان لهذا القصص الديني . بشارة جبريل نوحاً بالنبوة . سفينة نوح . وصفها الغريب . الحيوانات التي ادخلها نوح السفينة . طواف السفينة بنوح اقطار العالم . استقرارها اخيراً على جبل الجودي .

١٣٧—١٣٩ قصة نوح كما وردت في القرآن والتوراة

١٤٠—١٤١ قصة ابراهيم كمثال ثالث لهذا القصص الديني . اين ولد ابراهيم ؟ الكعبة تسجد عند ولادته . ماذا كان يفعل ابراهيم باصنام ابيه التي كان يسلمه اياها للبيع . قصة ابراهيم والنمرود . تعذيب النمرود ابراهيم وحرقه في النار .

النمرود يحاول ان ينتقم من اله ابراهيم . التابوت الذي اعده لهذه الغاية.

١٤٢–١٤٤ الملاك ينصح النمرود ولكنه لا ينتصح . موت النمرود بصورة مفجعة . حكاية البعوضة التي دخلت في منخريه واكلت دماغه. على ماذا استند القصاص في سرد هذه الاسطورة ؟ حكاية ابراهيم وذبحه ابنه اسحق .

١٤٥–١٤٦ قصة يوسف كمثال رابع عن هذا القصص الديني . اين هو موضع الطرافة في هذه الحكاية ؟ رؤيا يوسف. كيف فسرها القصاص ، الفرق بين حكاياتهم وبين ما جاء في التوراة والقرآن .

١٤٧–١٤٩ حكاية يوسف مع امرأة العزيز . يوسف يسجن ثم يطلق سراحه .

١٥٠–١٥١ قصة عيسى كمثال خامس عن هذا القصص الديني. في هذه الحكاية طرافة وغرابة . ولادة عيسى بطريقة غريبة. ذهابه الى الكتّاب ليتعلم وعمره تسعة اشهر ! فصاحة عيسى ومعرفته التي تدهش معلميه .

١٥١–١٥٢ يعترف القصص بكل عجائب المسيح التي وردت في الانجيل والقرآن ويزيد عليها عجائب لم تذكر في هذين الكتابين .

١٥٣–١٥٤ اقامة السيد المسيح لعازر من الموت ، مشي السيد المسيح على الماء .

١٥٥–١٥٦ كيف يظهر عيسى في هذا القصص ؟ حديث النبي: « الأنبياء اخوة لعلات » كيف يموت عيسى ثم يرفعه الله اليه .

١٥٧ قيمة هذا القصص من الناحية الدينية .

١٥٨–١٦٠ يتناول القصاص حياة النبي محمد ايضاً. ولادته بطريقة عجيبة تخالف كتب التاريخ الاسلامي . محمد يخالف بصفاته جميع الانبياء . لقد تنبأ بمجيئه كثير من الانبياء . ولقد مات بصورة خاصة ايضاً .

١٦١–١٦٤ ما هي مزايا هذا القصص الديني؟ انه يمتاز بالصبغة الاسلامية حتى ولو كانت حوادثه قبل الاسلام . فيوم الجمعه هو يوم مقدس . وكثيرون من انبياء التوراة هم مسلمون الخ الخ .

١٦٥–١٦٧ في هذا القصص كثير من الخوارق التي يصعب تصديقها . راجع بعض هذه الخوارق في صفحتي: (١٦٥ و١٦٦) . من اين هذه الخوارق؟ ماذا قال الباحثون في هذا العدد الضخم من السنين التي يعيشها هؤلاء الانبياء .

١٦٨—١٧٠ هل اثرت التوراة في هذا القصص ؟ ذكر التوراة في القرآن وترجمتها الى اللغة العربيه . اشهر من نقل الاسرائيليات الى العرب هما اثنان : كعب الاحبار ووهب بن منبه .

١٧٠—١٧٤ ما قيمة هذا القصص الديني ؟ اهم مزاياه : العبرة والوصف الغريب . امثلة طريفة عن غرابة هذا الوصف .

١٧٤—١٧٧ رأي خاص في هذا القصص . ما هذا الخيال الذي يلعب دوره في هذه الحكايات ؟ لماذا لا نجد انسجاماً في التفكير ؟ ما غاية هذا القصص ؟ هل نستطيع ان ندعي ان الحياة العربية مصوّرة في هذه الحكايات ؟ هل يعكس هذا القصص نفسية العربي والى اي حد ؟

فهرست الاعلام

— ن —

— هـ —

تم طبعهُ على مطابع المرسلين اللبنانيين — جونيه
في ١٥ حزيران سنة ١٩٥٠

ثمن النسخة ٢٥٠ غ . ل او مايعادلها

مطبعة البابا - بيروت - تلفون ٣٩ - ١٤